الآداب الأجنبية

مجلة فصلية يصدرها اتحاد الكتاب العرب العدد 113 شتاء 2003 السنة الثامنة و العشرون

عدد خاص عن ((المقاومة في الأدب))

الآداب الأجنبية

مجلة فصلية تصدر عن اتحاد الكتاب العرب بدمشق

العدد 113 شتاء 2003 السنة الثامنة و العشرون

الآداب الأجنبية

مجلة فصلية تصدر عن اتحاد الكتاب العرب بدمشق

« الآداب الأجنبيـة »

مجلة فصلية تصدر كل ثلاثة اشهر تعنى بنشر المواد المترجمة من الادب العالمي في مجالات الشعر والقصة والمسرحية وغيرها من صنوف الادب الابداعي وكذلك في مجالات النقد والبحث الادبي .

* توجه جميع المراسلات باسم امانة التحرير .

* المقالات المنشورة في المجلة لا تعبر بالضرورة عن راي المجلة .

* المواد التي تتلقاها المجلة لا ترد لاصحابها سواء نشرت ام لم تنشر .

الاشتراك السنوي

داخل القطر للأفراد ٤٠٠ ل.س.
داخل القطر للوزارات و المؤسسات ٦٠٠ ل.س.
في الوطن العربي للأفراد ١٥٠٠ ل.س. أو ٣٠ دولار
خارج الوطن العربي للأفراد ٢٠٠٠ ل.س. أو ٤٠ دولار
في الوطن العربي للوزارات و المؤسسات ٢٠٠٠ ل.س. أو ٤٠ دولار
خارج الوطن العربي للوزارات و المؤسسات ٢٥٠٠ ل.س. أو ٥٠ دولار
أعضاء اتحاد الكتاب العرب ٢٠٠ ل.س.

المراسلات :

باسم أمانة التحرير

الادارة

اتحاد الكتاب العرب

دمشق - المزة أوتستراد - ص .ب : 3230
هاتف : 6117240-6117243-6117242
6117243
البريد الإلكتروني :
Email : unecriv@net.sy
aru@net.sy
الانترنيت
http://www.awu-dam.org

تنويــــه

تعـتذر هيئة تحرير الآداب الأجنبية عن قبول أية مادة غير مرفقة بالأصـل الأجنبـي؛ كما ترجو الهيئة من السادة المترجمين كتابة اسم المؤلـف والمترجم وعنوان المادة والمرجع باللغة الإنكليزية أو اللغة الأصلية التي كتب بها النص.

□□

دعـوة

إلى السادة المترجمين:

تـنوي مجلـة الآداب الأجنبـية نشـر ملفات خاصة عن كل من ***الأدب الصـيني والأدب الأرمنـي والأدب الأندونيسـي.*** *يـرجى من الباحثين والمترجمين الراغبين بالمساهمة في الملفات المذكورة إرسال موادهم وترجماتهم إلى المجلة مرفقة بالأصول.*

□□

الافتتاحية

شرف المقاومة

بقلم رئيسة التحرير:

■ د.بثينة شعبان ■

في زمن اختلطت به المفاهيم، وتداخلت القيم، وركزت القوة العظمى في العالم على عمليات القهر العسكري، والسيطرة الإعلامية، والمعلوماتية، على شعوب الأرض، يعاني العرب جميعاً من تشويش في الرؤى والمفاهيم وتتجاذبهم رياح عاتية من الشرق والغرب تعصف بهم في مختلف الاتجاهات، دون أن يدركوا مستقراً أو يتيقنوا من نقطة الانطلاق والهدف المرتجى.

وفي الوقت الذي تمكنت به الانتفاضة الفلسطينية الباسلة من تغيير موازين القوى، وإثبات صوت من لا قدرة عسكرية لهم على الساحة الإقليمية تتخبط القيادات الفلسطينية في إجراء انتخابات، أو إصلاحات، تحت احتلال يعتمد سياسة الإبادة الجماعية، والتطهير العرقي، ويدعي الديمقراطية ويتظاهر أمام العالم بأنه الضحية.

ومنذ أحداث الحادي عشر من أيلول عمدت إسرائيل إلى ربط "الإرهاب" بالنضال الوطني الفلسطيني الهادف إلى تحرير الأرض والشعب من آخر احتلال على وجه الكرة الأرضية، وصاغت لنفسها

رسالة إعلامية واضحة ومختصرة، وهي أنها كالولايات المتحدة ضحية للعنف والإرهاب، اللذين يطالان أبناءها في المطاعم، والشوارع، وغيبت نتيجة لذلك أو على الأقل عملت جاهدة على تغييب حقيقتي الاحتلال والاستيطان واللذين هما أصل العنف في المنطقة، ومبعثه الأساسي. وأخذت تسمّي خيرة الشباب الفلسطيني المقاوم والمناضل والمؤمن بعروبته إرهابيين، وتعتقلهم وتقتلهم وتدمر منازلهم على هذا الأساس وبهذه الذريعة.

والأعتى من ذلك، أن دولاً عربية، وفصائل فلسطينية، أخذت تعقد اجتماعات وتضع جداول أعمال للتوصل إلى اتفاق يوقف العنف ضد الإسرائيليين لمدة عام كي يسمحوا للمفاوضات السلمية بالانطلاق مؤكدين بهذا في نظر العالم على الأقل مقولة الاحتلال الاستيطاني العنصري: "إن الفلسطينيين إرهابيون، وعليهم وقف هجماتهم ضد إسرائيل"، كل هذا يحدث في الوقت الذي يستمر فيه شارون وحكومته العنصرية بقتل الأطفال الفلسطينيين وتدمير منازلهم، وتجريف أراضيهم الزراعية، واقتلاع أشجار الزيتون، واغتصاب أراضي قرى بكاملها لبناء الجدار العنصري الذي تقوم دولة الفصل العنصري بإشادته بعد أن سقطت جميع الأنظمة العنصرية في العالم ما عدا النظام العنصري الصهيوني.

كل هذا يحدث دون أن تتبلور ا ستراتيجية عربية فكرية سياسية وإعلامية ترسل رسائل لا تقلّ وضوحاً للعالم تري من خلالها جرائم الحرب التي يرتكبها شارون يومياً ضد الشعب الفلسطيني، وتفرّق أيما تفريق بين الإرهاب والمقاومة، وتوضح للعالم أن الفلسطينيين هم ضحايا الإرهاب الإسرائيلي وأنهم مناضلون من أجل الحرية والاستقلال ولابد لكل ذوي الضمائر الحرة في العالم من دعمهم تماماً كما دعموا "نيلسون مانديلا" وحركة التحرر في جنوب أفريقيا وجميع حركات التحرر

الأخــرى فـــي العالم. كل هذا يحدث دون أن يستثمر القادة الفلسطينيون دمـــاء الشهداء التي تبذل سخية من أجل الأرض والشجر والكرامة، فهل يجـــوز أن يقـــبل أحد منطق العدوّ الذي يتهم الفلسطينيين بأنهم مصدر العنف والإرهاب في الوقت الذي يُمارسون فيه أبشع أنواع حروب الإبادة ضــد هــذا الشعب الآمن، وبعد أن هدموا كل البنى التحتية الفلسطينية، وتنكروا حتى للاتفاقات الجائرة والهزيلة التي عقدوها مع الفلسطينيين.

لقد أثرت الانتفاضة الباسلة تأثيراً لم يسبق لـــه مثيل على حياة العدو الصـــهيوني، واقتصـــاده، ومستقبله، وسمعته، في العالم، ولاشك أن لغة المقاومـــة هي اللغة الوحيدة التي يفهمها هذا العدو، وينصاع لمتطلباتها، ولذلـــك ليس على القادة السياسيين سوى أن يتمتعوا بوضوح في الرؤية وبإيمان لا يتزعزع بهذا الشعب المقاوم الذي غيّر مفهوم الاستراتيجيات العسكرية للعالم برمّته وأثبت أن الطفل الأعزل يمكنه أن يقاوم دبابة لا بـــل لقد شهدنا منظر الأطفال البواسل يركضون وراء دبابة العدو، وهي تنســحب مـــن أمـــامهم، ويـــرفعون علم فلسطين عليها. هؤلاء الأطفال الشـــجعان الذيـــن يواجهون الموت، يتمتعون بوضوح في الرؤية، يفتقده قادتهم السياسيون، وهو أن هذه الأمة لن تموت، وأن أحداً لن يتمكن من التـــنازل عن حقوق الشعب الفلسطيني، طالما أن هذا الشعب أنجب، وما زال هـــؤلاء الأبطـــال الذيـــن لا يهابون الموت ولا يحسبون حساباً لقوة عســـكرية مهما كانت. بدلاً من أن يهنئ بعض القادة العرب ذلك المجرم الملطخـــة يداه بدماء الشعب الفلسطيني، وأن ينظروا أنه لابد من التعامل مـــع الواقع، وإعطاء شارون فرصة عليهم أن يتعاملوا مع واقع شعوبهم التـــي ســـبقتهم كـــرامة وعمـــلاً وفهماً للحدث وأن يأخذوا ما تريده هذه الشـــعوب كواقـــع يجب التعامل معه، بدلاً من القفز عليه والإصغاء لما يـــريده ســـيد الكون منهم، وتنفيذه بحرفيته. على هؤلاء أن يدققوا بجرأة شـــعوبهم وســـعيها من أجل الكرامة والحرية والاستقلال دون خوف أو

وجـل وأن يـرتقوا على الأقـل إلى مستوى تلك الشعوب التي تذهب تضـحياتها بثمـن رخيص نتيجة عدم توفر القيادة السياسية التي حسمت خياراتها لصالح المقاومة والنضال حتى التحرير والاستقلال.

إن الشـعب العربـي سـواء فـي لبنان، أو في فلسطين، لم يبخل بالتضـحيات وقـد تمكن بإمكانات بسيطة ومتواضعة من دحر الأعداء وتحريـر جـنوب لبـنان، والشعب في فلسطين سجل أساطير النضال والمقاومــة التــي لفتت أنظار العالم لقضية الشعب الفلسطيني وضرورة إنصـافه. وما تبقى اليوم هو أن ينجلي مفهوم المقاومة لدى بعض القادة العـرب، وأن يثقوا بما تقدمه شعوبهم ويقدروه حق قدره كي لا تتلاعب بخطواتهم السياسية الأيادي المغرضة والتي تخطط لإلحاق الهزيمة بإرادة هـذا الشعب الذي لا يقهر. إنّ ما نحتاجه اليوم هو الوضوح في الرؤية والعمل بمقتضى هذه الرؤية التي تثبت دون أدنى ريب أن شرف المقاومة هـو أعلى شرف وطني يحققه المواطن وأن المقاومة هي السبيل الوحيد لإنهـاء الاحتلال والاستيطان، وتحرير الأرض، وإعادة الحياة في المدن الفلسـطينية المحاصـرة إلى نسغها الأصلي وإلى تاريخها المجيد وإلى زهوهـا وإشـراقها. إنـنا في العالم العربي نمرّ بمرحلة تقدّم بها نضال الشـعب ورؤيـته علـى إيمان بعض القادة وعزيمتهم ولا شيء سوى اسـتمرار المقاومـة يمكن لـه أن يضع هذه المعادلة في نصابها السليم ويثبت رؤية الشعوب على أنها كانت وما زالت الأسلم والأبقى والأنجع. إن هذا الشعب الذي يسعى جاهداً ليكون جديراً بشرف المقاومة لن يموت ولن يهزم ولن يكتب له سوى التحرير والنصر والمستقبل المشرق.

□□□

المقاومة الوطنية

■ د. ناديا خوست ■

أغرانا بالتحضير لهذا العدد من الآداب الأجنبية، توهج المقاومة العربية في الأرض المحتلة، وما تثيره العلاقة بين حقيقة ترتفع حتى الأسطورة بحرارتها وسعتها، ومسألة استيحائها في الأدب، وتنوع التعبير الأدبي عن المقاومة بما يناسب الأساليب الفنية التي ينتجها الزمن. كان الشعر وسيلة التعبير المعتمدة عن المقاومة الوطنية في أيام الاحتلال بعد الحرب العالمية الأولى. فحصدنا تراثاً شعرياً أصبح بعضه أناشيد صدحت في الوطن العربي، من "بلادي، بلادي بلادي، لك حبي وفؤادي" إلى "بلاد العرب أوطاني"، إلى "إذا الشعب يوماً أراد الحياة". لم يخطر لأحد أمام الحاجة التي عبر عنها الشعر، أن يفكر يومذاك بموضوعة الالتزام، أو بموضوعة الفن للفن. فترقرق التعبير وروى الحاجة إلى الرد على تعالي المحتلين بالاعتداد بالتاريخ واللغة والعراقة، وبالتضحية في سبيل الوطن. ولم يمنع ذلك بوح الوجدان بحزن المنفي، والألم من فراق المحبين. وكأنما تجد المسائل الأدبية جوابها الصحيح عندما توضع وسط الظروف التي تنتج الأدب، وتتعقد كلما ابتعدت عن حقيقة أن الأدب تعبير عن الوجدان، منسوج في زمان ومكان.

تضع المقاومة الوطنية الفلسطينية اليوم، إذن، مسائل أدبية للبحث. ولا نحتاج إلى كثير من الموضوعية كي نتبين أن المقاومة في الأرض المحتلة تقدم بتضحياتها وبطولاتها شواهد لا سابق لها في تاريخ المقاومة الإنسانية، يقصّر عن

بلاغتها أي تعبير أدبي عربي أو أجنبي. نجد حرارة التعاطف في تقارير الصحفيين الغربيين المتضامنين مع العرب. لكننا لا نجد بعدُ تعبيراً أدبياً يستطيع أن يلتقط خواطر جريح منع الجيش الإسرائيلي المحتل إسعافه فنزف حتى الموت. أو أن يؤدي عواطف طفلة تبحث عن دفاترها المدرسية وسط أنقاض بيتها المنسوف. قد يُكتب ذات يوم عن تلك المآسي والبطولات، عندما يهدأ القلب ويصفو الفكر وتتبدد الغازات السامة التي يرميها المحتلون على الشهود، فيستطيعون أن يصوغوا بنية أدبية ترسم بشراً عاشوا في الأرض المحتلة على خط دقيق بين الحياة والموت. لذلك رأينا أن يتصدر هذا العدد من مجلة الآداب الأجنبية نداء الروائي الإنساني غابرييل غارسيا ماركيز، الذي يجسد مأساة الصمت، والخوف من نفوذ الإعلام الصهيوني والمراكز الفكرية والسياسية الصهيونية في الغرب. نقدمها كشهادة على الضمير الحي، وعلى جرأة كاتب يعلن موقفه متحدياً الحصار على كل من يمس عنصرية الصهيونية والاحتلال الإسرائيلي.

وبما أننا حضّرنا هذا العدد من مجلة الآداب الأجنبية وسط هدير حاملات الطائرات، وضجة الحشد العسكري والإعلامي لغزو العراق، اقتطفنا مقطعاً مناسباً من كلمة المفكر الفرنسي الكبير جان جوريس. أعلن جوريس رأيه في الحرب، وتصدى للجو المحموم الذي واكب التحضير لها بالعواطف والهيجان. وسيتبين القارئ أن الحمى التي واجهها جوريس تشبه الهيجان المجنون الذي يحضّر وسطه غزو العراق اليوم. وسيذكّره جوريس بالمفكرين الأحرار الذين يكشفون أسباب الحرب الاستعمارية على العراق اليوم. اغتيل جان جوريس في مطلع الحرب العالمية الأولى، ويبدو لنا اغتياله شاهداً على العنف الوحشي الذي يمارسه من يستندون إلى القوة ليخمدوا الحقيقة ويمنعوا حوار العقل. ويذكر قتله بالاغتيالات التي يمارسها المحتلون الإسرائيليون، وبوحشية الدبابات التي تحاصر المدنيين العرب وتقصفهم.

قصدنا بأدب المقاومة، التعبير عن المقاومة الوطنية. لكننا، إلى ذلك أضفنا، بنشر استجواب الكاتب الروسي الكبير دستويفسكي، شكلاً آخر من المقاومة الإنسانية. لأن هذا الكاتب الذي التقط في مهارة صوت القرن الذي عاش فيه، تميز أيضاً بموقف مبكر جداً من الصهيونية. فكشف سيادة اليهود على المراكز المالية

والسياسية، واستغلالهم الفقراء الروس. وانتقد انتماء اليهودي الروسي إلى مشروع بعيد عن وطنه. وقد دفع أدب دستويفسكي ثمن هذا الموقف حتى خمسينيات القرن الماضـــي، فحذفــت مـــن مؤلفاته أجوبته على الصهيونيين الروس، وسجن أكبر المختصين في أدبه.

قـد لا نجـد فـي الآداب العالمـية أدباً عبّر عن المقاومة الوطنية كالأدب السـوفييتي. مـن المقاومة في حرب التدخل إلى مقاومة الاحتلال النازي. اشترك الكتاب السوفييت في الحرب العالمية الثانية كمراسلين حربيين أو مقاومين فعرفوا أبطـال رواياتهم ومناخ الحرب من قرب. وترجمت أكثر تلك المؤلفات إلى اللغة العربية.

لا يســتطيع القارئ العربي أن ينسى تلك الأعمال التي سحرته بإتقانها الفني وبمآثــر المقاومين وتضحيات الشعوب السوفيتية. يبرر لنا ذلك لماذا لم نترك لها مســاحة واســعة. لكن لن يفوتنا أن نذكّر بأن تلك الأعمال الأدبية رصدت أشكال المقاومـــة المتنوعة. أعدم النازيون زويا وغيرها من أبطال الأنصار، لأنهم نسفوا الجســور، وأحــرقوا المطــاعم، وفجــروا المقاهي. كان ذلك "تخريباً" في رأي المحتلين. وبطولة وطنية في رأي أهل البلاد الذي شيدوا لأولئك المقاومين التماثيل والنصــب بعد الانتصار على النازية. كان مشروع النازية يومذاك أن تحكم العالم بــتفوقها العسكري، وأسست على التفوق بالقوة، تصنيف الشعوب والحق في رسم خــرائط العالم ومصائر الشعوب. ولولا المقاومة الأوروبية التي خربت كل مكان سكن إليه المحتلون فأفقدتهم الأمان، لما كان الانتصار على النازية. لذلك نثبّت في هــذا العدد تعبيرين عن المقاومة الفرنسية، أحدهما عن العمل المسلح والثاني عن المقاطعة المدنية، في قصتين ننشرهما مترجمتين عن اللغة الفرنسية.

ولعلــنا بهذا أيضاً نعيد الحق للشعوب الأوروبية التي حملت مقاومة النازية، وانتصــرت علــيها، ويســلبها الإعلام الصهيوني اليوم أمجادها فيتجاهل عشرين مليون قتيل في الاتحاد السوفييتي وملايين الشهداء في أوروبا الغربية.

لن يفوتنا أن نذكر أن الوعي العربي والتسامح الرفيع جعل العربَ يترجمون روايــات المقاومـــة الفرنسية والروسية وقصائد الشعر المقاوم، ويحترمون مآثر المدافعيــن عـــن قلعة بريست، وقوات ديغول في النورماندي، وصمود لينينغراد

وســتالينغراد. ويعجــبون بــرواية الطلقــة الواحدة والأربعين، وبرواية لمن تدق الأجــراس، وتحــت أعــواد المشــنقة. لأنهم كأحفاد حضارة قدمت للعالم العلوم والعمــارة والفلــك والرياضيات والأرقام والأبجدية، يؤمنون بأن تراث المقاومة الإنسانية تراث عام تستقوي به الشعوب كلها.

ومن السخرية أن يدفع العرب ثمن تحرر أوروبا من النازية، فيفرض عليهم الرحيل من مدنهم وبيوتهم في فلسطين، وتدمر حوالي خمسمائة قرية عربية.

ويبيــن قــرار التقسيم نفسه انتزاع مدن عربية كاملة من أهلها. وفي الوقت الــذي كان العرب فيه يترجمون مآثر المقاومة الوطنية الأوروبية، كان ستار من العــتمة يــنزل على تهجير الشعب الفلسطيني من بيوته ومدنه ومزارعه، وعلى المقاومة العربية التي استندت إلى البطولة الفردية التي ما كانت لترد جيشاً محتلاً مــنظماً جهزه الانتداب وأمّن لــه الخبرة والسلاح الحديث خلال الحرب العالمية الثانية.

اغتــنى الأدب الإنساني بأدب المقاومة. فبدا أن أجمل آثاره تلك التي تناولت مادتهــا من وهج ظروف استثنائية. يستنتج الناقد، في يسر، أن أدب المقاومة من جواهــر الأدب العالمــي. وكأن الظروف غير العادية تقدم للكاتب إمكانية كشف القــوى الخارقة والعواطف الغنية في الإنسان، وتدفع الكاتب إلى صياغة القضايا الكبرى، ورسم تداخل قرار الاختيار الشخصي والعام في ضوء الحياة والموت.

أصــبحت قصيدة سيمونوف نشيداً وطنياً وجدانياً لصدقها وبساطتها وقوتها، ولرمزها إلى حاجة الجبهة في عمقها البشري: "انتظريني وسأعود، لكن انتظريني زمــناً طويــلاً.. انتظرينــي عندما لا ينتظر الذين نسوا الأمس أحداً". وما تزال روايات الحرس الفتي، ومصير إنسان، ولمن تقرع الأجراس تُنشر وتقرأ.

يواجه العرب اليوم العنصرية، وغطرسة القوة المسلحة الحالمة بالسيادة على العــالم. لذلــك يســتعيد هذا العدد من الآداب الأجنبية دفاع الشعوب عن أوطانها وســيادتها، ومقاومــتها عنصرية المحتلين. معبراً عن إيماننا بأن المقاومة العربية المعاصــرة وريــثة المقاومة الوطنية الإنسانية، وأن المحتلين والحالمين بالسيطرة على العالم ورثة النازية المهزومة والإمبراطوريات الغاربة.

□□

امنحوا شارون

((نوبل القتل))

بقلم:

غابرييل غارسيا مركيز

■ عن الأنترنيت ■

شجب الكاتب العالمي جابرييل جارسيا ماركيز، الحائز على جائزة نوبل للآداب، المجازر التي يرتكبها مجرم الحرب اريل شارون ضد الشعب الفلسطيني، ورشحه لنيل جائزة نوبل في القتل. وأعرب ماركيز، في مقال نشرت "الرأي" الأردنية ترجمة له، عن إعجابه ببطولة الشعب الفلسطيني الذي يقاوم حرب الإبادة التي يتعرض لها، واعتبر أن حصول مناحيم بيجين على جائزة نوبل للسلام تكريماً لجرائمه بمثابة إحدى عجائب الدنيا. وتالياً نص ما كتبه ماركيز:

إنه لمن عجائب الدنيا حقاً أن ينال شخص، كمناحيم بيجين جائزة نوبل في السلام، تكريماً لسياسته الإجرامية التي تطورت في الواقع كثيراً خلال السنوات الماضية على يد مجموعة من أنجب تلاميذ المدرسة الصهيونية الحديثة، إلا أن الموضوعية تفرض أن نعترف بأن الذي تفوق على الجميع هو الطالب المجدّ اريل شارون. وعلى أي حال، فإن فوز مناحيم بيجين بجائزة نوبل للسلام يظل من عجائب الدنيا حقاً، ولا يخفف من دهشتي القول إن الدنيا مليئة بالطرائف، إن هناك ما هو أغرب.

المهـم أن هـذا ما حدث، ولا طريقة الآن لتبديله، فاز مناحيم بيجين بجائزة نوبل للسلام لسنة 1978، مناصفة مع أنور السادات، رئيس جمهورية مصر في حينه، جاء ذلك كنوع من المكافأة على اتفاقية براقة أرست قواعد السلام من طرف واحد هو العربي.

الرجلان اقتسما الجائزة، لكن المصير اختلف من أحدهما إلى الآخر، الاتفاقية ترتب عليها في حالة أنور السادات انفجار بركان الغضب داخل جميع الدول العربية، فضلاً عن أنه، ذات صباح من أكتوبر 1981- دفع حياته ثمناً لها. أما بالنسبة لبيجين، فلقد كانت هذه الاتفاقية نفسها بمثابة الضوء الأخضر، ليستمر بوسائل مبتكرة في تحقيق المشروع الصهيوني الذي لا يزال حتى هذه اللحظة يمضي قدماً. أعطته الجائزة أول الأمر الغطاء اللازم حتى يذبح- بسلام- ألفين من اللاجئين الفلسطينيين في المخيمات داخل بيروت سنة 1982.

المؤكد أن اتفاقيات كامب ديفيد، بالإضافة إلى جائزة نوبل للسلام، تجاوزت شخص مناحيم بيجين، لتشمل أنجب تلاميذ المدرسة الصهيونية الحديثة، خاصة ناظرها الجديد اريل شارون. جائزة نوبل في السلام فتحت الطريق على مصراعيه لقطع خطوات متزايدة السرعة نحو إبادة الشعب الفلسطيني، كما أدت إلى بناء آلاف المستوطنات على الأرض الفلسطينية المغتصبة.

لن ننسى- نحن الذين نقاوم فقدان الذاكرة- الوعاء الفكري لممارسات النازية، ارتكز هتلر على نظرية المجال الحيوي لتحقيق مشروعه التوسعي باحتلال أرض الغير، وقد قال بيجين صراحة أن الأراضي المحتلة في 1967 هي ممتلكات يهودية ليس من حق أحد أن يطالب باستعادتها، الركيزة الثانية هي ما سماه الحل النهائي لمشكلة اليهود.

معسكرات الاعتقال سيئة السمعة كانت في نظره المخرج المناسب. إبادة جماعية، يولغ في سرد وقائعها لتبرير إبادة جماعية أخرى. أما حكاية الملايين الستة من اليهود ضحايا هتلر، فلقد انضمت إلى ترسانة الخرافات اليهودية، تمهيداً لإعادة ارتكابها من جديد تحت غطاء جائزة نوبل للسلام.

استندت نظرية المجال الحيوي الصهيونية إلى أن اليهود شعب بلا أرض،

وأن فلسطين أرض بلا شعب. هكذا قامت الدولة الإسرائيلية، غير المشروعة في 1948. فلما تبين أن هناك شعباً، وأن في فلسطين شعباً يسكن في أرضه، كان من الضروري حتى لا تكون النظرية مخطئة إبادة الشعب الفلسطيني، وهو ما يتم بصورة منهجية منذ أكثر من خمسين عاماً، لكن جائزة نوبل للسلام، بالإضافة إلى اتفاقية كامب ديفيد، اتخذت شكل الإذن الدولي بالقتل الذي لا يجرمه أحد. وقد تمكنت أجهزة الإعلام التي يسيطر عليها اليهود من إقناع البلهاء في الغرب بهذه الأكاذيب، مستثمرة عقدة الذنب عند القتلة، فباركوا المزيد من المذابح، لولا أن العالم استيقظ فجأة على أن هناك شيئاً اسمه الشعب الفلسطيني. ولم يلفت الانتباه إليه تمثيله الدبلوماسي أو مشاركته في المحافل الدولية. ما لفت الانتباه إلى وجوده هو هذا الأنين الصادر عن شعب يتعرض للإبادة.

تهامس الجميع على استحياء، الظاهر أن هنا شعباً فلسطينياً، وأنه لسبب ما توارى عن الأعين طوال هذه السنوات، الشعب الفلسطيني بالفعل ظل مختبئاً في منطقة اسمها تجاهل الآخرين، اسمها ليل الضمير البشري، حسناً، ماالعمل الآن؟ الحل عثرت عليه مجموعة من أنجب تلاميذ المدرسة الصهيونية الحديثة لتصبح فلسطين، تمشياً مع النظرية، أرضاً بلا شعب، وعلى الذين يتكاثرون كالأرانب ليقاوموا الفناء أن يبادوا بسلام.

وقد تصادف أن كنت في باريس، عندما ارتكب شارون- بغطاء من جائزة نوبل في السلام- مجازر صبرا وشاتيلا، قتل أثناء الغزو ثلاثين ألف فلسطيني أو لبناني، كما تصادف أن كنت في باريس عندما فرض الجنرال جاروزيلسكي سلطة العسكر ضد إرادة الأغلبية من شعب بولندا، أصابت الأزمة البولندية أوروبا بصدمة جعلتها تترنح من الغضب. أنا شخصياً قمت بالتوقيع على عدد كبير من البيانات التي تندد باغتيال الحرية في بولندا. كذلك، فقد شاركت في الاحتفالية التي أقيمت تكريماً لبطولة الشعب البولندي، بمسرح (بيرادي بار) تحت رعاية وزارة الثقافة الفرنسية. وعلى العكس من ذلك تماماً ساد نوع من الصمت الرهيب عندما اجتاحت القوات الشارونية لبنان. علماً بأن أعداد القتلى أو المشردين هناك لا تسمح بأي مقارنة مع ما حدث في بولندا. ظهرت في الحال النظرية السوفييتية التي تدعو إلى الأخوة بين القوى العظمى على حساب أي شعب أو أي مذابح.

هناك بلا شك أصوات كثيرة على امتداد العالم تريد أن تعرب عن احتجاجها ضد هذه المجازر المستمرة حتى الآن، لولا الخوف من اتهامها بمعاداة السامية أو إعاقة الوفاق الدولي.

أنا لا أعرف هل هؤلاء يدركون أنهم هكذا يبيعون أرواحهم في مواجهة ابتزاز رخيص لا يجب التصدي له بغير الاحتقار. لا أحد عانى في الحقيقة كالشعب الفلسطيني. فإلى متى نظل بلا ألسنة، ولم أجد من يومها من يدعوني إلى أي احتفال ببطولة الشعب الفلسطيني في أي مسرح تحت رعاية أي وزارة.

هذا ما يدفعني الآن إلى التوقيع على هذا البيان بشكل منفرد، أنا أعلن عن اشمئزازي من المجازر التي ترتكبها يومياً المدرسة الصهيونية الحديثة، ولا يهمني رأي محترفي الشيوعية أو محترفي معاداة الشيوعية. أنا أطالب بترشيح اريل شارون لجائزة نوبل في القتل، سامحوني إذا قلت أيضاً إنني أخجل من ارتباط اسمي بجائزة نوبل. أنا أعلن عن إعجابي غير المحدود ببطولة الشعب الفلسطيني الذي يقاوم الإبادة، على الرغم من إنكار العظمى الأعظم أو المثقفين الجبناء أو وسائل الإعلام أو حتى بعض العرب لوجوده.

بشكل منفرد، إذن، أنا أوقع على هذا البيان باسمي، جابرييل جارسيا ماركيز.

□□□

قصائد عن المقاومة

بقلم الشاعرة المولدوفية : أنجيلا بورلاك

■ ترجمة نجيب المجلّي ■

عن الروسية

سيأتي الربيع

تناقلت وكالات الأنباء العالمية نبأ اعتداء الصهاينة المحتلين على كنيسة في بيت لحم وقتلوا كاهنها وجرحوا راهباتها.. هذا النبأ أوحى للشاعرة بهذه القصيدة:

أزهرت بساتين الربيع
وبابونج الحقول أزهر
كان الجميع بانتظار رعد الربيع
وكانت اللقالق للناس بالسعادة تحضر

***

في الكنيسة يسود الهدوء
وليس غير رائحة الشموع المشتعلة

وأمام الأيقونة كان أبونا العجوز يصلي
وحوله بناته الراهبات

***

صامتاً كان الجرس في الأعلى
وكانت الحمائم تهدل في هدوء
إنه لا يزعج نفسه، إنه لا يرن أبداً
وبقية الأجراس كانت صامتة

***

لكن ما الذي حدث فجأة؟
لماذا ترتجف الأرض برمتها؟
كأن الشمس احتجبت وراء الغيوم
لماذا يتراكض الناس كلهم؟

***

تساقطت أزهار البساتين
ووُطِئت أزهار البابونج
والناس الذي لم يكونوا في انتظار المصيبة أبداً
يهجرون أماكنهم

***

وبدلاً من الصلوات تنهيدات رهيبة
ويسقط أبونا المبارك جريحاً

وعوضاً عن الشموع، شظايا أمام الأيقونة
ويهتز الصليب في يده.

***

في البيت المبارك تئن الآن راهبات
نازفات الدماء بلا ذنب
مثل بابونج الحقول يتألمن
ينادين على مريم الطهور للمدد

***

أخذت الأجراس تهتز بفعل القنابل
بلا نظام رنت كلها معاً
انخلعت قلوب الحمائم ذعراً
وطارت من الخوف، كلٌ في اتجاه

***

لأي حدٍ تنكر العدو للإله
فممكن لديهمُ تدنيس بيت الله
لأي حد هؤلاء الناس ساقطون
لا شك أنهم من الله لا يُهْمَلون

***

سيأتي الوقت لتتحول الدبابات إلى صخور
والقذائف إلى بساتين مزهرة

وتعود الأرض إلى الناس
ولن يعرفوا بعدها المصائب

***

الرصاص سيصير حقل بابونج
والقصف سيتحول إلى رعد الربيع
وسترفرف الحمائم بِحُرّية
وتتحول الدموع إلى قطرات ندى باردة

***

سيأتي زمان ترن فيه الأجراس فرحاً
وتعود الصلوات إلى الأيقونات
ويرحل الغضب مع زوبعة الشتاء
وإلى ضحكة تتحول التنهيدات الرهيبة المخيفة

***

إنهم سيستعيدون الصورة السعيدة
والخوذة الفاشستية ستثقبها وردة
سيمضون ضاحكين إلى الوادي المزهر
ويستعيد الشعب المتكاتف سلامه

***

من هو الإرهابي

يجري كلام كثير
عن الإرهاب في الأيام الأخيرة
وتطلق أحكام كثيرة
ويحكمون على المذنب وغير المذنب

***

حول الطاولة المستديرة أذكى المحللين
وليس عسيراً أن تخدع بهم
تحت القناع يقبع المعتدون الرهيبون
في الغرب يصعب أن تعرف الحقيقة

***

هناك يخلطون الأوراق
لأجل أن يكون محرر الأرض الفلسطيني
الذي لا يملك دليل إثبات
مثل سارق بنوك

***

واضح أنهم لا يريدون أن يعرفوا
من هو الإرهابي الحقيقي

لا يريدون أن ينتظروا نتائج التحقيق
يوقعون على ورقة بيضاء

* * *

لا يفتؤون يخلطون الأوراق
ويستمرون في خلطها
لا يزالون يزينون بحسب أهوائهم
لا يزالون يتهمون غيرهم

* * *

يريدون تقسيم العالم كما يشتهون
إلى أقسام بيضاء وسوداء
ويريدون أن يضعوا كل العالم تحت أقدامهم
بحيث يرضون رغباتهم الدنيئة

* * *

إنهم يفعلون بهذا العالم ما يشاؤون
من معهم ومن ضدهم
هم يتكلمون مع أنفسهم بكل ثقة
من ليس معهم فهو ضدهم

* * *

لذا يجمعون بنشاط زائد
ما أمكن من سلاح

يحرقون أصابع شعبهم
بلعبهم بالنار باستخفاف

* * *

ولكيلا يذهب تعبهم أدراج الرياح
فإنهم يريدون أن يجدوا "المذنب"
استأجروا جلاديهم
ليقدموا أفغانستان "قرباناً"

* * *

عندنا يقولون: ما تزرع
تحصد
إذا زرعت الشوك
فلن تحصد العنب مطلقاً

* * *

هم يظنون أنهم إذا زرعوا العالم بالشرور
وأعدوا الوثائق المزورة
فسيحصلون في المقابل على كل خيرات الأرض
ثم تصفيق حار

* * *

يصلنا الصدى من كل الجهات
أنها حرب حضارات

تحت قناع غريب يختبئ شارون
ويلطِّخ بالوحل الأمم البريئة
***

ابحثوا عن المستفيد من الحرب
وستجدون المجرم الحقيقي
لماذا يلحق الذنب بالعربي أو المسلم؟!
ترتكبون ذنباً فظيعاً حين تظلمون
***

أنا سأجيبكم يا أصدقائي الأعزاء
إنهم مصابون بمركب نقص
ولا يستطيعون أن يخفوا هذه الحقيقة
ولا أن ينظفوا شرفهم القذر
***

ستظل إلى الأبد تطاردهم حذو النعل بالنعل
أشباح
اليابان وفلسطين وفيتنام
مثل وشم قبيح على وجوههم
***

ومجدداً يمكن أن يولد
الذين أيقظهم الانتقام

لا يُدفع الشر بالشر
والشر عاقبته وخيمة

***

قصيدة "تضامن"

يا فلسطين أنت أختنا
نكتب إليك مؤيدين
نحن أيضاً نتألم لنارك
أرواحنا تحترق في أتونها

***

أعداؤك أعداؤنا
أصدقاؤك أصدقاؤنا
احتفظي بشجاعتك وقوتك
فلا يجب أن نرضخ لما يحدث

***

نتألم لأجلك كثيراً
نشاهد التلفاز بعصبية
قلوبنا لا تعرف الراحة مطلقاً
لهذا المنظر المجزن

***

أرضك تتفطر دماً
تحولت الآن إلى مقبرة
وطغى الشر على الخير
فلا ترحموا في حربكم أحداً

***

يغتسل بالدماء صباحاً
أولئك الذين فقدوا أبناءهم
يودعون حياتهم واحداً إثر آخر
يفجر نفسه لكنه يأخذ معه آخرين

***

ينطلق الابن إلى العملية
تاركاً شبابه لغيره
كل البلاد سارت في مسيرات
وهي تطلق تحدّيها

***

قلقت لأجلك كل الأمم
السود والبيض ومن جلدهم أحمر
كل الوجوه تتجّهم بكراهية
فكلها تشبهك يا فلسطين

***

كلنا نحارب أعداءكِ
كلنا نهب للمساعدة
هذا بالدموع وهذا بالكلمات وهذا بالشعر
وهذا بالريشة التي لا تجف

***

كل البلاد تقف معك بشجاعة
سورية والعراق وروسيا ومولدافيا
في كل بلد يهتفون "ليسقط شارون"
كل واحدة منها مستعدة للذود عنك

***

لأجل سلامك يقاتل العالم كله
وهم يعلمون أن التضامن شرف عظيم
لأجلك تعصف الآن
النار التي أشعلها الانتقام القاسي

***

معك أفغانستان والباكستانيون
هيروشيما وناكازاكي معك
كلهم يعلمون أن هذا صنيع الأمريكيين
ومن يلعبون هذه اللعبة الخسيسة

***

المغنون يقاتلون الآن بأصواتهم
يغنون أغانيهم الحربية
يدمغون العدو بالقتل
إنهم يعطونك بالكلمات قوة معنوية

***

يا فلسطين تشجعي! تماسكي!
نحن معك بأفكارنا وأخلاقنا وأرواحنا
لا تنحني أمام العدو أبداً
وستفوزين في الحرب بالتأكيد

***

أتكلم باسم الشعوب
باسم كل أولئك الذين يتمنون السلام لك يا فلسطين
ومعهم أهديك قصائدي
أنا وكل الذين يتمنون لك النصر

□□□

وداعي الأخير

Mi Ultimo Adios

من الشعر الفلبيني

خوسه ريثال[1] José Rizal

■ ترجمة علي إبراهيم الأشقر ■

عن الإسبانية

وداعاً، يا وطني المعبودَ، يا بقعةً تحبّها الشمس،
يا دُرّة بحرِ الشرق، وفردوسَنا المفقود،
يُفرحني أن أهبَك روحي الذاوية؛
حتى وإنْ كانتْ أشدَّ ألقاً وطراوةً وازدهاراً
لوهبتُكها، لوهبتُها من أجل خيرك.

[1] *روائي وشاعر وطبيب وفيلسوف فيليبيني. وُلد عام 1861 في كالامبا. ودرس الطب والفلسفة والآداب في إسبانية؛ ثم عاد إلى وطنه عام 1887 بعد أن طاف معظم أنحاء أوروبا. ولم يلبث أن غادره إلى اليابان فالولايات المتحدة فلندن. عاد مرة أخرى إلى الفيليبين عام 1892. لكنه نفي لنشاطه السياسي حتى عام 1896. ولما انفجرت الثورة في الفيليبين على إسبانية أعيد من برشلونة وهو في طريقه إلى كوبا ليعمل طبيباً متطوعاً. فسُجن وحوكم وحُكم عليه بالإعدام، ونُفذ فيه الحكم في 1896/12/30. قبل ليلة واحدة من إعدامه كتب قصيدة "وداعي الأخير" المشهورة.*

بعضُهم يهبُك حياتَه من غيرِ تفكيرٍ بلا ريب،
وهو يُقاتلُ في ساحاتِ الوغى بجنون؛
لا يهمُّ المكان، فالسروةُ، والغارُ أو الزنبق،
السجنُ أو الحقلُ المفتوحُ، المعركةُ أو العذابُ الشديد
كلُّها سواء إذا طلبها الوطنُ والبلد.

سأموتُ متى اصطبغتِ السماءُ بالحُمرة
وطلعَ النهارُ أخيراً بعد الظلام؛
فإذا احتجْتَ إلى قرمزٍ لتصبغَ فجرَك،
فاهرقْ دمي، واسكبْه في ساعةٍ طيّبة
وليُذهِّبْه شعاعٌ منعكسٌ من ضوئه الوليد.
أحلامي مُذْ كنتُ فتى يافعاً تقريباً،
أحلامي مُذ كنت شاباً مُلِئَ قوةً
كانتْ في أن أراكَ درّةَ بحرِ الشرق
وقد جفَّ الدمعُ من عينيك السوداوين، وجبينك الصقيل مرفوع
من غير تقطيب ولا غضونٍ، ولا علائمَ خجل.

يا حُلمَ حياتي، يا أملي القديمَ اللاهب،
سلاماً! بذا تهتفُ لك روحي التي سترحل قريباً؛
سلاماً! آه، ما أجملَ السقوطَ كيما تطير؛

ما أجملَ الموتَ لتُمنَحَ حياةً، وما أحلى الموتَ تحت سمائك
والرقدةَ الأبديّةَ في أرضِك الساحرة.

فإذا رأيتَ ذاتَ يومٍ زهرةً متواضعةً
نابتةً فوقَ قبري بين العشبِ البسيط،
فقرّبْها من شفتيك، وقبّلْ روحي فيها.
فأحسّ في جبهتي تحت القبرِ الباردِ
بنفحةِ حنانِك، وبدفءِ نَفَسِك.

دعِ القمرَ يَرَني بسنا هادئٍ حلو،
دعِ الفجرَ يرسلْ وهجَه العارض،
دعِ الريحَ تئن بغمغمةٍ رصينة؛
وإذا ما هبطَ عصفورٌ وحطَّ على صليبِ قبري
فدعِ العصفورَ يعزفْ لحنَه، لحنَ السلام.

دعِ الشمسَ الحارقةَ تقشعِ المطر
والسماءَ تصفُ، فتصفوَ صيحةُ احتجاجي إثرها؛
دع صديقاً لي يبكِ نهايتي المبكّرةَ؛
وإذا ما صلّى أحدٌ من أجلي في الأماسي الصاحية
فصلِّ يا وطني لله من أجل راحةِ نفسي.
صلِّ من أجلِ كلِّ الذين ماتوا غيرَ سعداء:

من أجل كلِّ الذين عانَوا عذاباتٍ لا مثيلَ لها،
صلِّ من أجلِ أمّهاتِنا البائساتِ اللاتي يتأوّهن مرارةً؛
من أجل الأيتامِ والأراملِ، ومن أجلِ الأسرى المُعذّبين،
صلِّ من أجل نفسِك بأن ترى خلاصَك الأخير.

وإذا ما تلفّعتِ المقبرةُ في الليلِ البهيم
وظلَّ الأمواتُ وحدَهم ساهرين فيها،
فلا تعكّرْ صفوَ راحتِهم، ولا صفاءَ السر.
فإذا ما سمعتَ ألحانَ قيثارةٍ أو سالتيريو
فسوف أكون، أنا يا وطني الحبيبَ، من يُغنّيك...

وإذا ما نَسيتُم جميعاً قبري
وضاعَ كلُّ صليبٍ أو حجرٍ يشيرُ إلى مكانِه،
فدعِ الإنسانَ يحرثُه ويبعثرْه بالمِعزقة
وسوف يكون رفاتي قبل أن يصيرَ هباءً
ذلك الغبارَ الذي يكسو بساطك.

لا أبالي، حينئذٍ بأنْ تنساني
فلسوفَ أعبرُ جوّك وفضاءَك ووديانَك،
سأكونُ نغمةً مرتعشة، نقيّة في مسمعك،
سأكونُ عِطراً، نوراً، ألواناً، وحفيفاً، غناءً،

أنّة دائمةً تردّدُ جوهر إيماني

اسمعْ يا وطني المعبودَ، يا ألمَ آلامي
اسمعْ يا وطني الحبيبَ وداعي الأخيرَ.
أُودِعُكَ هنا كلَّ شيءٍ، أودِعُك آبائي وحُبّي
فأنا راحلٌ إلى حيثُ لا عبيدَ ولا جلاّدين ولا طُغاةَ،
إلى حيثُ الإيمانُ لا يَقْتُلُ، إلى حيثُ مملكةُ الله.

وداعاً يا أبويَّ وإخوتي، يا قِطعاً من روحي،
يا أصدقاءَ الطفولةِ في الوطنِ المفقود؛
قدِّموا الشكر بأنِ استرحتُ من العناءِ اليوميِّ؛
وداعاً يا صديقتي الأجنبيّةَ الحلوةَ، يا فرحي.
وداعاً يا كائنات حبيبةً. فالموت راحة.

□□□

قصائد ونصوص
من
أدب المقاومة الفرنسية

■ ترجمة نبيل أبو صعب ■

باريس

جيل سيبرفيي

ايه باريس، أيتها المدينة المفتوحة
كما ينفتح جرح
ما الذي صرت إليه
يا من كنت الريف الأخضر.
هاأنت ينظر إليك
بعيون عدوة
وآذان جديدة
تستمع إلى ضجيجنا القديم.

السين تحت المراقبة
كما من فوهة بئر
ومياهه، ليلاً ونهاراً
تجري حبيسة
كل العصور الفرنسية
الملتصقة عميقاً في الحجر
ألن تتركنا مغادرة
ساخطة غاضبة؟؟
الظل مثقل برؤوس
من بلاد أجنبية
تريد أن تظل خفية
وسط الخطر
تنطفئ معجزة ما
مفضلة أن تموت
على أن تخوننا
ببقائها متشابهة..

**

إديث توما

تقاسمت إديث توما مع جان بولان وكلود مورغان إعادة بعث مجلة الآداب الفرنسية السرية. وفي بيتها كانت تنعقد اجتماعات اللجنة القيادية لـ (اللجنة القومية للكتّاب) السرية. نشرت أشعار إديث توما

في الآداب الفرنسية، تحت الاسم المستعار آن، وفي (شرف الشعراء)، وفي (أوروبا).

قمْ.. وامش..

أيها الشعب الميت، أيها الشعب الصامت،
أيها الشعب المحاصر، أيها الشعب المجوع،
ثقل الأحجار فوق رأسك
وفوق قلبك،
يا شعب الشوارع، يا شعب الحقول
والطوابير أمام المتاجر
يا من تخبُ خاوي المعدة، وسط البرد الفاتر
يا شعب المترو اليومي
بأحذيتك الخشنة
وكتابك بين يديك، كمن يهرب
عبر نافذة مفتوحة، في أحد أيام الربيع.
أيها الشعب الفرنسي، أيها الشعب الروماني،
أيها الشعب البلغاري، أيها الشعب اليوناني،
أيها الشعب الصربي، وأنت أيها الشعب الألماني.
متى سيحين الوقت؟
ألم يعد للحرية اسم

تلك التي كانت كل يوم تزداد جمالاً
مثل المرأة التي نعشقها
تعود كل يوم أكثر شبابا.
الحرية التي جعلت القصور تنهار
وجعلت المناجل ترتفع
لتدكَّ العدالات الزائفة
الحرية، ألم يعد لها اسم لديك، هذا الصباح؟
أيها الشعب الرازح تحت أحجار الصمت.
أيها الشعب المطبق الشفاه،
أيها الشعب المحطم الأعضاء،
والجسد المختلج تحت الأحذية الثقيلة
التي تبتعد فوق الرصيف،
المعجزة لن تأتي إلا من فعل يديك
ولا أحد سواك سيمكنه أن يقول
كما قيل لعازار في قبره:
،، قمْ.. وامش...''

تموز 1943

**

إيلاري فورونكا

قصيدة منشورة في مطلع كتاب ،،الحرب المهزلة''. أنشدت فورونكا، وهي من أصل روماني، للأخوة والحنين والوحشة والحب وجمال

الكون. جمعت قصائدها الرئيسة في (قصائد مختارة) منشورات seghers.

إعادة خلق العالم

أولئك القابعون في السجون يريدون أن يعرفوا إذا كانت الشجرة
لا تزال تنمو نحو السماء وإذا كان النهر، والريح
يجوسان بعد حول المدن وإذا كان الفجر
لما يزل له بعد هسيس عربة التكثيف.
أولئك الذين غطوا في النوم ألم يخشوا عند يقظتهم
أن لا تلتحم ثانية قطع العالم المتناثرة؟
هاهم ينهضون وينظرون عبر زجاج النوافذ
كم هو حسن أن الشوارع والجدران لم تزل في مكانها.
لكن للسجناء الذين بنت أصابعهم
في داخل زجاجة قصراً أو سفينة
والذين قرض النسيان على مهل أشياءهم
كما البحر يغيّر على مهل وجه الصخور،
غدت الشجرة عصفوراً والحقل غيمة
وللصباح ارتعاشة الظبي اللطيفة
ولكي يدخل الأموات القمح إلى زنزاناتهم
غيّروا مجاري المياه وغيّروا الحدود.

حينما سيصفع رغيف الخبز كالسوط وجوهنا
حينما الأشجار كقطعان الرنة هاربة في الليل
حينما المقاعد والموائد والخزائن، دونما خجل
ستتنافس، بحضورنا، على تضييعنا،
حينما ستطالب الوحشة بأجرها
عبثاً سنحاول أن نتذكر أمثالنا
في القمرات، في الكهوف، وفي الخنادق
ولن يكون قد ظل إلا القليل من الدم والصدأ فوق القيود

**

آب 1942

أسألكم العفو، أيها الرجال الذين تقاتلون
من أجل الحرية، أنتم يا من تجدلون من دماكم
سياطاً لطرد المحتلين
أسألكم العفو لأني أختبئ في مزرعة
الأشجار والبهائم سعيدة في هذا الصيف
وأنا أكتب هذه القصيدة قرب حقل اللاوند
يفوح عطره ويملأ رأسي
كما تتجه صاعدة نحوكم روحي أيها الرجال الذين تقاتلون
ليست روحي ما تحتاجون إليها بل جسدي

وقلمي ينبغي أن يكون سلاحاً وكلماتي رصاصاً
ويداي الناقهتان ينبغي أن تجدلا الأسلاك الشائكة
لكني أكتب هذه القصيدة أيها الرجال الذين تقاتلون
أولئك الذين يطأون أرضكم ألا يحقدون على أفكاركم
وحل نظراتهم لوّث وجه النهار
ولأجل الحق بالخبز والأشعار
تنصبون صدوركم أيها الرجال الذين تقاتلون

**

جان فال

مدرس للفلسفة في جامعة السوربون، اعتقل في عام 1944 وسجن وقد نشرت قصائده في منشورات fontaine

قصائد المناسبة

إلى جسدي

لن يمتلكوني لا بالجوع ولا بالخوف
وإذا ما امتلكوني يوماً فإنه هيكلي العظمي
وإذا اجروا يوماً (التنظيفات الأخيرة)
سيرون أنهم غيّروا جسدي وليس قلبي.

بعد

في السجن، لكن أقسم أني مازلت فيه
ففي كل مكان ثمة بالجدران والقوانين والبرد

زمن عفن

هذه الأيام في السجن مثل زمن عفن
الرائحة المقززة تلتف حول ذاتها
وكل شيء فاقد لونه، مدمر، شبه ميت شاحب
وثمة أمل قديم يتأرجح وسط الهواء المقرور

أمل

سيغمى عليّ وسط تلك الفرحة الغامرة
ربما حين يحلّ اليوم الذي سيحررني
وسأشعر فجأة مثل رجل ثمل
خارج زمن السجون والحسرات والدموع
"سجن فرسنة"

***

جان كاسو

وضع جان كاسو، الذي اعتقله بوليس حكومة فيشي في تولوز في الثالث من شهر كانون الأول 1940، قيد الاعتقال الاحترازي، في سجن فيرغول العسكري. ولما لم يكن يحق للسجناء لا القراءة ولا

الكتابة، فقد شغل جان كاسو لياليه بنظم مطالع سوناتات ثم حفظها في ذاكرته. وقد استمر يكتب بهذا الأسلوب إلى أحد أيام شباط 1942 حيث أطلق سراحه واثنين من رفاقه إطلاقاً مؤقتاً بانتظار محاكمته. فارتفع حينئذ عدد السوناتات المكتوبة بهذه الطريقة إلى ثلاث وثلاثين سوناتا.

نسخ جان كاسو هذه السوناتات وعمل على إيصالها إلى دار نشر (مينوي) السرية التي نشرتها بسرية تحت اسم مستعار هو: جان نوار مع مقدمة لفرانسوا لاكولير (أراغون).

سوناتات

اشربي قدح الشيطان هذا ثمّ نامي
سنرفع بؤسك كما لو أنه تاج
وسنحمله إلى حدائق الموت
بينما أنت، مثل مسرنم يرتعش،
منزلقة عبر الباب الذي لا يعبره أحد
ستنطلقين لجمع الآس ذي البراعم الذهبية.
بريقه وبريق شقائق النعمان القانية،
في الليل المتجدد، سيقودانك إلى شواطئ
الحياة الحقة، والكمال المحض
هناك تنضج الأحلام، مرعبة وقوية.
وعبر الزرقة الصباحية لغد أبديّ.

سيأتون جميعاً للقائك، أيتها الروح المتعافية،
وستتعرفين إليهن، متماسكات بالأيدي،
شقيقاتك الكبيرات: الحب، والحرية، والشعر.

***

منذ الأزل، وفي كل البلاد، العمال
يموتون، ودم العمال يغسل الطرقات.
العمال يهتفون ويسقطون في السخام.
النار والبرد والجوع، والقتل والتعذيب يفتكون
بالعمال. في كل بلد ثمة حجارة عارية
وأشجار متعفنة، وشباك ملاجئ صدئة
منذ الأزل، بسبب بؤس النهارات،
قطيع النهارات الدامية، والمقهورة
يا رب العدل، يا من تحكم، ليس في السماوات
إنما في قلب الإنسان، في قلب غضبه
ألن تنشر ملكوتك أبداً فوق الأرض؟؟
يا سيد الأقوياء والقوة، افتح عينيك.
الأفواه مكممة، والقبضات مقيدة،
والسلسلة طويلة طويلة، لكن العمال؟

***

الجرح الذي، منذ زمان الكرز
أحمله في قلبي، ينفتح كل يوم.

وعبثاً تداعب أزهار الليلك والشموس والأنسام
أسوار الضواحي.
يا بلاد السطوح الزرق والأغاني الرمادية
يا من تتألمين دوماً في ثوب الحب،
فسري لماذا شغفت حياتي
الشهقة الصدئة لساحاتك القديمة
للجنيات التي سألتقيها في الطريق
أسير راوياً حكاية فانتين وكوزيت
وشجرة المدرسة، بدورها، تكرر
حكاية جميلة حيث يقال: غداً..
آه، فليَسفر أخيراً فجر العيد
آن على البنادق ستنقض القبضات!

**

إيمانويل داستيي دو لا فيجيري

كان ضابطاً في البحرية عام 1940، وهو مؤسس حركة مقاومة باسم "التحرير"، أوفد إلى الولايات المتحدة الأمريكية كان في لندن في مطلع عام 1943 وهناك التقى الجنرال ديغول وآنا مارلي، وهي موسيقية من أصل روسي "كانت آنا تنقر على غيتارها نغمات تنويحة لا تزال دون كلمات، كانت قد ألفتها. وبمساعدة الحنين نظمنا شيئاً فشيئاً كلمات اللحن." وهكذا ولدت تنويحة البارتيزان التي لا ينبغي

الخلط بينها وبين أغنية البارتيزان، التي كتبها في الوقت ذاته تقريباً جوزيف كيسل وموريس دريون ولحنتها آنا مارلي أيضاً.

تنويحة البارتيزان

دخل الألمان ساحي
فقيل لي: "استسلم"
غير أني لم أنم
والتقطت ثانية سلاحي
لم يسألني أحد
من أين جئت وإلى أين أمضي
وأنتم يا من تعرفون قصدي
امحوا آثار خطوي
غيرت مئة مرة اسمي
وفقدت زوجتي وطفلي
لكن الأصدقاء لدي
وفرنسا كلها لي.
رجل عجوز في قبو
خبأنا، ليوم واحد، خبأنا
أخذه الألمان
ومات ولم يفاجئه الموت

أمس أيضاً كنا ثلاثة
لم يبقى بعد إلا أنا
وهاأنا أنتقل دون جدوى
بين سجون الحدود
الريح تهبّ فوق القبور
والحرية من جديد ستعود
وسوف ينسانا الجميع
لكننا خلال الظلال نعود.

**

دارجينتا

لعله اسم مستعار. تلقى بول إيلوار هذه القصيدة التي أدخلها ضمن مختارات القصائد التي ظهرت في أوروبا عام 1944 ضمن منشورات مينوي السرية. هنا، مرة أخرى لم يكشف لنا اسم الشاعر.

لم يعد ثمة وقت للدموع

لم يعد ثمة وقت للدموع،
وللتحسر عما فات
ها امتشقنا الأمل والرفض

سلاحاً.
أسلحة نقية أسلحة قوية
مثل حب طاغ،
الوقت يفر، آلامنا تستمر
دون أن تخمد نيرانكم الصامتة.
تشعّون وسط الغبش
رماحاً فضية
وبوهجكم قلوب كثيرة
أفلتت من طوق الحصار.
كل الآلام بدت
وكل حب حنى الجبين؛
نتطلع إلى أيدينا العارية
التي ستعود مفيدة عما قريب.
،، قبل أوراق الخريف‘‘
قال صوت القدر
لكن صوت المدافع هدر
والأرض، في البعيد، ترتجف.
لا تظاهر بعد ولا خدع.
بل هو القتال المحتم
حيث اسم سرقوسة
يجيب اسم أوريل

ما الذي سيحدث غداً؟ لا يهم
إذا جاء الإعصار من عمق الأفق
جاء يدق على أبواب
أوروبا، أبواب سجني.
من يتحدث الآن عن التروي
حين يتوجب العيش والإرادة
وحين تنعتق الروح وترقص
على وقع أغلى آمالها؟
أأستطيع إسكات هذا الفرح
الذي يثملني كما الخمرة
أخيراً وقد اكتست السماء بالحمرة
لأجل فجر يوم قدسي القسمات،
حين، وسط لهيب اليوم الطويل المستعر،
وبعد أن صمّ سمعه عن ندائنا طويلا
يمتشق ملاك العدالة المرّ
يمتشق سيفه الناري الصقيلا،
حين تحترق الأرض وترتجف
على لهاث عاشق ولهان،
وقد تجمعت الشعوب
لأجل يوم الدينونة والديّان؟؟؟

**

لويس كوشوا

أهو اسم حقيقي، أم اسم مستعار؟ اختيرت هذه القصيدة من الأنطولوجيا الوحيدة لأشعار المقاومة: دم الشعراء، المنشورة في بخارست (رومانيا)

تنويمة لأطفال أوروبا

نم بجوعك، نم بدموعك.
نم، يا صغيري. نم بهدوء
نم، وسط ضجيج الأسلحة البعيد
نم، يا مولود متأخراً، نم يا مولود مبكراً.
نم لأجل زمن الشؤم.
نم لأجل الملوك. نم لأجل الأنذال.
نم لأجل السماء. ذات الطوالع السيئة
لأجل المحيط الذي تحمرّه النيران
نم لأجل الرقصة الكئيبة
للأفواج الميتة والملعونة.
تستطيع النوم: فالأرض مجنونة
وأمك تقول لك

نم لأجل العصفور الغبي الذي يغني
زرقة السماء التي لم تعرفها.

هيا! فالنجوم كئيبة:
فقد عاد من جديد زمن الجريمة.

نم لأجل الصيف الذي يرعبني
بأزهاره المزدهية الألوان،
لأجل الشمس، تلك الغبية
التي تبسم لأي شيء.
نم لأجل الثلج، هزل
الأموات وقد اكتسوا البياض النقي.
نم لأجل القمر، هذه البغي
التي تضاجع أياً كان.

نم لأجل أصابعي المشققة،
لأجل الموقد البارد الصموت،
لأجل المرق والقشارة،
وليمة لأسابيع الرعب المميت.
نم لأجل قرقعة العلب الفارغة
ولأجل البياضات الممزقة،
لأجل شحوبي وتجاعيد وجهي.
لأجل صوتي موشك الهذيان.

أنا أحكي، وأحكي.. وأنت الذي تبكي
لا تدرك ما الذي أحكي.
مازالت أمامي بضع ساعات،
ذلك أن حقدي الساطع آت.

نم لأجل عالم دون عجائب،
لأجل طواحين دون قمح أو حبّ.
نم لأجل أقبية دون نبيذ.
لأجل إهراءات حرقوها.
نم لأجل مدن لا ضوء فيها.
لأجل مخازن دون زخارف،
لأجل جثث تحت الحجارة،
لأجل غرقى مترنحين،
نم لأجل محطات دون مسافرين.
نم لأجل شواطئ دون أطفال.
نم لأجل عصر الستارات الحديدية
وأشكال الصمت الخانقة.

نم لأجل السرير الذي شهد مولدك.
حيث ألعن البرد القارص
في الليل، أرى فيه موت الخائنين.

وأرى أحلاماً تعبق بالدم.
وحين يأتي النصر مكفهراً وعسيراً
يأتي لينقر على نوافذنا،
سأرفعك فوق ذراعيّ الناحلتين:
وستراهم، الأبطال جميعهم
والفجر سيلوح عاجاً نقياً
لكن قبل أن تدقّ ساعة الظهيرة
ستكون قد وقعت مجازر كبيرة.
أمك من تقوله لك.

**

ليون بوبيان

ذكر موريس تيريار هذا الشاعر وأضاف: لقد اصطفى ليون بوبيان، هذا الرجل المقدود من صخر وفولاذ، لنفسه روح شاعر وسط الظروف المأساوية لمعتقل شتروتوف.

لو كنت حراً

لوددت تنغيم صوتي
على نغمة صوتك
في نشيد عظيم
كـــــــان ســـــــيخرجنا مـــــــن الأرض

لوددت أن أضبط خفق قلبك
على خفق قلبي
في إيقاع مجنون
كـــــان سيســـــلب مـــــنا الألـــــباب

لوددت أن أضبط اهتزاز خصرك
على اهتزاز خصري
في رقصة وحشية
كانـــــت ســـــتوحدنا إلـــــى الأبـــــد

لوددت أن أضبط رعشتي
على رعشتك
في ارتعاش طويل
كـــــان ســـــيعجن جســـــدينا

لوددت أن أضبط لذاذاتي
على لذاذاتك
في نوم وديع
كـــــان سيضـــــمنا، متلاصـــــقين

لوددت معك نسيان
ما كان ينبغي لعيون بشرية
ألا تراه مطلقاً

رسالة موجهة إلى
السيدة لوسيان بالاس دي غيد

صديقتي

لقد اخترتك من بين صديقاتي جميعهن، لأحيطك علماً برغباتي الأخيرة، فأنا أدرك في الواقع أنك تحبينني بما يكفي لكي تعملي على احترام هذه الرغبات من قبل الجميع. سوف يقولون لك إني مت دون فائدة، معاندة، متهورة، وستكون تلك هي الحقيقة.. التاريخية. لكن ستكون ثمة حقيقة أخرى حقيقة أني متّ لأثبت أن المرء بوسعه أن يعشق الحياة لدرجة الجنون وفي الآن ذاته أن يرتضي موتاً ضرورياً...

ستقع على عاتقك مهمة التخفيف من أحزان أمي. وستقولين لها أني متّ لكي تغدو سماء بلجيكا أكثر صفاء، ولكي يستطيع من سيأتون بعدي العيش أحراراً، كما أردت ذلك لنفسي كثيراً، وأني لست بنادمة على أي شي على الرغم من كل شيء. في الوقت الذي أكتب لك فيه هذا، أنتظر بهدوء الأوامر التي ستوجّه إليّ. كيف ستكون تلك الأوامر؟؟. لا أعرف، ولذا أكتب إليك الوداع الذي سيبلغك موتي. لأشخاص مثلك أهدي موتي كله لأشخاص سيستطيعون أن يولدوا ثانية ويعاودوا البناء من جديد. أني أفكر بأطفالكم الذين سيغدون أحراراً. وداعاً

مارغيريت بيرفويه 13 تشرين الثاني 1941

بطلة.. مارغيريت بيرفويه

□□□

الحرية – الشجاعة

بول ايلوار
جان جوريس

■ ترجمة : د. يارا معصراني ■

الحريــة

بول ايلوار - عن الفرنسية

على دفاتري المدرسية،
على مقعد المدرسة، على الأشجار،
على الرمل وعلى الثلج
أكتب اسمك
***
على الصفحات المقروءة كلها
على الصفحات البيضاء كلها
على الحجر والدم والورق أو الرماد
أكتب اسمك
***

على الصور المذهّبة
على أسلحة المقاتلين
على تيجان الملوك
أكتب اسمك

***

على الأدغال والصحراء
على الأعشاش وعلى الوزّال
على صدى طفولتي
أكتب اسمك

***

على روائع الليالي
على خبز الأيام الأبيض
على الفصول المتلازمة
أكتب اسمك

***

على جميع خرقي اللازوردية
على الغدير كالشمس العفنة
على البحيرة كالقمر الحي
أكتب اسمك

***

على الحقول على الأفق
على أجنحة الطيور
على طاحونة الظلال
أكتب اسمك
***
على كل هبّة فجر
على البحر على السفن
على الجبل المعتوه
أكتب اسمك
***
على زبد الغيوم
على عرق العاصفة
على المطر الغزير الباهت
أكتب اسمك
***
على الأشكال المتألقة
على أجراس الألوان
على الحقيقة المتجسدة
أكتب اسمك
***

على الدروب الصاحية
على الطرقات المنتشرة
على الساحات الطافحة
أكتب اسمك
***
على المصباح الذي يضاء
على المصباح الذي يطفأ
على بيوتي مجتمعة
أكتب اسمك
***
على الفواكه المقسومة نصفين
من المرآة ومن غرفتي
على سريري كالصدفة الفارغة
أكتب اسمك
***
على كلبي النهم واللطيف
على أذنيه المنتصبتين
على قائمته غير الرشيقة
أكتب اسمك
***

على عتبة بيتي
على الأشياء الأليفة
على تدفق النار المبارك
أكتب اسمك

***

على كل لحم متآلف
عل جبهة أصدقائي
على كل يد تمتد
أكتب اسمك

***

على زجاج المفاجآت
على الشفاه المنتبهة
أعلى من الصمت
أكتب اسمك

***

على ملاجئي المهدومة
على مناراتي المنهارة
على جدار مللي
أكتب اسمك

***

على الغياب دون رغبة
على الوحدة العارية
على خطوات الموت
أكتب اسمك

***

على الصحة العائدة
على الخطر الزائل
على الأمل دون ذكرى
أكتب اسمك

***

وبقدرة كلمة
أبدأ حياتي من جديد
ولدت كي أعرفك
وكي أسميك
أيتها الحرية

**

الشجاعة

جان جوريس - عن الفرنسية

ينبغـــي علـــى الأخص، ألا نُتهم بأننا نحط من قدر الشـــجاعة أو نوهـــنها. ملعونة هي البشرية إذا كان عليها، لكي

تبرهـن على الشجاعة، أن تكون قاتلة إلى الأبد. ليست الشجاعة اليوم في وضع العالم تحت شبح الحرب القاتم، هذا الشبح الرهيب، إنما النائم، وأن نهنئ أنفسنا دوماً بأن شره سيصيب الآخرين. ليست الشجاعة في أن ندع في أيدي القوة حل الأزمات التي يمكن أن يحلها العقل، لأن الشجاعة هي مجد الإنسان، بينما في تلك تنازله.

الشجاعة بالنسبة لكم جميعاً هي شجاعة كل ساعة. هي أن تتحملوا مختلف المحن، المحن الجسدية والنفسية التي تصيبنا بها الحياة، دون أن تنحنوا أمامها. الشجاعة هي ألا نسلم الإرادة لصدفة الانطباعات والقوى، هي أن نحافظ أثناء إرهاقنا، الذي لابد منه، على عادة العمل والفعل. الشجاعة، هي أن يختار الإنسان مهنته وأن يتقنها كائنة ما تكون، بالرغم من فوضى الحياة اللانهائية التي تتجاذبنا من كل صوب. هي ألا نهرب من العمل الدقيق أو الرتيب. هي أن نصبح بقدر ما نستطيع، فنيين مهرة. هي أن نقبل ونفهم قانون التخصص في العمل هذا، وهو شرط الفعل المفيد، وأن نوفر في الوقت نفسه، لنظرنا ولروحنا، أوقات صحو نرنو فيها إلى العالم الفسيح وإلى الآفاق الأكثر اتساعاً.

الشجاعة هي أن يكون كل منا، في الوقت نفسه، مهما كانت مهنته، عملياً وفيلسوفاً. الشجاعة هي أن يفهم المرء حياته الخاصة وأن يحددها ويعمقها وأن ينظمها ويجعلها منسجمة مع الحياة العامة. الشجاعة هي أن يراقب المرء بدقة آلة حياكته فلا يدع خيطاً واحداً ينقطع، وأن يحضّر خلال ذلك

نظاماً اجتماعياً أرحب وأكثر أخوة حيث تصبح الآلة الخادم المشترك للعمال المحرَّرين. الشجاعة هي في قبول الظروف الجديدة التي تفرضها الحياة على العلم والفن. هي في قبول واستكشاف تعقيد الوقائع والتفاصيل الذي يكاد يكون لا نهائياً، وخلال ذلك توضيح هذا الواقع الضخم والمشوش بأفكار عامة وتنظيمه والارتقاء به بجمال الأشكال والإيقاعات المقدس. الشجاعة هي التغلب على الأخطاء الشخصية. هي المعاناة منها ولكن دون أن تقيدنا وتمنعنا من متابعة طريقنا. الشجاعة هي حب الحياة والنظر إلى الموت نظرة هادئة، هي التوجه نحو المثالي وفهم الواقع، هي السعي وتكريس النفس للأهداف النبيلة دون معرفة ما هو الجزاء الذي سيجازي به العالم العميق جهودنا ولا في ما إذا كان هناك أي جزاء. الشجاعة هي البحث عن الحقيقة وقولها، هي عدم الخضوع لقانون الكذب المنتصر الذي يمر، وعدم الانجرار بروحنا أو بفمنا أو بأيدينا لتصفيق الأغبياء وصراخ المتعصبين.

***

اغتيل جان جوريس في بداية الحرب العالمية الأولى.

□□□

خوف على الطريق

بقلم:

ايتالو كالفينو

■ ترجمة : معن مصطفى الحسون ■

عن الإيطالية

في التاسعة والربع وصل إلى "كوالاّ براكّا" برفقة القمر، في التاسعة وعشرين دقيقة كان عند تقاطع شجرتين. يجب أن يصل النبع في التاسعة والنصف، في سان فاوستينو قبل العاشرة، العاشرة والنصف في بيراللو، منتصف الليل في غريبّو، وحوالي الواحدة ربما انتهى إلى فيدتّيا دي كاستانيو. عشر ساعات من المسير بخطوات عادية، ست ساعات كافية لقول الكثير لهم، إنه بيندا، الساعي، أسرع ساعٍ بين صفوف المجاهدين. كان بيندا يسير بقوة، جسد ميت يجتاز أقصر الطرق، دون أن يخطأ أبداً كل المنعطفات المتشابهة ينهض صدره صاعداً نحو الأعلى. صدر ثابت لا يغير ايقاع التنفس، عزيمة الساقين المطفأتين أشبه بصمام أمان...

-تشجيع يابيندا...

يقول له الرفاق ما إن يلمحوه من بعيد صاعداً نحو معسكرهم. يجاهدون في سبيل قراءة تعابير وجهه لمعرفة ما إن كانت الأخبار أو

الأوامـــر التـــي يحملهـــا سيئة أم حسنة، لكن وجه بيندا مثل قبضة يد. وجه جبلـــي ضـــيق ذو شفتين نما عليهما الزغب وجسم قصير عظمي كأنه جسد فتى أكثر من كونه ليافع، عضلات كالعظام.

كانـــت مهمة عسيرة وفريدة، أن يظل متيقظاً كل الساعات، مرسل من ســيربه، مـــن بلـــه، لذا يتوجب عليه المضي عبر ليل الوادي وعلى كتفيه ســـلاح فرنســـي خفـــيف كأنه بندقية من خشب، يتوجب عليه الوصول إلى معســـكر والمضي إلى آخر، ثم العودة مع الجواب. لذا يوقظ الطباخ، يفتش في القدور الباردة، ثم يمضي وما تزال في حلقه بقايا من قطعة كستناء، لكن هـــذه المهمـــة لـــم تكـــن غريبة عنه، لم يكن ليتيه في الغابات، محيطاً بكل الـــدروب، كـــان يذهب عبرها منذ الطفولة، يرعى الماعز، كان قادراً على اجتـــياز كل هذه الممرات الوعرة والحصباء، والتي كانت عسيرة على باقي المجاهدين القادمين من المدن، ومن البحر.

شـــجرة كســـتناء ذات ساق مجوف، خشب أزرق اللون فوق صخرة، فســـحة عاريـــة لحقـــل من الكربون، وأشياء كثيرة تثير في دخيلته ذكريات بـــائدة. تهرب عنزة، نمس يخرج من جحره، ملابس داخلية لفتاة، وإلى كل هذا تنضاف الذكريات الجديدة، الحرب الدائرة في الأصقاع التي يقطنها، كل هـــذا اســـتمرار لحكايته، لعب وعمل، صيد يتحول إلى حرب، رائحة دخان القصـــف علـــى جســـر لوريتو، عمليات الإنقاذ هناك أسفل المنحدر، سهول ملغومة حبلى بالموتى.

كانـــت رحى الحرب تدور في هذه الوديان، كأنها كلب يهم بعض ذيله، المجـــاهدون فـــي مواجهة القناصة والعساكر، إذا صعد فريق منهم الجبال، يهـــبط الفـــريق الآخـــر نحـــو الوديان، ثم، فريق في الوديان، والآخر فوق الجبال، لقد دأب كل منهم على الدوران ليتجنب جنون الآخر، ليتجنب نيران الآخر، وعلى الدوام، فوق الجبال أو في الوادي. هناك من يموت. كانت بلدة

بينـــدا فـــي الريف، إنها سان فاوسيتونو، ثلاث كتل من البيوت. أحدهما هنا والآخـــر هناك، وفي أسفل الوادي تقع نافذة ريجينا[1]، غطاء سريرها يفرد فـــي أيـــام الـــتذرية. كانـــت بلدة بيندا عبارة عن استراحة تتوسط الصعود والهـــبوط، جـــرعة حليب، وكنزة نظيفة تهيئها أمه له، ثم الجهاد في سبيل الهرب المستمر لكي لا يصلوا إليه بغتة، الآن لقد مات الكثير من المجاهدين في سان فاوسيتونو...

الشـــتاء لعـــبة بين التسابق والاختفاء، القناصة في باياردو، العسكر في موليني، الألمان في برينا، وفي الوسط يقف المجاهدون عند كوعي الوادي، متجنبيـــن أماكـــن الـــتذرية وهم يتجولون هنا وهناك في الليل، عبر أماكن مألوفـــة. في تلك الليلة بالضبط كان ثمة سرية من الألمان تسير من بريغا، ربمـــا تتوجه إلى كارمو، يهيئ العساكر أنفسهم للصعود من مولتيني، فريق المجاهدين يرقد مدفوناً في منزل مهجور وقصي. بيندا يسير في الظلمة عبر الغابـــات، كـــانوا قـــد اطمأنوا إلى سماع صوت أقدامه، ثم الأوامر "إخلاء الـــوادي علـــى الفـــور، وعند الشفق يهيئ الفريق عدته وعتاده للرحيل عن بيللـــيفرنو، كان القلق رفرفة أجنحة خفاش تدق في رئتي بيندا، تحدوه رغبة عارمـــة في مد يده وإمساك ذلك المنزل الذي يبعد كيلو مترين، في العتمة، دون أيـــة إشـــارة موجهـــة أو علامـــة دالة. يجب أن يصل هناك، أن ينفخ الأوامر، ليسمعهم يغادرون حتى فيدتا، سيربه، غوريلليا. ومن ثم حفر بؤرة في أوراق شجرة الكستناء، والدلوف إلى الداخل هو وريجينا، ولكن يتوجب بـــادئ ذي بـــدء نزع الإبر التي انغرست في جسد ريجينا، طالما استمرت الحفـــريات داخـــل الأوراق يصادفهم الألمان، من المستحيل إذاً إيجاد مكان لريجينا بينهم، ريجينا ذات الجلد الرقيق والناعم...

تتكســـر الأوراق اليابســـة تحـــت قدمي بيندا، تصدر ما يشبه الشخير،

[1] ريجينا: اسم فتاة، ويعني الملكة..

حـــيوان الجيرو ذو العينين المدورتين والمضيئتين يهرع للاختفاء في أعالي الشـــجر - تشـــجع يا بيندا، هذا ما قاله لـــه فيكاتو القائد وهو يعطيه الأمانة. يصـــعد النعاس من قلب الليل ويحوم حول الأجفان، لقد رغب بيندا في التيه عبر الدروب. والغوص في بحر من أوراق الشجر اليابسة، ثم السباحة نحو العمق حتى الانغماس الكلي،

-تشجع يا بيندا.

يســـير بيندا الآن على طول ساحل تومينا، ما تزال متجلدة، تنطبع آثار الأقـــدام علـــى الجلـــيد. كان تومانا هو الوادي الأوسع في هذه الأرجاء، ذا شـــواطئ عالـــية وبعيدة. أما الشاطئ الآخر فقد كان يلهث في الليل، حيث يســـير بيندا في المنحنيات، بين الدغلات التي تحيط به. يخيل لبيندا أنه يرى ضوءاً قصياً، بالضبط في تومانا، ضوء يسير أمامه. ما ينفك الضوء يتحرك أحياناً بخط متعرج كأنه ينعطف، يختفي، ثم ما يلبث أن يظهر بغتة في مكان غير متوقع. من عساه يكون هذا الساعة؟ أحياناً يتراءى لبيندا أن الضوء جد قصـــي، على الضفة الأخرى، أحياناً يتوقف الضوء عن الحركة ثم ما يلبث أن ينـــتقل خلف بيندا. ها هي الآن عدة أضواء مختلفة، ربما كانوا يمشطون كـــل دروب تومانـــا الســـفلى، ربما خلفه أو أمامه في تومانا العليا، أضواء تشتعل ثم تطفئ. الألمان!

ثمـــة بهيمة تسير فوق آثار أقدام بيندا، لقد استيقظت من الأعماق، هذه الأضـــواء ليســـت سوى ألمان يمشطون تومانا، جنب غب جنبة. كتيبة إثر أخـــرى. شيء مستحيل، كان بيندا يعرف هذا، ولكن مع ذلك خالجه شعور بأنـــه ربما كان الاعتقاد بشيء كهذا أمراً محبباً، يجب النأي عن خداع هذه البهـــيمة الطفلة التي تتبعه منذ أمد، يدق الزمان في حلق بيندا بإيقاع متواتر، لقـــد تأخر الوقت، لم يعد من الممكن تحذير الرفاق من الخطر الداهم لم يعد من الممكن الوصول قبل الألمان، وهكذا أخذ بيندا يتخيل منزل فيندته الواقع فـــي كاستانيو وهو يحترق، أجساد الرفاق المخضبة بالدماء، رؤوس بعضهم

معلقة على جذوع الأشجار اللاريشي....

-تشجع يا بيندا..

يثـير المكـان الذي هو في داخله دهشة عارمة، يتراءى لـه أنه قطع مسـافة قصيرة في زمن طويل، ربما تباطأ إبان سيره بل ربما كان واقفاً لم يتزحزح. لكنه لا يغير طريقه وهو عارف بشكل جيد أن خطواته كانت على الـدوام هادئة وثابتة لم تتغير، ولا يجب الوثوق البتة بهذه البهيمة التي تقوم بـزيارته ليلاً، بيندا يثق بنفسه كثيراً مذ كان طفلاً، لذا تراه ذا عزيمة، حتى ولا كان يحمل هذه الهيئة التي تتعربش على رقبته مثل قرد...

بـدا سهل تولا براك طرياً تحت سنا القمر. "الألغام"، فكر بيندا، هناك فـي الأعالي لا توجد ألغام إنه يعرف ذلك جيداً، ولكن هنا في السهل كانت الألغـام تنتشر متباعدة، وها هو ذا يعتقد بأن الألغام تتحرك تحت الأرض، تسـير مـن جهـة إلى أخرى، من الجبال إلى السهل، تتبع خطواته، كأنها عناكـب ضخمة تحت أرضية، كانت الأرض فوق حقل الألغام مغطاة بفطر غريـب، سيكون أمراً مهولاً لو وطأها بقدميه، سينفجر كل شيء في وهلة، ولكـن ها هي ذي الثواني تتحول إلى قرون، ويبدو العالم ثابتاً كأنه مسحور يـنحدر بيـندا نحـو الغابة يحيط به النعاس والليل البهيم، كان قد دأب على وضـع إشـارات تمويهـية علـى جذوع الأشجار وعلى الدغلات، الألمان يحيطون بالمنطقة، هذا حقيقي ومن المؤكد أنهم رأوه وهو يعبر سهل كوللا براكا تحت ضوء القمر.

وهـا هم الآن يتبعونه، إنهم ينتظرونه عند المعبر، يتصاعد صراخ بوم مـن بعـيد، إنـه الصفير الذي يطلقه الألمان المتمرسون حوله، وها هو ذا صـفير آخر يتردد، تتحرك بهيمة من بين إحدى الدغلات، ربما كانت ثعلباً أو ذئباً، بل ربما كانت ألمانيا متخفياً وراء سيقان الشجر وهو يهم بالتصويب علـي، خلـف كـل دغلة هناك ألماني فوق قمة كل شجرة يثوي ألماني مع

حـيوانات الغـيرو. التـي تـتعربش قمـم الأشجار عادة، الصخور مليئة بـالخوذات، تنصب البنادق بين أغصان الشجر تنتهي جذور الأشجار تحت أقـدام إنسانية، يمشي بيندا الآن على طول سياج حيث يثوي الألمان يحدقون فـيه، بنظرات لامعة كأنها أوراق شجر ندية، وكلما أوغل في المسير ازداد ولوجـه بيـن الألمان، وعند الصراخ الثالث أو الرابع، أو السادس. سيهب الألمـان متحلقيـن حولـه، الأسـلحة مصـوبة نحوه، يخترق صدره حديد ساخن...

أحد هؤلاء الألمان كان يدعى غوند، لـه ابتسامة بيضاء مرعبة تحت الخـوذة، ربما مد يديه الهائلتين إليه، كي يحوله إلى حديد صلد، وها هو ذا بيـندا يخشـى الاستدارة ليتجنب رؤيته فوق كتفيه، أو ربما تقدم غوند عبر الـدرب، مشـيراً بإصـبعه نحـوه. أو ربما سمعه يضرب الأحجار بقدميه فتتدحرج حول بيندا، تسير الأحجار على جانبه بصمت وسكون.

فـي لحظة ما، خيل لـه أنه تاه عبر الطريق حتى ولو كان قادراً على الـتعرف علـيه. الصـخور، الأشجار، نوافح المسك، ولكن حتى الصخور والأشـجار والمسك العطر يبدو أنها تنتمي إلى مكان آخر، مكان بعيد، ثمة الآلاف من الأماكن المختلفة والقصية، بعد هذه الحصباء توجد طرق فرعية، ربمـا كان المستنقع الذي خبره هناك قد جف الآن، لا ماء ولا ضفادع، إنها ضفادع تنتمي لواد آخر، ضفادع قريبة جداً من الألمان، وعندما ينعطف في الطـريق سيصادف علامات خادعة وضعها الألمان. لقد وضعوها بأيديهم، قـرب الألمانـي الكبـير الـذي يثوي في داخلنا، إنه يدعى غوند، محملاً بـالخوذات، المدافـع، أفواه أسلحة مصوبة، حيث يفتح يديه الهائلتين ليغلقنا بداخلهما، ولا مجال لنا أبداً للتملص منهما...

ولطـرد غونـد يجب التفكير بريجينا، ويجب التفكير بحفر محراب في الـثلج برفقة ريجينا، لكن الثلج قاس ومتجلد، لا يمكن لريجينا الاستلقاء عليه وهـي ترتدي ملابس رقيقة مثل الجلد، ولا يمكن لها أن تثوي تحت أشجار

الصـــنوبر، حيــث الإبر طويلة ولا نهاية لها، التراب مليء بالنمل، وغوند فوقـــنا يبسط كفه فوق رؤوسنا، حول حلوقنا، يضغط على صدورنا، يوغل غوند في بسط يده، نصرخ، يجب التفكير بريجينا، الفتاة التي بداخلنا، ريجينا التـــي نكـــرس كـــل حياتنا لنحفر لها محراباً في أعمق أعماق الغابة ولكن الســـباق في النهاية كان بين بيندا وغوند، لم يبق سوى مسيرة خمس عشرة دقـــيقة، عشـــرين دقيقة للوصول إلى معسكر فيندنا، يجب الركض، ركض الأقـــدام وتـــتابع الأفكار، ولكن ها هي ذي خطواته تتابع على الدرب بنفس الانـــتظام والرتابة، وعندما يصل إلى الرفاق، ربما زال الخوف، ربما محي من أعمق أعماق الذاكرة، يجب أن تقذفه حتى حدود المستحيل. يجب التفكير بإيقـــاظ فيندنا وشابولا، لقد شرح لـــه مفوض المنطقة أوامر فيكاتو، ويجب الذهاب بعد فيذنا إلى جيربونه انطلاقاً من سيربه..

ولكـــن هـــل عســـاه سيصـــل المنزل هناك؟ ألم يكن مشدوداً إلى خيط يســـحبه، ورويـــداً رويـــداً يقترب المنزل منه؟ وإذا وصل ألن يسمع كلمات الألمان وهي تتردد، وهم ثاوون حول نار موقدة، ومنهمكون في التهام بقايا الكســـتناء؟ هـــا هـــو ذا بيندا يتخيل نفسه وقد انتهي إلى منزل الرفاق ليجده وسط الحريق متصحراً، يدخل المنزل، إنه خاو، ولكن في زاوية من زواياه يـــثوي جـــندي معتمراً خوذة هائلة تملأ المكان، إنه غوند، عيناه مستديرتان ومضيئتان كعيني غيرو، ابتسامة الأسنان البيضاء تظهر بين شفاه متضخمة، يشير لـــه غوند أن أجلس.. ربما جلس بيندا...

هـــا هو ذا، بعد مائة متر، ثمة ضوء إنهم هم، من هم؟ داهمته الرغبة فـــي العـــودة والإياب إلى الوراء، الرغبة في القرار، كأن كل أخطار العالم تكمـــن هـــناك فـــي منزل بين كاستانيا، لكنه يواصل المسير، الوجه صارم ومغلـــق مـــثل قبضـــة يد.. الآن يبدو لـــه أن النار تقترب بسرعة مفرطة، تـــتحلق حوله؟ هل يبتعد، هل يهرب؟ لكنه كان واقفاً في مكانه لا يريم، إنها نار المعسكر ولم تطفئ بعد، بيندا يعرف ذلك جيداً.

-من هناك؟

يصرخ الحارس ثم يردف:

-هذا أنت يا بيندا، هل من أنباء جديدة؟

-أتنام يا فيندّتا؟

هاهو ذا بيندا داخل المنزل حيث ينام الرفاق، هذا طبيعي، ومن عساهم يكونون إن لم يكونوا رفاقه؟

-الألمان وصلوا إلى برفيا، والفاشيون في موليني، ارحلوا، عند الشفق يتوجه الجميع إلى بلّيفرينو.

فيندتّا الذي استيقظ للتو، والوسن ما زال يداعب أجفانه، قال:

-لنتحرك قدماً..

ثم ينهض. يخبط كفيه ويصرخ:

-استيقظوا لقد أزف أوان الرحيل.

يتحلق بيندا حول قدر من الكستناء يغلي، يقشر الغشاء الذي يحيط بالثمرة. يهرع الرجال، يوزعون المهام فيما بينهم، يهيئون متاع الرحيل. يقول بيندا بينما ينصرف:

-إني ماضٍ إلى سيربه، ثم إلى جيربونته...

يرد رفاقه:

-تشجع يا بيندا.

□□□

صمت البحر – ذاك اليوم

للكاتب الفرنسي

فيركور [1]

■ ترجمة : مازن محمد علي المغربي ■

عن الفرنسية

صمت البحر

في ذكرى سان – بول – رو Saint-Pule-Roux
(شاعر كان قد اغتيل)

سبق قدومه عملية واسعة لنشر قوات عسكرية.

جــاء أولاً نفران[2]، شديدا الشقرة، الأول طويل ونحيل والثاني ربعة، لهمـــا أيدي عمال. راقبا المنزل دون أن يدخلاه. بعد ذلك جاء ضابط صف يرافقه النفر النحيل. تحدثًا معي بلغة افترضوا أنها فرنسية. لم أفقه أية كلمة. ومع ذلك جعلتهم يرون الغرف الشاغرة. وبدا عليهم السرور.

فـــي الصـــباح التالي اقتحمت الحديقة عربة عسكرية مكشوفة. السائق جـــنديّ شـــاب نحـــيل، أشقر وبشوش. أخرج من العربة صندوقين ورزمة ضـــخمة ملفوفـــة بقمـــاش رمادي. نقلوا الأمتعة إلى أوسع الغرف ورحلت العربة.

([1])–الاسم المستعار للكاتب الفرنسي جان برواللر.

([2])–استعملنا كلمة نفر الشعبية للدلالة على أنهما عسكريان دون أية رتبة وقد جاء هذا في النص الأصلي.

بعــد بضع ساعات سمعت وقع حوافر خيل. ظهر ثلاثة فرسان. ترجّل أحدهــم وزار المبنى الحجريّ القديم. رجع، ودخل الجميع، فرسانا ومطايا، مخزن الحبوب الذي أستخدمه كمشغل.

رأيــت لاحقــاً أنهم استعملوا مسند طاولة النجارة وأدخلوه في ثقب في الجدار وشدوا إليه حبلاً ربطوا به الخيل.

مضـــي يومـــان دون أن يحدث شيء. لم أعد أرى أحداً. كان الفرسان يخـــرجون علـــى خيولهم منذ الصباح الباكر ويرجعون عند المساء وكانوا ينامون على التبن الذي فرشوا به الفسحة تحت الدرج.

فـــي صباح اليوم الثالث رجعت السيارة الكبيرة. حمل الشاب البشوش جعــبة كبيرة على كتفه ونقلها إلى الغرفة. ثم حمل حقيبته الخاصة ووضعها فـــي الغرفة المجاورة. نزل وخاطب ابنة شقيقتي بفرنسية سليمة وطلب منها أغطية.

كانت ابنة أختي هي التي ذهبت لفتح الباب، عندما قرع. بعد أن قدمت لي القهوة للتو مثل كل مساء "القهوة تجعلني أنام".

كنت جالساً في آخر الغرفة في ظلام نسبي.

بابنا يفتح على حديقة على مستوى أرض الغرفة وحول البيت رصيف من مربعات حمر، تظهر فائدته العملية عند المطر.

ســـمعنا خطـــوات، وقـــع أعقاب على المربعات. رمقتني ابنة شقيقتي ووضعت فنجانها من يدها.

أنا تركت فنجاني بين يدي.

لـــم تكـــن ليلة شديدة البرودة، تشرين الثاني من هذا العام لم يكن شديد الـــبرد. رأيت الخيال الضخم، القبعة المسطحة، والمعطف الواقي من المطر مرمياً على الكتفين مثل عباءة.

فتحــت ابــنة أختـــي الباب وظلّت صامته. شرعت الباب حتى التصق بــالجدار، ثــم اســتندت إلى الجدار وعيناها تحدّقان في الفراغ، أنا أرتشف قهوتي.

قــال الضابط الواقف على العتبة: "إذا سمحتم". أومأ برأسه محيياً. بدا أنه يقيس الصمت، ثم دخل.

انزلق البرنس على ذراعه، حيى بأسلوب عسكري ثم نزع قبعته. التفت إلى ابنة شقيقتي، ابتسم ابتسامة خفيّة وهو ينحني قليلاً بصدره. ثم التفت إليّ وانحـــنى باحترام بشكل جديّ. قال: "أُدعى" فرنر فون ابرناك" راودتني على الفــور فكرة أن الاسم ليس ألمانياً ربما كان من سلالة مهاجر بروتستانتي؟. ثم أضاف: "أنا آسف".

نطــق العبارة الأخيرة ببطء وبصوت خافت لذا سقطت عبارته في هوة الصــمت. أغلقــت ابنة أختي الباب وظهرها مستند إلى الجدار، محدقة في الفــراغ أمامهــا. وضــعت ببطء فنجاني الفارغ على الأرغن. شبكت يدي وانتظرت.

اســتأنف الضابط حديثه، قال: "كان هذا ضرورياً، ما كنت لأقدم عليه لــولا الضــرورة. سيبذل مرافقي كل جهدهم للحفاظ على طمأنينتكم". كان واقفاً وسط الغرفة، ناحلاً وطويلاً، ولو رفع يداه للمس عوارض السقف.

رأسه منحنٍ قليلاً نحو الأمام كما لو أن العنق ليس مغروساً بين الكتفين بل على الصدر. لم يكن أحدب لكنه بدا كذلك. فساعداه وكتفاه الضيّقة كانت ملفتة للنظر.

وجهـــه مليح. كان رجولياً يميّزه أخدودان عند الوجنتين. لم تكن عيناه، المختبئتان في ظل حاجبيه مرئيتين. خيل إليّ أنهما فاتحتا اللون. شعره أشقر أملــس وممشط إلى الخلف ويلمع تحت نور الثريا. طال الصمت. صار أشد وطأة، ثقيلاً وساكناً مثل ضباب الصباح.

جمــود ابــنة أختــي في مكانها، وجمودي أنا زادا من وطأة الصمت، جعلاه في ثقل الرصاص.

أمــا الضابط المرتبك فقد ظلّ ثابتاً في مكانه دون حراك إلى أن رأيت ابتســامة تولــد على شفتيه. كانت ابتسامته جادة دون أية سخرية. أتى بيده حــركة فاتنـــي إدراك دلالــتها. توقفت عيناه عند ابنة شقيقتي، نظرته ظلت قاســية ومباشرة وتمكنت من التمعن في منظره الجانبي النافر وأنفه البارز النحــيل. لحظــت بيــن شفتيه شبه المطبقتين بريق سن ذهبية. أزاح نظرته وحــدّق فــي نــار المدفأة وقال: "أكن تقديراً عميقاً للأشخاص الذين يحبون وطــنهم". رفــع رأســه بصورة مفاجئة وتأمل تمثال الملاك المنحوت فوق الــنافذة، وقال: "يمكنني الآن الصعود إلى غرفتي ولكني لا أعرف الطريق". فتحــت ابنة أختي الباب الموصل إلى الدرج الصغير وارتقت الدرجات دون أن تلقي أية نظرة نحو الضابط كما لو كانت وحدها.

تبعها الضابط وعندها انتبهت أن إحدى ساقيه متصلبة.

ســمعتهما يجــتازان الــردهة، صدى خطوات الألماني ملأت الممر، صوت خفيف يتلوه آخر قوي. فتح باب ثم أغلق. وعادت ابنة أختي. أخذت فنجانها واستأنفت شرب قهوتها. أشعلت غليوناً وظللنا صامتين بضع دقائق. قلــت: "شكراً لله، يبدو أنه مهذب". رفعت ابنة أختي كتفيها ووضعت سترتي المخملية فوق ركبتيها وأنهت خياطة الرقعة التي كانت قد بدأتها.

صــباح اليوم التالي نزل الضابط أثناء تناولنا الإفطار في المطبخ. ثمّة درج ثــان يصــل بين الطابق العلوي والمطبخ ولا أعلم إن كان الضابط قد سمعنا أم أنه سلك هذا الطريق بالصدفة.

توقــف علــى العتــبة وقال: "قضيت ليلة ممتعة، آمل أن ليلتكما كانت جــيدة". نظر مبتسماً إلى المطبخ الواسع. فنظراً لكوننا لا نمتلك إلا قليلاً من الحطــب وكمية أقل من الفحم، قمت بطلاء المطبخ ونقلت إليه بعض الأثاث

وبعـــض القـــدور النحاسية والأواني القديمة بحيث نتدبر أمرنا لقضاء فصل الشتاء. تفحص الوضع وكنا نرى لمعان حواف أسنانه ناصعة البياض.

رأيـــت أن لـــون عينيه لم يكن أزرق كما ظننت بل ذهبي. أخيراً عبر الغرفة وفتح الباب المؤدي إلى الحديقة. خطا خطوتين ثم التفت ليتأمل منزلنا الواطئ المغطى بالدوالي، وسطحه المرصوف باللبن. اتسعت ابتسامته.

-مخـــتاركم العجـــوز قال لي أنني سأسكن في القصر، قال ذلك مشيراً بظاهـــر يـــده إلـــى المبـــنى الفخم هناك على التل والذي يمكن رؤيته عبر الأشجار العارية. سأهنئ رجالي على خطئهم. البيت هنا هو قصر أبهى.

ثم أغلق الباب وحيانا عبر الزجاج ومضى.

فـــي المساء رجع في نفس موعد الليلة السابقة. كنا نشرب قهوتنا. قرع الباب لكنه لم ينتظر أن تفتح ابنة أختي الباب. فتح الباب بنفسه: "أخشى أنني أزعجكـــم، يمكن أن أمر عبر المطبخ إن كنتم تفضلون ذلك، في هذه الحال يمكـــنكم إيصـــاد هـــذا الباب". اجتاز الغرفة؛ وقف لبرهة ويده على مقبض الـــباب، وأجـــال بصره في كل أركان زاوية التدخين. وأخيراً حيَّانا بانحناءة خفيفة وقال: "أتمنى لكما ليلة هنيئة"، وخرج.

لـــم نوصد الباب. لست متأكداً من أن عزوفنا عن ذلك كان له مبررات واضحة أو صافية تماماً.

باتفـــاق ضـــمني قررنا أنا وابنة أختي عدم إجراء أي تغيير على نمط حياتنا مهما كان تافهاً كما لو أن الضابط غير موجود، كما لو أنه شبح. لكن من الوارد أنه كان هناك وراء هذا شعور آخر اختلج في صدري.

فلم يكن من السهل عليّ جرح امرئ حتى ولو كان عدواً.

تكرر المشهد يومياً لزمن طويل، تجاوز الشهر. يقرع الضابط الباب ثم يدخـــل. يـــتفوه ببضع كلمات حول الطقس والحرارة أو حول مواضيع ذات أهمـــية مماثلـــة تشترك بأنها لا تفترض رداً. كان يتمهل على العتبة ويدير

نظـــره فـــي الغرفة. وابتسامة خفيفة تعبر عن متعته في هذا التفحص الذي تكـــرر يومياً بذات التلذذ. كانت نظراته تتمهل عند ابنة أختي المنحنية والتي لا يمكـــن أن يخطئ المرء ملاحظة جديتها ولا مبالاتها. وعندما كان يحول نظـــره عـــنها كنت واثقاً من رؤية نظرة تحمل تقديراً ترافقه ابتسامة. بعدها كان يومئ برأسه ويقول: "أتمنى لكما ليلة هنيئة"، ثم يمضي.

تغـــيّرت الأمـــور بشـــكل مفاجـــئ ذات مساء. في الخارج ندف ثلج مصحوبة بمطر غزير شديد البرودة. وضعت في الموقد حطباً سميكاً أحتفظ بـــه لمثل هذه الأيام. وعلى الرغم مني تخيّلت الضابط يدخل مغطى بالثلج، لكنه لم يأتِ. تجاوزت الساعة موعد قدومه.

أزعجنـــي إقـــراري أنه يشغل تفكيري. كانت ابنة أختي تحيك الصوف ببطء ويبدو عليها الانهماك في عملها.

وأخيراً؛ سمع وقع خطوات أتت من داخل المنزل. تعرّفت على صدى خطـــوات الضابط غير الموزونة، أدركت أنه ولج من الباب الثاني وأنه قادم مـــن غرفـــته. بـــدون شك لم يرغب في أن نراه بزي عسكري مبلل ينقص هيبته ولهذا بدّل ثيابه.

تناوبـــت خطـــوات ثقيلة وخفيفة على الدرج. فتح الباب وبان الضابط. كـــان فـــي زيّ مدنـــيّ، ســـروال من قماش سميك رمادي وسترته واسعة فضفاضـــة مـــن الـــتويد الأزرق موشى بحلقات بنية ارتداها بأناقة. وتحت الســـترة كنزة من الصوف الثخين ملتصقة بجذعه الناحل مثل جذع مصارع الثيران.

عذراً، هذا ما قاله، أشعر ببرد. كنت مبللاً وغرفتي باردة، سأبقى بضع دقـــائق أصطلي ناركم. قرفص بصعوبة قبالة النار ومد يديه وصار يقلبهما متمتماً: هذا ممتع. دار حول نفسه معرضاً ظهره لوهج النار وظل مقرفصاً ممسكاً بإحدى ركبتيه بيديه.

هـذا شـيء لا يذكر، الشتاء في فرنسا فصل لطيف. في بلادي الشتاء قـاس. قـاس جـداً. الأشجار عندنا من السرو، غابات كثيفة، يثقلها الثلج. الأشجار هنا ناعمة يكسوها الثلج مثل ثوب خفيف. في بلادي يجب أن يكون المـرء بقـوة الثور كي يعيش، صلباً وقوياً. هنا نجد الروح والفكر الثاقب والشاعري.

كـان صـوته أجوف دون نبرة مميزة. اللحن في فرنسيته خفيف يشتد عند لفظ الأحرف الساكنة القوية. مجمل حديثه مثل وشوشة ذات نغم.

نهـض. أسـند ذراعـه على العارضة فوق المدفأة وأراح جبينه على ظاهر يده. كان طويلاً إلى حد يجبره على الانحناء ليستند إلى العارضة التي كان ارتفاعها يتجاوز قمة رأسي.

ظـل ثابتاً لبرهة دون كلام أو حراك. ابنة أختي تحيك بحيوية آلية. لم تـتجه إلـيه بنظراتها ولو لمرة. كنت أدخن وأنا شبه مضطجع في أريكتي الواسـعة اللينة. فكرت أن ثقل صمتنا لا يمكن اختراقه وأن الرجل سيحيينا ويمضي.

لكـن الوشوشـة الصـمّاء ذات اللحـن علت من جديد دون أن تكسر الصمت بل كما لو أنه ولدت منه.

أحببـت فرنسـا على الدوام، قالها الضابط دون أن يتحرك. كنت طفلاً إبـان الحـرب الماضية وما جال في فكري حينئذ لا يمكن الاعتداد به. لكن بعـد ذلك واظبت على حبها لكنه كان حباً عن بعد، مثل أميرة بعيدة. توقف لوهلة قبل أن يقول بصوت مجهد: بسبب أبي.

التفت ويداه في جيبي سترته. استند إلى عارضة المدفأة ورأسه ملتصق بـالجدار. كان من حين إلى آخر، يحك مؤخرة رأسه مثل وعل. ثمّة أريكة بالقـرب منه لكنه لم يجلس. أبداً لم يجلس حتى اليوم الأخير. لم ندعه نحن للجلـوس ولم يقدم هو على أي تصرف يستشف منه نية رفع الكلفة. كرر:

بسـبب أبـي. كـان يشتعل وطنية. أصابته الهزيمة بجرح أليم. لكنه أحبَّ فرنسـا. أحب بريان Briand وآمن بجمهورية فايمار وبرياند. كان حماسه شـديداً وكـان يقول عنه: "سيجمع بيننا مثل زوج وزوجة" أعتقد أن الشمس ستشرق في سماء أوربا.

كـان يـنظر إلى ابنة أختي وهو يتكلم. لم ينظر إليها نظرة رجل إلى امـرأة بـل نظرته إلى تمثال. وفي الواقع كانت تمثالاً، تمثالاً حيًا لكن يبقى تمثالاً.

-هـزم برياند. رأى أبي فرنسا تسلم قيادها لكبار بورجوازييكم القساة أشـخاص مثل Wendell ومثل Henri Bordeaux ومثل مارشالكم العجوز. قـال لي: "يجب ألا تذهب لزيارة فرنسا إلاَّ بعد أن تدخلها بزيك العسكري". اضـطررت أن أقطـع له وعداً بهذا فقد كان على مشارف الموت. وعندما نشبت هذه الحرب كنت أعرف سائر أنحاء أوروبا باستثناء فرنسا.

ابتسم وقال كما لو أنه يقدم تفسيراً: -أنا موسيقيّ.

تهشـمت حطـبة وتدحرجت جمرات. انحنى الألماني وجمع الجمرات بملقط وتابع:

-أنـا لسـت عازفاً. أؤلف قطعاً موسيقية. الموسيقى هي حياتي ولهذا أسـتغرب نفسي في دور المحارب ولكني لا أندم على نشوب هذه الحرب. لا.. أظن أنها ستؤدي إلى نتائج عظيمة.

رفع جذعه وأخرج يديه من جيبيه وتركهما شبه مرفوعتين:

-اعذرانـي. ربما أسأت إليكما. لكن ما قلته هو ما يدور في ذهني عن حسـن نـية ومنطلقي حب فرنسا. سيكون لهذه الحرب نتائج باهرة لكل من ألمانيا وفرنسا. وأظن، مثل أبي، أن الشمس ستسطع فوق أوروبا.

خطا خطوتين وانحنى ومثل كل مساء قال: "أتمنى لكما ليلة هنيئة"، ثم خرج.

أنهيـــت تدخيـــن غليوني في صمت، سعلت وقلت: "ربما أنه من غير اللائـــق ألاَّ نـــرد علـــيه ولو بكلمة واحدة". رفعت ابنة أختي وجهها ورأيت حاجبين مرفوعين يظللان عينين براقتين ومستاءتين شعرت أنا بالخجل.

منذ ذلك اليوم تغيّر نمط زياراته. لم نعد نراه في زيه العسكري إلاَّ فيما نـــدر. كان يبدل ثيابه ثم يقرع بابنا. هل أراد إعفاءنا من رؤية زي الأعداء؟ أو ربما أراد منا أن ننساه؟ أراد كلا الأمرين دون شك. صار يقرع الباب ثم يدخـــل دون انـــتظار رد يعرف أنه لن يناله. فعل ذلك ببراءة طبيعية وكان يصـــطلي قـــرب النار التي كانت حجة قدومه وهي حجة لم تنطل علينا أو عليه، ولم يسع هو لإخفاء طابعها الاتفاقي.

لـــم يأت كل مساء بالضرورة ولكني لا أذكر أية مرة جاء فيها وتركنا دون أن يتكلم.

كـــان ينحني باتجاه النار ويعرض جسمه لدفء اللهب وتعلو وشوشته بلطف. استمر هذا لعشيات أفصح خلالها عن مكنونات صدره.

تطرق إلى مواضيع شتّى مثل وطنه والموسيقى وفرنسا، في مونولوج لا ينتهـــي. لـــم يسع أبداً للحصول على إجابة أو على موافقة ولا حتى على نظـــرة. لـــم يكن يطيل الحديث، لم يتجاوز أبداً مدة حديثه في الليلة الأولى. كان يتفوه ببضع جمل يتخللها الصمت أحياناً أو متسلسلة برتابة صلاة أحياناً أخرى. كان يظل ثابتاً لصق المدفأة ويتقرب أحياناً من شيء ما أو من لوحة دون أن يقطع حديثه ثم يصمت وينحني متمنياً لنا ليلة هنيئة.

ذات مرة قال (كان هذا في بدء زياراته):

-أيـــن يكمن الفرق بين النار عندنا وناركم هذه؟ يكمن الفرق في نوع الخشـــب لأن المدفأة واللهب متشابهان. لكن هذا لا ينطبق على الإنارة التي ترتـــبط بالأشـــياء التي تغمرها وبسكان المكان وبالأثاث والجدران والكتب الموجودة على الرفوف..

"لمـــاذا أحب هذه الغرفة إلى هذا الحد؟ قال هذا بعد تفكير. ليست فائقة الـــروعة، عـــذراً، ضحك؛ وقال: قصدت أنها ليست غرفة في متحف.. لا يمكن القول أن أثاثكم رائع.. لا.. لكن لهذه الغرفة روحاً. هذه الدار بكاملها تمتلك روحاً".

كان قرب رفوف المكتبة وإصبعه تمرُّ على عناوين الكتب بلطف.

"بالزاك، بَريْس، بودلير، بولو، بوفون.. شاتوبريان، كورنيل، ديكارت، فينـــيلون، فلوبـــير.. لافونتين، فرانس، غوتييه، هوغو.. ولم أصل بعد إلى موليير أو إلى رابليه أوراسين أو باسكال أو ستاندال أو فولتير أو مونتين([1]) ولا لكل الآخرين!..".

استمر في متابعة العناوين بإصبعه وأصدر بين فينة وأخرى صوتاً ينم عن دهشته، ربما بسبب قراءته لاسم لم يخطر بباله.

عـــندما نذكـــر الإنكليز يتبادل إلى الذهن على الفور شكسبير. وعندما نذكـــر الإيطاليين نفكر في دانتي، وبالنسبة لإسبانيا نجد سرفانتس. أما فيما يخصـــنا نحـــن فهناك غوته وبعدها يجب إمعان الفكر لكن إذا ذكرنا فرنسا؟ مـــن أول من يتبادر إلى الذهن على الفور؟ موليير؟ راسين؟ هوغو؟ فولتير؟ رابلـــيه؟ ومن غيرهم؟ يتدافعون مثل جمهور محتشد أمام المسرح لا ندري من هو الأجدر بالدخول أولاً.

التفت وقال بصوت جاد:

-أمـــا فـــيما يخصّ الموسيقى فهذا مجالنا نحن باخ، هايندل، بيتهوفن، فاغنر، موتزارت.. أيهم يأتي في المقدمة؟

"ومـــع هـــذا تحاربـــنا!" قالها ببطء وهو يهزُّ رأسه. رجع قرب المدفأة واســـتقرت عيـــناه، مبتسمتين، على جانبيّة ابنة أختي. "لكن هذه هي المرة

([1])-*كتاب فرنسيون من عهود مختلفة.*

الأخـــيرة" لـــن نـــتحارب بعدها؛ سنرتبط معاً!" انطبقت أجفانه وازداد بروز الأخدودين على وجنتيه وبانت الأسنان البيضاء.

قـــال بفرح: "أجل.. أجل!" وأكدَّ كلامه بإيماءة من رأسه. تابع: "عندما دخلـــنا مديـــنة ســـانت ســـعدت لكون الشعب استقبلنا بترحاب. كنت سعيداً" للغايـــة"، فكّـــرت أن الأمـــر سيكون سهلاً ثم ما لبثت أن رأيت أن الوضع مختلف تماماً، لم يكن الأمر سوى محض جبن". اكتسى وجهه مظهراً جديًّا؛ وقـــال: احـــتقرت أولـــئك الأشخاص، انتابتني المخاوف فيما يخصُّ فرنسا وفكّـــرت هل صحيح أنها وصلت إلى هذا الدرك؟ هزَّ رأسه: "لا! لا. وفيما بعد، الآنَ، سعدت لمرأى وجه فرنسا الصارم".

التقت نظرته بنظرتي –أشحت بنظري– تأمل عدة مطارح في الغرفة، وعاد بنظره إلى ذاك الوجه الذي ظلَّ صارماً دون أية رحمة.

–أنا سعيد لأني وجدت هنا كهلاً محترماً وآنسة صموتة. يجب قهر هذا الصـــمت. يجـــب قهر صمت فرنسا. هذا يروق لي. نظر بصمت، إلى ابنة أختـــي، نظـــر إلـــى الجانبية الجميلة العنيدة والصارمة، كانت نظرته تحمل إصـــراراً وجدية وتبدو فيها آثار ابتسامة. أحست ابنة أختي بالأمر. لحظت احمـــراراً خفـــيفاً على وجهها، وبدت عقدة بين حاجبيها. كانت أناملها تعمل بحدة وبقسوة، بحيث صار من الوارد انقطاع خيط الصوف.

–أجـــل، اســـتأنف الصـــوت ببطء، الأمر أفضل هكذا. أفضل بكثير. سيكون اتحاداً متيناً يضفي عظمة على الطرفين.. هناك حكاية جميلة تحكى للأطفـــال، قـــرأتها أنا وقرأتموها أنتم وكل العالم. لا أعرف إن كانت تحمل ذات العـــنوان في البلدين. في وطني نسميها "الحسناء والوحش". يا للحسناء المســـكينة! كانت تحت رحمة الوحش، كانت عاجزة وحبيسة، فرضت عليه طـــوال اليوم وجودها المحتوم.. والمزعج.. الحسناء ذات كبرياء وفخورة، تظاهـــرت بالقسوة.. لكن معدن الوحش كان أفضل مما ينم عنه مظهره. لم

يتلقَّ ما يكفي من قواعد التهذيب! كان أخرق وفظاً وبدا مفتقداً للياقة بالمقارنة مع الحسناء فائقة الرقة!.. لكنها لم تكن بلا قلب، بلى روحها تصبو إلى السمو لو شاءت.. استغرق الأمر وقتاً حتى أرادت الحسناء ذلك. وشيئاً فشيئاً وجدت في أعماق عيني السجّان الكريه بريقاً يمكن أن يستشف منه الرجاء والحب.

شعرت أن سلطته أقل إزعاجاً وأن سلاسل قيودها أقل ثقلاً.. كفت عن البغض ومسّها إصراره فمدت يدها.. وسرعان ما تحوّل الوحش. تلاشى السحر الذي كان يسجنه في شكله الهمجي وصار فارساً جميلاً ونقياً، مهذباً ومتعلماً وكانت كل قبلة جديدة من الحسناء تظهر مزايا أكثر بريقاً.. اتحدا في سعادة سامية. أما أولادهما الذين ورثوا مزايا كلا الوالدين فقد كانوا أروع ما أنجبته الأرض..

"ألا تحبون هذه الحكاية؟ أحببتها على الدوام. قرأتها مراراً، وأبكتني. أحببت الوحش بشكل خاص لأني كنت أفهم معاناته. وحتى الآن أشعر بالانفعال عند الحديث عنها".

سكت، أخذ نفساً عميقاً وانحنى: "أتمنى لكما ليلة هنيئة".

ذات مساء كنت قد صعدت إلى غرفتي لأجلب تبغاً، سمعت صوت الأرغن يعلو بمقدمة باخ الثامنة وكانت ابنة شقيقتي تتدرب عليها قبل انهيار الجيش "الفرنسي". دفتر النوتة ظل مفتوحاً على هذه الصفحة ولم تكن ابنة أختي قد عادت للتدريب حتى هذه العشية. استئنافها التدريب ولّد لديَّ شعوراً بالسعادة والدهشة، ما الدافع الداخلي الذي انتابها فجأةً؟

لم تكن هي. لم تبرح أريكتها ولم تترك كتابها. التقت نظراتها بنظراتي برسالة لم أفقه كنهها. تأملت الجذع الطويل المنحني أمام الأداة الموسيقية، الرقبة المشرئبة والأيدي الطويلة الرقيقة العصبية وأصابعها تتنقل على الآلة مثل أشخاص مستقلين.

عزف المقدمة ثم توقف. نهض واتجه إلى المدفأة.

لا يوجد ما هو أعظم من هذا، قالها بصوته الذي لم يكن يعلو الهمس. "عظيم؟.. حتى هذه الكلمة لا تكفي. إنه يفوق قدرة الإنسان ويتجاوز حدوده. هذا يجعلنا نفهم، لا بل يجعلنا نستشف.. أعني نستشعر، بلى نستشعر كنه الطبيعة.. الطبيعة الإلهية العصية على المعرفة.. وطبيعة الروح الإنسانية. أجل هذه موسيقى أسمى من البشر".

بدا في صمته كأنه يسبر أغوار فكرته. عض على شفته ببطء.

-باخ لا يمكن أن يكون إلا ألمانياً، فأرضنا تمتلك هذا الطابع، هذا الطابع اللاإنساني، أعني الذي يتجاوز حجم الإنسان.

فترة صمت ثم قال: أحب هذه الموسيقى وأقدرها، فهي تملأ كياني، تخترقني مثل الوجود الإلهي، لكنها ليست موسيقاي.

أريد أن أضع موسيقاي الخاصة، موسيقى على قياس الإنسان، هذه إحدى الطرق لبلوغ الحقيقة. إنها طريقي أنا. ولا أريد اتباع طريق أخرى. هذا أمر أدركته الآن، أعرف هذا. أعرفه تماماً. منذ متى؟ منذ أن سكنت هنا.

أعطانا ظهره وأسند يديه على عارضة المدفأة. شدّ أصابعه عليها ومن بين ذراعيه، عرض وجهه للهب، كما لو كان خلف قضبان سياج. صوته صار أكثر وشوشة:

-الآن أحتاج فرنسا. ولكني أطلب الكثير. أطلب أن ترحب بي. فمن غير المفيد أن أكون هنا كغريب مثل مسافر أو غاز. فهي لا تقدم شيئاً في مثل هذه الحالة لأنه من غير الممكن انتزاع شيء منها. ثراؤها، ثراؤها الفائق عصي على الفاتح. يجب أن نرضع منها. أن تعطينا أثداءها بأمومة.. أدرك أن الأمر منوط بنا نحن، لكنه يتعلق بها أيضاً. يجب أن تفهم مدى عطشنا وأن تقبل إرواءه.. أن ترضى بالاتحاد معنا.

شدَّ جذعه دون أن يلتفت إلينا وأصابعه مشدودة على الحجر.

-أنا، قالها بصوت أكثر علواً، يجب أن أعيش هنا لمدة طويلة، في بيت مماثل لهذا. كما لو كنت ابن قرية مثل هذه.. يجب أن..

صمت. التفت نحونا. كان فمه مبتسماً، أمّا عيناه فلا! كانتا محدقتين في ابنة أختي.

-سيتم تجاوز العقبات. فالنوايا الطيبة تتجاوز العوائق دوماً.

"أتمنى لكما ليلة هنيئة".

لا أقــدر، فــي يومنا هذا أن أتذكر كل ما قيلَ خلال ما يزيد عن مائة عشــية خريفــية. فقلّما كانت المواضيع تتغير. كانت مثل تلك القصائد التي غناها الشعراء الجوالون. تطرق فيها لاكتشافه فرنسا وللحب الذي حمله لها عن بعد قبل أن يتعرف إليها. والعشق المتصاعد كل يوم الذي كان يشعر به منذ أن ذاق سعادة العيش فيها.

كنــت معجباً به. أجل لم تكن همته تفتر. ولم يحاول البتة هزّ الصمت العنــيد بأيــة عبارات عنيفة.. بل على العكس، ففي المرات التي ترك فيها الصــمت ينتشر إلى كل زوايا الغرفة ليملأها مثل غاز ثقيل على النفس كان يبدو أكثرنا استرخاء. في مثل تلك الحالة كان يراقب ابنة أختي بنظرة تقدير مبتسمة وجادة هي تلك التي امتاز بها منذ اليوم الأول.

كنــت أحسُّ بروح ابنة أختي مهتاجة في ذاك السجن الذي رفعت هي أســواره، كنت ألحظ هذا عبر العديد من الدلالات، أقلُّها ارتجاف خفيف في الأصابع. وعندما كان "فرنرفون ابيرناك" يبدد هذا الصمت بلطف دون عنف عبر صوته الموشوش، كنت أحس بقدر أكبر من حرية التنفس.

كثيراً ما تكلم عن نفسه:

-وُلدت في بيتنا في الغابة. درست في مدرسة القرية في الطرف الآخر ولــم أُغادر القرية إلاّ إلى ميونيخ بسبب الامتحانات وإلى سالسبورغ بسبب

الموسيقى واستقريت فيها. لم أكن أهوى المدن الكبيرة. عرفت لندن وفيينا وروما وفارصوفيا إلى جانب المدن الألمانية طبعاً. لم أحب العيش فيها. أحببت براغ كثيراً. ليس هناك من مدينة أخرى تتمتع بمثل هذا القدر من الروح. كم أحببت نورنبرغ؟ هي بالنسبة للألماني أكثر المدن قدرة على دغدغة المشاعر؛ حيث يجد فيها الأشباح العزيزة على قلبه، وحيث كل حجر يحمل ذكرى أولئك الذين صنعوا أصالة ألمانيا القديمة. أظنُّ أن الفرنسيين ينتابهم إحساس مماثل أمام كاتدرائية شارتر([1])، لا بد أنهم يحسون هناك وجود أجدادهم ويحسون بعظمة الروح والإيمان وكذلك يحسون مدى لطفهم.

قادتني الأقدار إلى شارتر. كم هي رائعة عندما تبين مشرفة على القمح الناضج. تبدو عن بعد زرقاء وشفافة، روحانية، يا له من إحساس عظيم! تخيلت إحساس أولئك الذين كانوا يأتونها فيما مضى، سيراً على الأقدام، أو على ظهور الخيل أو في عربات. قاسمتهم مشاعرهم وأحببتهم ولكم وددت مؤاخاتهم.

أظلم وجهه:

–لا شكَّ أنه من الصعب سماع هذا من شخص زار شارتر في عربة مدرعة.. لكنه حقيقي. كم هي كثيرة الأمور التي تتداخل في نفس الألمان، حتى أخيرهم. وكم يتمنى الألماني الشفاء من هذا الوضع. ابتسم ثانية، ابتسامة خفيفة أنارت وجهه تدريجياً ثم تابع:

–في القصر المجاور لبيتنا كانت هناك فتاة.. رائعة الجمال ورقيقة. سعد أبي لفكرة زواجي بها. عند وفاته كنا شبه مرتبطين بخطبة، سمح لنا بالقيام بنزهات طويلة دون رفيق.

انتظر، قبل أن يكمل، أن تنهي ابنة أختي من تمرير خيط جديد بدلاً من

([1])-تحظى هذه الكاتدرائية بمكانة مميزة في التاريخ الفرنسي ففيها كان يتم تتويج ملوك فرنسا القدامى.

ذاك الذي انقطع. أنجزت ذلك باهتمام واضح.

لكن الثقب كان فائق الصغر وكان الأمر صعباً وأخيراً أنجزت الأمر.

-ذات يوم كنا في الغابة.. تتالت أرانب وسناجب أمام ناظرينا. كان هناك مختلف أنواع الورود، مختلف أنواع النرجس. كانت الفتاة تضج فرحاً. قالت: "أنا سعيدة يا فرنر أنا أحب عطايا الله". كنت سعيداً بدوري. تمددنا على العشب وسط السرخس. كففنا عن الحديث. نظرنا إلى قمم أشجار الصنوبر تتمايل والعصافير تتقافز فوق الأغصان. صرخت الفتاة قائلةً: لقد قرصت ذقني هذه الحشرة القذرة، الناموسة اللعينة!. رأيتها تأتي بحركة سريعة بيدها "قبضت على واحدة يا فرنر. انظر! سأعاقبها سأنتزع أرجلها الواحدة تلو الأخرى، وقامت بذلك.. لحسن الحظ، -تابع كلامه- كان لديها معجبون آخرون فلم أشعر بتأنيب الضمير. لكن أصابني رعب دائم فيما يخص الفتيات الألمانيات".

نظر بتمعن إلى باطن يديه؛ وقال: هكذا هم السياسيون عندنا.

ولهذا السبب لم أود أبداً الانضمام إليهم على الرغم من دعوات أصدقائي الذين كتبوا إليَّ طالبين مني الاشتراك معهم إلاَّ أنني فضلت على الدوام البقاء في منزلي. لم يكن هذا مفيداً على صعيد الموسيقى لكن هذا غير مهم، فأهمية النجاح لا تقارن براحة البال. في الواقع أعتقد أن أصدقائي وقائدنا يحوزون أعظم الأفكار وأنبلها ولكني مقتنع أنهم سينتزعون أرجل البعوض الواحدة تلو الأخرى.

هذا ما يصيب الألمان عندما يكونون معزولين، وتتصاعد حدة الوضع باستمرار، وهل هناك من هو أشد عزلة من أشخاص ينتمون لحزب واحد ويهيمنون على السلطة؟

"لحسن الحظ لم يعودوا وحيدين لقد دخلوا فرنسا وهم يعرفون أن فرنسا ستعلمهم أن يكونوا رجالاً عظماء وأنقياء فعلاً". اتجه نحو الباب وقال

بصوت متحفظ كأنه يكلم نفسه: لكن هذا يتطلب الحب. ظلّ لوهلة ممسكاً بالباب المفتوح ووجهه ملتفت، ينظر من فوق كتفه إلى مؤخرة عنق ابنة أختي المستغرقة في عملها، عنقها الرقيق الشاحب حيث ترتفع خصلات شعرها البنيّ.

أضاف بنبرة تقريرية هادئة: حب متبادل.

ثم أدار رأسه وانغلق الباب وهو يتمتم عبارته اليومية: "أتمنى لكما ليلة هنيئة".

جاءت الأيام الربيعية الطويلة. صار الضابط ينزل مع آخر خيوط الشمس. ظلّ يرتدي سروالاً من الفانيلا الرمادية، واستبدل سترته بأخرى أخف من الصوف البني السميك فوق قميص كتاني مفتوح الياقة.

نزل ذات مساء ممسكاً بكتاب أغلقه على سبابته. لاح على وجهه مشروع ابتسامة أفصحت عن أمل في إسعاد شخص آخر. فتح الكتاب وقال:

-جلبت هذا لأريكم إيّاه. هذه صفحة من ماكبث([1]). يا للعظمة!

فتح الكتاب: هذه هي الخاتمة. قوة ماكبث تفلت من يده هاربة مع أولئك الذين أدركوا أخيراً مدى قتامة طموحاته. السادة النبلاء المدافعون عن شرف اسكتلندا ينتظرون دمارها القريب. واحد منهم يصف أعراض انهيارها المأساوية..

قرأ بتمهل، بفخامة وقورة:

أنغوس

الآن يحس بجرائمه السرية ملتصقة بيديه. في كل دقيقة يقوم رجال شرفاء ناقمون بلومه على سوء طويته أتباعه يطيعون الخشية ولم يعودوا يطيعون الحب. صار يرى لقبه يدور حوله فضفاضاً مثل ثوب عملاق على

(1)-من مسرحيات شكسبير.

جسد قزم قام بسرقته.

رفـــع رأسه وابتسم. تساءلت بدهشة إن كان يفكّر بالمستبد الذي تبادر إلى ذهني. لكنه قال:

-ألـــيس هـــذا ما يقلق ليل أمير الكم؟ أشفق علي هذا الرجل على الرغم من الاحتقار الذي يولده في نفسي وفي نفوسكم أيضاً. أتباعه يطيعون الخشية لا المحـــبة. القائد الذي لا يحظى بحب أتباعه هو تمثال حقير. إنما هل كان بإمكانـــنا أن نـــأمل إلا بـــبائس طمـــوح ليرضـــى بهذا الدور([1])؟ كان هذا ضـــرورياً. أجل كان من الضروري العثور على أحد ما يرضى بيع وطنه حيـــث أن فرنسا لن ترضى اليوم ولمدة طويلة بالاستسلام لنا طوعاً دون أن تفقد احترامها لذاتها. أحياناً يلعب أكثر سماسرة الهوى قذارة دوراً في إنجاح أسمى العلاقات.

وهـــذا الـــدور لا يجعل رسول الهوى أقل جدارة بالاحتقار، ولا يجعل التحالف أقل سعادة.

أغلـــق الكـــتاب محدثاً صوتاً ودسه في جيب سترته وبحركة آلية ربت مرتين على جيبه براحة يده، أشرق وجهه الطويل بتعبير سعيد وقال:

من واجبي إخطار مضيفي بغيابي لأسبوعين. أنا سعيد لأني ماض إلى باريس. حل دوري في الإجازات سأقضيها في باريس للمرة الأولى. إنه يوم عظـــيم مـــن أيـــام حياتي بانتظار يوم آخر آمل من كل قلبي قدومه والذي ســـيفوقه عظمـــة. سأنتظر سنوات إن اقتضى الأمر فقلبي قادر على صبر طويل.

"أظـــن أننـــي، في باريس، سأرى ثلّة من أصدقائي يحضر عدداً منهم المفاوضـــات التـــي نجريها مع سياسييكم بهدف التحضير للاتحاد الرائع بين شـــعبينا. وهكـــذا سأكون بمثابة شاهد على هذا القران.. أود أن أنبئكم بأنني

([1])-إشارة إلى زعيم المتعاونين مع المحتل النازي.

ســعيد لفرنسا التي ستبرأ جراحها سريعاً بفضل هذا، كما أنني فرح لألمانيا ولنفسي!

لــم يحقــق أحــد مكاسب من مبادرته الحسنة بمقدار ما ستحققه ألمانيا عندما ستعيد لفرنسا عظمتها وحريتّها!

"أتمنى لكما ليلة هنيئة".

القسم الثاني

لم نره عندما عاد.

عرفــنا بوجــوده لأن وجود ضيف في البيت يكشف نفسه بالعديد من الدلائل ولو كانت غير مرئية. لكن لأيام عديدة تجاوزت الأسبوع لم نره.

هــل عليَّ الإقرار أن غيابه أقلقني؟ فكرت فيه، لا أدري إلى أي مدى شــعرت بالقلق. لم نتطرق أنا أو ابنة أختي للموضوع. لكن عندما كنا نسمع أحــياناً في الأعلى، وقع الخطوات غير المتساوية كنت ألاحظ من انهماكها المفاجئ بعملها ومن تبدلات قسمات وجهها المعبرة عن العناد والاهتمام أنها بدورها لم تكن بمنأى عن هواجس مماثلة.

ذات يــوم كــان عليَّ الذهاب إلى مركز القيادة الألمانية للتصريح عمّا أمتلكه من عجلات سيارة([1]).

وبينما كنت أملأ الاستمارة التي أعطوني إيَّاها خرج فرنر فون ابيرناك من مكتبه. لم يرني في البداية، كان يكلم الرقيب الجالس إلى طاولة صغيرة مقــابل مــرآة مثبــتة في الجدار. سمعت صوته الأجوف المنغم وظللت في مكانــي علــى الــرغم من أنه لم يعد هناك ما أفعله ولم أدرك سبب انفعالي الغريــب منــتظراً مخرجاً ما. رأيت انعكاس وجهه في المرآة بدا لي شاحباً

(1)-فرضــت سلطات الاحتلال النازي على المواطنين التصريح عن كل ما يمتلكونه من أشياء يمكن أن تفيد المجهود الحربي.

ونـــاحلاً. ارتفعت عيناه والتقتا بعينيّ، اشتبكت أعيننا لثانيتين، وفجأة استدار علـــى كعبـــيه وصار في مواجهتي. انفرجت شفتاه ببطء، ورفع يده بحركة خفـــيفة وســـرعان ما أنزلها. هزّ رأسه خلسة كأنه يقول لنفسه "لا" دون أن يـــرفع نظره عني ثم أومأ بانحناءة تاركاً نظراته تنزلق إلى الأرض ورجع وهو يعرج، إلى مكتبه حيث حبس نفسه.

لم أخبر ابنة أختي بشيء مما حدث. لكن للنساء قدرة حدس عجيبة. لم تتوقف، طوال المساء عن رفع نظرها عن عملها وتركيزه عليّ في محاولة لالـــتقاط أية إشارة في وجهي الذي جهدت في جعله عصيًا على الاختراق. أحكمـــت إطباق فمي على غليوني. وأخيراً أرخت يديها كما لو كانت تعبة، طوت القماشة واستأذنت بالذهاب مبكرة إلى النوم.

أمـــرت أصابعها على جبينها كأنها تحاول التخلص من صداع. قبلتني وخيّل إليّ أنني رأيت في عينيها الرماديتين الجميلتين عتباً ممزوجاً بحزن.

بعد ذهابها أحسست بغضب غامض يجتاحني، غضب سببه أنني غريب وأن ابـــنة أختـــي غريبة. ما هذه الحماقة؟ لم أكن أمتلك رداً. إن كان الأمر حماقة فيبدو أنها حماقة متجذرة.

بعـــد ذلك بأيام ثلاث، وكنا قد فرغنا لتونا من شرب قهوتنا سمعنا وقع الخطوات المعهودة. تذكرت فجأة العشية الخريفية التي سمعنا فيها، قبل ستة أشهر، تلك الخطوات للمرة الأولى. راودتني فكرة أن هذا اليوم ماطر أيضاً.

كـــان المطر ينهمر بغزارة منذ الصباح. مطر عنيد ومنتظم أغرق كل مـــا في الجوار وغطّى داخل البيت بجو بارد ولزج. كانت ابنة أختي غطت كتفـــيها بمربع حريري مطبوع عليه صورة أيد عشر تتبادل الاتهام بحركة تعوزها الشدة رسمها جان كوكتو، وكنت أحاول تدفئة أصابعي بنار غليوني رغم أننا كنا في شهر تموز!.

اجـتازت الخطـوات الممر وبدأت الدرجات تهتز تحتها. نزل الرجل بـبطء، ببطء متصاعد لكن دون تردد، مثل شخص يخضع إرادته لامتحان عسـير. رفعت ابنة أختي رأسها ونظرت إليَّ، ركزت عليَّ، خلال كل ذاك الوقـت، نظـرة لا إنسانية تخترق المرء مثل نظرات طائر البوهة. أطلقت آخـر الدرجـات صـرخة تلاها صمت، عندها طارت نظرات ابنة أختي، ورأيت جفنيها متثاقلين، ومال رأسها واستند جسمها بتعب إلى ظهر الأريكة.

لا أظـن أن ذاك الصمت طال أكثر من ثوان. لكنها ثوان طويلة. خيّل لي أني أرى الرجل خلف الباب يرفع سبابته مستعداً لقرع الباب وأنه يؤخر حركـته كأنـه، عندما سيقرع الباب، سيكبل المستقبل بالتزام.. وأخيراً قرع الـباب دون خفة أو تردد ودون العنف الناتج عن قهر الخجل كانت ضربات ثـلاث حازمة وبطيئة، قرعات واثقة وهادئة([1]). تعلن قراراً لا رجعة فيه. توقعـت أن أرى الـباب يفـتح كما جرت عليه العادة في السابق، لكنه ظلَّ مغلقـاً، وهكـذا اجتاحنـي انفعال لا يمكن كبحه اختلط فيه تساؤل ورغبات متعارضـة وبـدا لـي أن كـل ثانـية تمرُّ أسرع من سابقتها مما زاد من اضـطرابي. هل يجب أن أتجاوب برد؟ لِمَ هذا التغيير؟ لماذا ينتظر منا في هـذا المسـاء قطع حبل الصمت الذي أظهر هو عبر تصرفاته السابقة مدى تقديـره لـه ولاستمراريته؟ ما هي الالتزامات التي تفرضها الكرامة هذا المساء وأركّز على هذا المساء؟؟

نظـرت إليَّ ابنة شقيقتي لالتقط من عينيها بادرة تشجيع أو إشارة لكني لـم أصـادف إلاّ جانـب وجهها كانت تراقب قبضة الباب. راقبته بثبات لا إنسانيّ بنظرة البوهة، التي سبق أن صدمتني، كانت شديدة الشحوب، ورأيت بـياض أسـنانها، وشفتها العليا متقلصة ألماً. وهكذا فقدت ما تبقى من قواي أمـام هـذه المأساة الحميمة، التي كشف عنها النقاب فجأة، والتي تجاوزت

([1])-الضربات الثلاث كانت تستعمل في الماضي لإعلان بدء العرض.

تجاوزت بمداها قلقي البسيط. في هذه اللحظة قرع الباب مرتين.

فقط ضربتين، ضربتين خافتتين وسريعتين، قالت ابنة أختي: "سوف يمضي" صوتها كان خافتاً ومحبطاً فلم أتوان أكثر وقلت بصوت واضح: "تفضل يا سيد".

لماذا أردفت دعوتي بعبارة يا سيد؟ هل لأبيّن أنني أدعو الإنسان وليس الضابط العدو؟ أم بالعكس لأبرهن أنني لا أجهل من الطارق وأنني أوجه خطابي إليه؟ لست أدري. هذا غير مهم. المهم أنني قلت تفضل يا سيد وأنه دخل.

توقعت رؤيته في زي مدني، ولكنه كان يرتدي الزي العسكري. يمكنني القول إنه لم يكن قد بدا بمظهر عسكريّ أكثر من هذه المرة فقد بدا لي واضحاً أنه قصد أن يفرض علينا رؤية اللباس العسكري. أسند الباب إلى الجدار وظلّ واقفاً في الفتحة، منتصب القامة وقاسياً بحيث راودني شك في كوني أمام ذات الرجل الذي وجدته في اللقاء الأول شبيهاً إلى حدٍ مذهلٍ بالممثل لوي جوفيه.

ظل هكذا عدة ثوان منتصباً، مشدوداً وصامتاً، القدمان متباعدتان قليلاً واليدان مرخيتان على امتداد الجسد، والوجه بارد وجامد القسمات؛ بحيث بدا لي أن كل المشاعر هجرته. كنت جالساً على أريكتي الطرية ووجهي عند مستوى يده اليسرى. كنت أرى تلك اليد، انجذبت عيناي إلى تلك اليد وظلّتا عالقتين بها بسبب مظهرها المعبّر الذي يكذب ظاهر تصرفات الرجل..

أدركت عندها أن اليد يمكن أن تفصح للمراقب، مثلها مثل الوجه، عمّا يعتمل من انفعالات فهي تفلت من سيطرة الإرادة. تتقلص الأصابع وتسترخي، تتشابك مظهرة بدقة ما يجول في السريرة في حين يبقى الوجه وسائر الجسد جامدين بتصنع.

ثم بدا أن الحياة دبت مجدداً في العينين اللتين توقفتا عندي للحظة،

راودنـــي شعور أن عين صقر تراقبني، عينان برّاقتان بين أجفان متشنجة، أجفـــان متجعدة وجافة تنم أن صاحبها عانى الأرق. انتقلت العينان نحو ابنة أختي واستقرتا هناك. وجمدت اليد.. الأصابع كلها مثنية ومتقلصة، انفرجت الشـــفتان وأصدرتا صوتاً مماثلاً لصوت نزع فلينة تسد زجاجة فارغة، قال الضابط بصوت أجوف أكثر من المعتاد:

-عليّ أن أقول لكم عبارات خطيرة.

كانـــت ابـــنة أختي في مواجهته لكنها أرخت رأسها. كانت تلف حول أصـــابعها خـــيط كـــرة صوف صارت تتدحرج على السجادة. كان ذاك هو العمل الوحيد الملائم لحالتها والذي يوفر عليها الإحراج.

استأنف الضابط حديثه وكان الجهد المبذول واضحاً كما لو كان حديثه سيكلفه حياته:

"كـــل مـــا قلـــته خـــلال هذه الشهور الستة، كل ما سمعته جدران هذه الغـــرفة.." أخذ نفساً بجهد مثل مصاب بالربو، وحبسه للحظة نافخاً صدره.. "يجب".. وزفر قائلاً: "يجب نسيانه".

تركت الفتاة يديها تسقطان ببطء في وهدة ثوبها حيث استقرتا خامدتين مـــثل جذعيـــن على الرمال، رفعت رأسها ببطء وللمرة الأولى، أجل للمرة الأولى قدمت للضابط نظرة من عينيها الشاحبتين.

قـــال بصـــوت بالكاد سمعته وبلغته الألمانية: يا له من نور، لم يكن ما قالـــه همساً كما لو أن عينيه لم تقدر حقيقة على تحمل ذاك النور، فسترهما بقبضـــته لثانيتين ثم ترك قبضته تسقط بعد أن أسدل جفنيه وصار دوره هو أن يرخي بصره إلى الأرض..

انفرجـــت شـــفتاه عن صوت غريب: رأيت أولئك الرجال المنتصرين. واســـتأنف بعد ثوان بصوت أشد خفوتاً: حادثتهم، وأردف هامساً بمرارة لقد سخروا مني. رفع نظره إليّ وهزّ رأسه مرات ثلاث، ثم أسدل الجفنين:

-قالوا: "ألم تدرك أننا نخدعهم؟" قالوا هذا بالحرف. وقالوا: "هل كنت تتوقع منا أن نتصرف بغباء ونترك فرنسا تنهض مجدداً عند حدودنا؟ لا؟" ضحكوا ملء الأشداق. ربتوا بفرح على ظهري محدقين في وجهي وقالوا لسنا موسيقيين!

عند هذه الكلمات أفصح صوته عن احتقار لست أدري إن كان يعكس مشاعره الحقيقية تجاه أولئك الرجال أم تجاه أقوالهم.

تكلمت مطولاً، بكثير من الانفعال. لم يعجبهم حديثي، قالوا: "السياسة ليست حلم شاعر. ولماذا برأيك شننا الحرب؟ من أجل عيني مارشالهم العجوز؟([1]) ضحكوا من جديد، وقالوا: لسنا مجانين ولا سذجاً. في يدنا فرصة لتدمير فرنسا ولن نضيعها. لن نكتفي بتدمير قوتها بل روحها. روحها في المقام الأول. روحها مصدر الخطر الأكبر. هذا ما نفعله حالياً فلا تخدع نفسك يا عزيزي! سنقضي عليها بابتساماتنا وبأساليبنا وسنجعل منها كلباً مطيعاً".

صمت. وبدا أنه فقد أنفاسه. أطبق فكيه بقوة شدت وجنتيه وأبانت وريداً سميكاً وملتوياً مثل دودة صار ينبض بقوة تحت صدغيه.

وفجأة انتفضت قسمات وجهه كما لو هزّها زلزال، مثل بحيرة ساكنة ألقي فيها حجر، ومثل طبقة قشدة تتشكل على سطح حليب بعد غليه. تعلّقت عيناه بعيني ابنة أختي الشاحبتين والمتسعتين؛ وقال بصوت خافت رتيب وكثيف ومختنق، وببطء من يعاني: ليس هناك من أمل. وأردف بصوت أخفت وأبطأ كما لو أنه يعذب نفسه بهذا الإقرار الذي لا يمكن تحمله: "لا أمل.. لا أمل" وفجأة صاح بصوت قوي فاجأني وضوحه ونبرته كما لو كان صوت بوق: ليس هناك أمل.

([1])-تلميح إلى المارشال بيتان بطل الحرب الأولى والذي قاد حكومة "فيشي" التي تعاونت مع الحكم النازي إثر الهزيمة.

تلا ذلك صمت.

خـيّل لي سماعه يضحك. جبينه المعقود والمتغضن يشبه حبلاً ثخيناً. شفتاه مضطربتان مثل شفاه عليل، محمومة وشاحبة.

–لامونـي بشيء من الغضب، قالوا: "ترى جيداً! أنت ترى مدى حبك لهـا! لكننا سنشـفي أوروبا من هذا الطاعون! سنطهرها من هذا السم!". شـرحوا لـي.. لم يتركوا شيئاً لم يقولوه. هم يمدحون كتابكم لكن في ذات الوقـت أقاموا سداً بينهم وبين بلجيكا وهولندا. لم يعد من الممكن مرور أي كـتاب فرنسي باستثناء الكتب التقنية مثل كتب الفيزياء أو معادلات استخدام الإسـمنت.. أمـا مؤلفات الثقافة العامة فلا! طارت نظرته من فوق رأسي واصطدمت بركن الغرفة مثل طائر ليلي تائه. وبدا أخيراً أن نظراته وجدت ملجأ فوق الرفوف المعتمة حيث يرتاح راسين ورونسار وروسو([1]).

ظلت عيناه عالقتين هناك وعاد صوته باضطراب عنيف:

–"لا شـيء، لا شيء، لا أحداً". وكما لو كنا لم نعِ بعد جسامة التهديد: "لا يقتصـر الأمـر علـى كـتابكم المعاصـرين مـثل: بيغـي وبروست وبرغسون([2]).. بل يشمل كل الآخرين! كلهم! كلهم! كلهم!".

مـرت نظراته مجدداً، مثل لمسة يائسة، على الكتب التي تلمع بنعومة في العتمة.

–سـيطفئون الشعلة! صرخ. ستحرم أوروبا هذا النور. اخترق صوته الأجـوف الحاد أعماق صدري، تلك الصرخة غير المتوقعة والأخاذة والتي

---

(1)– Ronsar أحد أهم شعراء النهضة.
Racine
Rousseau جان جاك روسو: م، أهم الفلاسفة الفرنسيين.

(2)– Peguy شارل بيغي ناقد أدبي وناشط سياسي سلمي النزعة.
Proust أديب فرنسي صاحب البحث عن الزمن المفقود.
Bergson فيلسوف.

تردد مقطعها أخيراً بشكوى مرتعشة: - ليس بعد الآن([1]).

خـيم الصمت مجدداً. لكنه كان أشد حلكة ومشدوداً". أنا واثق أن تحت غياهـب فـترات الصمت السابقة، المشابهة في هدوئها سطح المياه؛ حيث تضج الكائنات المائية حياة وحركة، تصارعت مشاعر دفينة متعارضة. لكن هذه المرة لم يكن هناك وراء الصمت سوى شعور بقهر مريع..

كسر صوته جليد الصمت، كان ناعماً وتعيساً:

لـدي صـديق، كـان مـثل أخي. درسنا سوية. سكنّا ذات الغرفة في شتوتغارت([2]) قضينا معاً ثلاثة شهور في نورنبرغ.

لم يكن واحدنا يأتي بأي عمل بدون رفقة الآخر. كنت أعزف الموسيقى في حضرته وكان يتلو عليّ قصائده.

كان حساساً ورومانسياً لكنه تركني. ذهب ينشد قصائده في ميونيخ في حضرة رفقة جديدة. هو من يكتب لي دون توقف لألتحق به. هو من التقيت في باريس مع أصدقائه. شاهدت ما الذي فعلوه به.

هـزّ رأسه ببطء كما لو كان يرفض بألم بعض التوسّل. كان أسعرهم، كـان يخلـط بين الغضب والضحك. كان ينظر إليّ حيناً بحدة ويصيح: "إنه سم. يجب استنزاف سم الحيوان".

وكـان في حين آخر يربت على معدتي برأس سبابته: "إنهم مذعورون الآن يخشـون علـى جـيوبهم وعلى بطونهم يخافون على صناعتهم وعلى تجارتهم. لا يفكرون إلاّ في هذا.. سيكون الأمر سهلاً.

كان يضحك حتى يتورد وجهه: "سنقايض على روحهم بطبق عدس".

أخذ "فرنر" نفساً:

(1)- Nevermore.

(2)- مدينة ألمانية.

-قلــت له هل تدركون أبعاد أفعالكم؟ هل درستموها؟ قال لي هل تظن أن هــذا سيردعنا؟ إن ذكاءنا من معدن آخر. فقلت إذن ستردمون هذا القبر إلى الأبد؟

-أجاب: إنها الحياة أو الموت. القوة تكفي لتحقيق النصر لكنها لا تكفي لفرض السيطرة. ندرك تماماً أن الجيش لا يفيد شيئاً في فرض السيطرة".

-صحت قائلاً: لكن هذا على حساب الروح، لا يجوز أن يكون هذا هو الثمن.

ردَّ بقولــــه أن الروح لا تموت أبداً، لقد شاهد حالات مماثلة، فالروح تبعــث مـــن أنقاضـــها. يجب أن نبني لألف سنة قادمة ولهذا يجب أن نبدأ بالهدم.

كنـــت أنظــر إلى أغوار عينيه الفاتحتين. كان صادقاً، أجل، كان هذا أرهــب ما في الأمر. انفرجت عيناه على مداهما كما لو كانتا تشهدان حادثة قتل مفزعة وقال:

ســينفذون أقوالهــم، قال هذا صارخاً كما لو كنا لم نصدقه.. سيقومون بذلك بمنهجية وتصميم. أعرف هؤلاء الشياطين المسعورين".

هــزَّ رأسه مثل كلب تؤلمه أذنه. أفلتت همسة من بين أسنانه المنطبقة فيها تأوه العاشق المخدوع. لم يتحرك. ظلَّ ثابتاً، متصلباً ومنتصباً في فتحة الباب. اليدان مرخيتان كما لو كانتا اضطرتا لحمل كفين في ثقل الرصاص، وكـــان شاحباً بلون الجص على جدران متداعية، لون رمادي تشوبه بقع أشد بياضـــاً. رأيـــته يحني جذعه ببطء، ورفع يدا باطنها إلى الأسفل وأصابعها منثنـــية قلـــيلاً، وأشار بها إلى ابنة أختي ونحوي أنا. شدّها ثم حركها قليلاً وكانت قسمات وجهه تتقلص بطاقة عنيفة. انفرجت شفتاه وظننت أنه سيوجه إلينا عبارات تشجيع.

ظننت أنه سيحدثنا على التمرد لكن لم تنفرج شفتاه عن أية كلمة. أغلق

فمــه وأســدل عينــيه من جديد. نهض وارتفعت يداه على طول جسمه إلى مستوى الوجه بحركة غير مفهومة تشبه حركات بعض الرقصات الدينية في جزيــرة جــاوا، ثــم أمســك بصدغيه وجبينه وسحق جفنيه تحت الأصابع الممتدة.

-قــالوا لــي: "هذا حقنا وواجبنا" واجبنا! يا لسعادة من يجد بهذه الثقة درب واجبه!

سقطت ذراعاه من جديد.

-عــند المــنعطفات يُقال لنا: "خذوا هذا الطريق!" هزّ رأسه. "إنما هذه الطــريق لا يــبدو أنها توصل إلى القمم العالية المنيرة بل هي تقود إلى وادٍ حزين وتغوص في ظلمات غابة كئيبة! يا ربي أرني أين هو واجبي!".

قــال بشــيء من الصراخ: إنها المعركة المعركَة الكبرى بين الزمني والروحي! كان ينظر بثبات يدعو للشفقة إلى الملاك الخشبي المنحوت فوق النافذة، ذلك الملاك الفرح والمبتسم المشع بهدوء سماوي.

فجــأة بــدا أن قســماته تنفرج. استرخى الجسد ومال وجهه قليلاً نحو الأرض ثم رفعه:

"طالبــت بحقوقــي وطلبت الالتحاق بفرقة في الجبهة وجرت الموافقة وســمح لــي بالمغادرة غداً. خيّل إليّ رؤية شبح ابتسامة على شفتيه عندما أردف قــائلاً المغادرة إلى الجحيم وأشارت يده نحو الشرق إلى تلك السهول الواسعة حيث سيتغذى قمح المواسم القادمة من جثث الموتى([1]).

وجــال فــي فكــري: "أخــيراً إنه يخضع. هذا كل ما يحسنون فعله، يخضعون جميعهم! حتى هذا الرجل".

شــعرت بــالألم لمرأى قسمات وجه ابنة أختي. كان شاحباً مثل القمر

([1])-إشارة إلى الجبهة الروسية حيث كانت الحرب على أشدها.

والشـفتان ببـياض إناء من الأوبلين وكانتا متباعدتين كما نرى على الأقنعة اليونانية المأساوية. ورأيت عند ملتقى الشعر بالجبين لمعان لآلئ العرق.

لا أدري إن كـان "فرنر فون ايبرناك" قد رأى ذلك، فعيناه مشدودتان إلى عينـيّ الفـتاة الشـابة، مثل قارب مثبت إليّ الضفة، يسحبه تيار النهر والحبل مشدود لأقصاه، حتى أن المرء لا يجرؤ على تمرير إصبع بين تلك الأعين.

أمسـك "ايـبرناك" قبضة الباب بإحدى يديه واستند بالأخرى إلى إطار الـباب، لـم يدع بصره يحيد قيد أنملة وجذب الباب نحوه ببطء، كان صوته خاوياً من أي تعبير إلى حد غريب:

أتمنى لكما ليلة هنيئة.

ظننت أنه سيغلق الباب ويمضي. لكن ذلك لم يحدث كان ينظر إلى ابنة أختي. كان ينظر إليها وقال همساً: الوداع.

لـم يـتحرك. ظلّ بلا حراك، وفي وجهه الجامد والمتوتر عينان أشد جمـوداً وتوتراً، عالقتان بعيني ابنة أختيَ المشدوهتين والشاحبتين. دام ذلك ودام، كـم طـال الأمـر؟ إلى أن حركت الشابة شفاهها. لمعت عيناً "فرنر" وسمعت صوتها يقول الوداع. ترقبت هذه الكلمة وسمعتها.

وأخيراً؛ سمعتها. سمعها "فون ايبرناك" بدوره وشد قامته وبدا أن وجهه وكل جسده قد استرخيا مثلما يحدث أثر حمام ساخن.

ابتسـم بحيث أن آخر صورة رأيته عليها كانت صورة شخص مبتسم. أغلق الباب وغابت خطواته في أعماق المنزل.

كـان قـد رحل عندما نزلت في الصباح التالي لأشرب كوب الحليب الصـباحي. كانـت ابـنة أختـي حضرت الإفطار مثل كل يوم. قدمته لي بصـمت. شـربنا بصـمت. في الخارج وعبر حجب الضباب لمعت شمس شاحبة. وبدا لي أن الطقس شديد البرودة.

تشرين الأول 1941

ذاك اليوم

دس الصبي الصغير يده في يد والده، لم يعجب لذلك. مع أنه مضى زمن طويل لم يخرجا فيه. عبرا الحديقة.

وضعت "ماما" حوض الجيرانيوم قرب نافذة المطبخ كعادتها في كل مرة يغادر فيها "بابا" البيت.. أمر غريب!

الطقس جميل، ثمة غيوم مبعثرة عديمة الشكل لا يشعر المرء برغبة في النظر إليها. راقب الصبي الصغير مقدمة حذائه الصغير تطرد حصى الدرب، لم يعلق بابا بكلمة، بابا يغضب عادة عند سماع صوت الحصى ويقول: "ارفع قدميك"! وكان الصبي الصغير يرفع قدميه لوهلة ثم يعود خلسة إلى جر قدميه بنوع من التعمد دون أن يدرك السبب. لكن بابا لم يقل شيئاً هذه المرة. كف الصبي عن جر نعليه، تابع التحديق في الدرب، أقلقه امتناع بابا عن توبيخه.

تتعرج الدرب بين أشجار تعرى معظمها. ثمة أشجار مخضرة قليلاً، اكتست أوراقاً صغيرة يانعة الخضرة يتساءل المرء إن لم تكن حلوة المذاق. بعد مسافة تنعطف الدرب ويرى المرء المدى مفتوحاً من على صخرة ضخمة ذات منحدر شاقولي تطل على وادي "غريزيفودان"([1])، ويرى المرء في الأسفل أشجاراً بالغة الصغر والبيوت الضئيلة وطرقات مثل الخدوش ونهر إيزير يتلوى متدثراً بضباب خفيف.

في العادة نتوقف لنتفرج. كان بابا يقول: "انظر إلى ذلك القطار" أو "هل ترى تلك البقعة السوداء التي تتحرك هناك على الطريق؟ إنها عربة، ثمة أشخاص داخلها، هم أربعة، سيدة وكلب صغير، وسيد ذو لحية كثة".

---

(1)- Gresivaudan وادي نهر الإيزير، منطقة زراعية غنية بزراعات متنوعة.

كان الصبي الصغير يقول "كيف تقدر أن تراهم"؟

زرعت منظاراً صغيراً في عيني اليسرى، تعرف هذا، انظر..

يقول هذا وهو يباعد أجفانه، ألا تراه؟

وبمــا أنــه لم يكن واثقاً من صحة الأمر كان يقول حسناً ولكن لا أراه بوضوح.

ربما ضحك بابا وقتها وحمله على كتفيه وتدلت ساقاه على الجانبين.

لكن بابا راقب، وهو واجم، الأفق الواسع ولم يتوقف.

احــتفظ بحــزم براحة الصبي الصغير في يده، وبعد مسافة عندما بلغا المكــان حيث حافة الدرب تصعد وتنزل لم يقدر الصبي الصغير أن يتملص من قبضة أبيه ليتسلق المنحدر الصغير ويقول: "انظر.. أنا أكبر منك، والآن هاأنا أصغر.. أصغر".

أضجره الوضع نوعاً ما فهو شديد التعلق بالطقوس.

كانت نزهة مختلفة عن سابقاتها.

علــى مسافة قصيرة صخرة مربعة نجلس عليها في العادة. تساءل إن كانــا سيجلسان عليها هذه المرة.. الصخرة تقترب ويتساءل الصبي إن كانا سيجلسان عليها.

انتابــته مخاوف، خشي ألاَّ يجلسا. شيء من خوف، خوف حقيقي، شد بلطف على يد أبيه لدى محاذاتهما الصخرة.

لحســن الحــظ تجاوب بابا وجلسا. لم يقولا شيئاً، في أغلب الأحيان لا يقول بابا شيئاً لدى جلوسهما على الصخرة.

أحــياناً (عندما يكون الجو حاراً) يقول هذا منعش.. الطقس اليوم ليس بالحــار. الأمــر الوحيد غير الاعتيادي كان. أن بابا لم يفلت اليد الصغيرة. عادة يفلت بابا هنا يد الصبي الصغير الذي لا يهوى الجلوس طويلاً.

يتسلق الصبي ويمضي نحو الأشجار باحثاً تحتها عن أكواز صنوبر أو عن الفراولة التي قد يصادف أحياناً أن يعثر على بعض منها.

ظلاً جالسين ولم يأت الصبي بحركة حتى أنه حرص على عدم أرجحة ساقيه لماذا؟ لم يدر.

هـل كـان ذلك لأن أباه يمسك يده بتلك الطريقة؟ لم يشأ أن يفكر في أكـواز الصنوبر أو الفراولة ولم يكن ليقدر على ذلك. من ناحية أخرى كان واثقاً من عدم وجود الفراولة أما أكواز الصنوبر فليست بذات بال.

عاودتـه المخاوف بسبب امتناعه عن الحركة، لم تكن مخاوف شديدة، قلـيل من الخوف كما هو الحال عندما يكون راقداً ويسمع في الظلمة صوت تحطم شيء ما ولكن يسمع معه صوت ماما وبابا يتحدثان في غرفتهما.

سـر لأن بابا يمسك يده فهذا يطرد الخوف لكنه في الواقع خائف لأن بابا ممسك بيده.. عندها وللمرة الأولى خلال النزهات تمنى الصبي الصغير العودة إلى البيت.

نهـض الوالد كما لو أنه سمعه ونهض الصبي الصغير متسائلاً إن كانا سـيعودان إلى البيت أم سيمضيان مثل المرات الأخرى إلى الجسر الصغير علـى نهـر Grisone، لـم يـدرك أي الأمرين يفضل. مضيا إلى الجسر الصغير، هذا أفضل.

من فوق الجسر راقبا السيل، الذي يسميه بابا الجدول، ينساب مخرخراً فوق الحجارة التي تشبه حبوب ملبس كبيرة.

ذات يـوم جلـب له بابا كيساً مملوءاً حجارة صغيرة مثل هذه، كانت حلوى.

مضـى على هذا زمن طويل، حدث هذا قبل عيد الميلاد. لم يعد يذكر بدقة، على كل حال لم يحصل على حلوى منذ ذاك الحين.

كان شديد الولع بمراقبة السيل، يمكن القول إن هذا يسعد عينيه بقدر ما أسعدت الحلوى لسانه.

قـال بابـا: مضـى زمن بعيد جداً، وهذا الماء يجري.. وجد الصبي الصـغير الأمـر مضحكاً، من المؤكد أن الماء يجري منذ زمن بعيد، كأن يجـري في أول مرة، زد على ذلك أنه ما كان الجسر ليبنى لو لم يكن هناك ماء.

-وعـندما سيأتي ولدك الصغير وتكون لك لحية بيضاء طويلة سيتابع المـاء جريانه. لن يتوقف أبداً، قال بابا هذا وهو ينظر إلى الماء. إنها فكرة تبعـث الـراحة، تـابع بابـا، لكن من الجليّ أنها مريحة له هو لا للصبي الصغير.

ظـلاً زمـناً طويلاً، زمناً بالغ الطول، ينظران إلى الماء وأخيراً قفلا راجعين، سلكا طريق القنفذ، سمياها هكذا منذ أن عثرا فيها على قنفذ.

الـدرب صاعدة شيئاً ما. مرا أمام نبع الخشب، النبع الذي ينساب ماؤه إلى حوض هو جذع سنديانة عجوز، ينساب فيه ماء رقراق ذو خرير رائع يجعلك تحس بالعطش لرؤيته.

لكن الجو لم يكن حاراً. عند القمة تلف الدرب قليلاً لتنحدر عند الجانب الآخر للهضبة. هناك في الأعلى نرى الدار، نراها بجلاء. نافذة المطبخ هي أوضح ما سنراه وسنرى حوض الجيرانيوم بخضرته واللون البرتقالي يلمع تحت أشعة الشمس وماما من خلفه. لم نرَ الحوض.

يبدو أن بابا تعب لأنه جلس قبل بلوغنا القمة. عادة لم نكن نجلس على هذا الجذع. جلس وجذب صبيه الصغير وأحاطه بركبتيه وقال: ألست تعباً؟

-لا، قال الصبي الصغير.

ابتسم بابا، كانت ابتسامة مفتعلة، داعب شعر الصبي الصغير ووجنته، أخذ نفساً عميقاً وقال:

يجـب أن تكون عاقلاً، عاقلاً تماماً مع أمك.. هزَّ الصبي رأسه لكنه لم يـدر مـا عساه يقول: "صبي صغير مطيع"، تابع الوالد ثم أمسكه من تحت إبطيه ورفعه حتى حاذى وجهه وقبله على وجنتيه.

أنزله أرضاً، وقال بصوت حازم: "هيَّا بنا" واستأنفا مسيرتهما.

بلغـا القمة وشاهدا سور الحديقة والصنوبر تين، ونافذة المطبخ. اختفى حوض الجيرانيوم.

لاحظ الصبي الصغير اختفاء الحوض من نافذة المطبخ. من المؤكد أن بابا لاحظ الأمر لأنه وقف وشد على يد الصغير أقوى من أي وقت مضى؛ ثم قال: "قضي الأمر راودني شعور بهذا".

ظـلَّ سـاكناً ينظر وينظر متمتماً: "يا رب كيف طاوعتني نفسي.. مع أنني كنت أعرف، كنت أعرف".

ودَّ الصبي الصغير أن يسأل عن الأمر الذي عرفه بابا ولكنه لم يستطع لأن بابـا شدَّ بقوة على يده، وبدأ يحس بألم في قلبه([1]). كما جرى معه يوم أكل طحينة الكستناء.

عـندها قـال بابـا: "تعال"، وبدلاً من الانحدار قفلا عائدين بخطوات سـريعة. إلـى أين نمضي يا بابا؟ أين سنذهب؟ قال الصبي الصغير والألم يعتصره: مثلما كان حاله يوم طحينة الكستناء.

إلـى بيـت السـيدة "بوفيراند" قال بابا. كان صوته غريباً مثل صوت ساعي البريد يوم دهمته سيارة أوقعته عن دراجته.

"هي بالغة اللطف، أردف بابا: "تعرفها، أنت ستنام عندها".

رغـب الصبي أن يسأل عن السبب لكن بابا كان يشد بقوة على يده لذا لم يستطع أن يسأل. اشتدَّ الألم في قلبه حتى أنه ود الارتماء أرضاً مثل يوم

(1)-من عادة الأطفال قول ألم في القلب بدلاً من ألم في البطن.

طحينة الكستناء لكن بابا كان يشدُّ بقوة على يده ويجد في السير.

يحــس الآن ألماً في قلبه، ليس في القلب وحسب بل في القلب في كل مكان.. في البطن، في الساقين إن لم يكن من الحمق القول أنه يحس ألم قلبه في ساقيه.

عــندما رأتهما السيدة "بوفيراند" الهرمة ومتغضنة الوجه صالبت يديها فوق صدرها وقالت: "يا ربي"!!

قال بابا: "أجلٍ قضي الأمر" ثم دخلا الدار. في الردهة الصغيرة العبقة برائحة القرنفل كفّ الصبي عن مقاومة تعبه ونام على السجادة.

لم يعد يسمع بوضوح ما يقال. الظلام حالك بحيث يعجز عن السمع.

تكلمت السيدة بصوت منكسر جاءه كما الحلم. رفع بابا الصبي الصغير وحملــه إلى سرير. مسّد شعره طويلاً ثم قبله بقوة أقوى وأطول من عادته في المساء.

أعطته السيدة "بوفيراند" حقيبة. عانقها ومضى.

جــاءت الســيدة "بوفيراند" لتعنى بالصبي الصغير، وضعت على رأسه منديلاً مبللاً وأعدت له شراب البابونج. لاحظ أنها تبكي وتمسح دموعها فور انسيابها لكن بكاءها كان واضحاً.

فـــي الـــيوم التالـــي؛ كان يلعب بالمكعبات، عندما سمع صوت السيدة "بوفـــيراند" في غرفة الطعام. يفترض بالمكعبات عند جمعها تشكيل صورة سيد يرتدي ياقة وقبعة لها ريشة. ما يزال ينقصه العين والقبعة.

نهــض الصبي الصغير ووضع أذنه على ثقب المفتاح الذي كان على مستوى رأسه إن هو وقف على رؤوس أصابعه.

لم يسمع بوضوح لأن السيدات لم يتكلمن بصوت عال، بل كن يهمسن. تكلمــت السيدة "بوفيراند" عن المحطة، قالت: "أجل؛ هو بدوره سعى لرؤية

امرأته في إحدى المقصورات وعندها تعرفوا عليه.

أيُها الرّبُ العظيم، علّقت سيدة أخرى، لم يقدر أن يتمالك نفسه.. لا، لم يقـدر، قالت السيدة "بوفيراند" ومن كان يقدر؟ كان طوال الوقت يردد: "إنها غلطتي، إنها غلطتي!".

ثم تحدثوا عنه هو، الصبي الصغير.

لحسـن الحظ أن السيدة "بوفيراند كانت هنا، قالت سيدة. تمتمت السيدة "بوفـيراند" بكلمـات لكن شيئاً ما بلل عبارتها، ولم يكن من الممكن فهم ما قالته.

رجـع الصـبي الصغير إلى مكعباته. جلس أرضاً وبحث عن مكعب العين. بكى بصمت، انسابت دموع لم يقدر أن يكبحها.

وجد مكعب العين ووضعه مكانه. القبعة كانت أسهل. تنهد محاولاً عدم إحداث صوت. انحدرت دمعة حتى زاوية فمه التقطها بلسانه، كانت مالحة.

الريشـة أصـعب ما في الأمر. من الصعب معرفة اتجاهها الصحيح. سقطت دمعة على الريشة، انزلقت، ترددت، ظلت معلقة مثل قطرة ندى.

□□□

من "قصص ايفان سوداريف"

أقاصيص عن المقاومة

ألكسي تولستوي

■ ترجمة : عدنان جاموس ■

عن الروسية

تعريف بالكاتب:

ألكسي نيكولا يفتش تولستوي 1882 /1883 -1945 من كبار الكتاب السوفييت الروس الرواد. كتب الرواية والقصة والأقصوصة والمسرحية والمقالة النقدية الأدبية والفنية والثقافية العامة.

ولد في أسرة من فئة النبلاء لأب "كونت" من مُلاّك الأراضي وأم أديبة تكتب للأطفال. عمل إبان الحرب العالمية الأولى مراسلاً حربياً وزار بهذه الصفة في العام 1916 إنكلترا وفرنسا. وعند قيام ثورة أكتوبر في العام 1917 انحاز إلى صفوف معارضيها وغادر روسيا إلى أكرانيا في العام 1918، ثم هاجر إلى باريس (1919) وانتقل منها إلى برلين (1921) حيث التقى مكسيم غوركي وصادقه.

ولم يلبث الخلاف أن دب بينه وبين زمر المهاجرين الروس، وتغيرت نظرته إلى الثورة في روسيا، وعاد مع أسرته الصغيرة إلى الوطن في العام 1923 ليناصر النظام الجديد ويشارك في بناء الوطن.

تأثـر فـي أولى تجاربه الإبداعية بكتابات الشعراء الرمزيين ثم غلب على أسـلوبه تأثـره بمذهـب "الواقعية الاشتراكية". وقد أصدر العديد من المجموعات القصصـية والـروايات والمسرحيات من أشهرها: مجموعة قصصية بعنوان "ما وراء الفولغـا" (1911) ومجموعـة أخـرى بعنوان "تحت الزيزفونات القديمة" (1923)، وروايـتا "غريـبو الأطـوار" (1911) و"السـيد الأعرج" (1912)، ومسرحيات "الغاصبون" (1912) و"السنونو" (1916) و"الظلاميون" (1917).

وكتب في أوربا قصته الرائعة "طفولة نيكيتا" (1919 –1920) التي يستعيد فيها ذكريات طفولته في الوطن بشاعرية آسرة.

وهو من أشهر كتاب رواية الخيال العلمي في روسيا (روايتا: "آيليتا" 1922 –1923، و"هيـبر بولويـد المهندس غارين (1925)، كما اشتهر بكتابة الرواية التاريخية (رواية "بطرس الأول" الجزء الأول 1929 –1930 والثاني 1933 – 1934 والثالـث الـذي لـم يكتمل 1944 –1945؛ ورواية "إيفان الرهيب" في جزأين 1942 –1943)، وكتب قصصاً للأطفال من أشهرها "المفتاح الذهبي أو مغامرات بوراتينو" (1936).

أما قمة إبداعه فتتمثل في ثلاثيته "درب الآلام" (1- "الشقيقتان" 1925، 2- "العـام الثامن عشر" 1927 –1928، 3- "صباح غائم" 1940 –1941) وهي ملحمـة تتحدث عن الوطن المضيّع والمستعاد وطريق المثقفين إلى الثورة. ونشر الكاتب في العام 1942 سلسلة من الأقاصيص عن المقاومة عرفت باسم "قصص إيفـان سـوداريف"، ثـم أضاف إليها في العام 1944 أقصوصة بعنوان "الطبع الروسي" وهي آخر أقصوصة كتبها.

وقد كتب أ. تولستوي الأقاصيص الخمس الأولى من هذه السلسلة (التي نقدم فيما يلي ترجمة ثلاث منها) بعد أحاديثه مع طلاب إحدى المدارس العسكرية الذين شـاركوا في الحرب الوطنية (الحرب العالمية الثانية) ورووا للكاتب وقائع حقيقية عن العمليات القتالية على الجبهة وفي مواقع المقاومة التي كان ينشط فيها الأنصار في مؤخرة العدو.

وقد ذكر الكاتب بعض من شاركوا في هذه الأحاديث بأسمائهم الحقيقية، واستفاد من مذكراتهم التي كتبها بعضهم على شكل يوميات منذ بدء الحرب وحتى شباط 1942.

***

كيف كانت البداية

كان جذع البتولا يتكسر كالزجاج تحت ضربات الفأس. يوم رائع من أيام كانون الثاني؛ دخان هادئ يرتفع فوق السطح المغطى بالثلج ويذوب في السماء الفيروزية التي توشّت حوافها بشعاع لطيف يوحي بأن من المستحيل أن يكون هناك مثل هذا البرد. كانت الشمس غير العالية تنظر بملء العين إلى شجرة البتولا التي تدلت أغصانها وتلألأت فيها حبات الندى المتجمد.

الإنسان وحده هو الذي يعذب الإنسان هنا. وليت هذه الفأس كانت تهوي وتهوي على رؤوس الألمان هكذا، فتتكسر هذه الرؤوس كالزجاج... مسح فاسيلي فاسيليفتش أنفه بقفازه المغطى بالجليد، وأرخى الفأس ونظر حواليه. ثمة فتىً قصير القامة يعتمر قبعة من الفرو تغطي الأذنين كان قادماً من جهة القرية في طريق خلفت فيه الزحافات أثراً ضارباً إلى الزرقة. لم يكن الفتى يسير بل كان ينزلق انزلاقاً وقد فك أزرار فروته القصيرة وراح يلّوح بيديه ليساعده ذلك على الانزلاق بسهولة.

عند السياج غمره الثلج حتى الحزام، وما لبث أن تسلق السياج وتجاوزه إلى داخل الفناء ونزع قبعته دون أن يلقي التحية فتصاعد البخار من رأسه الحليق، وتناول من داخل القبعة ورقة يضرب لونها إلى الزرقة. قال وهو يختطف الفأس ويهوي بها وهو يزفر على الجذع الكثير الفروع كي يتخلص من فيض التهيج:

-ألقوا بهذه الأوراق من الطائرة!

كــان هــذا الفتى هو أندريه يودينكوف. وقد أنهى دراسته الثانوية ذاك الربــيع فــي مدينة يلنيا، وكان فاسيلي فاسيليفتش هو مدير مدرسته، وقد بدأ الفــتى يستعد لتقديم امتحانات القبول في الجامعة، ولكنه استدعي إلى الخدمة العســكرية ووقــع فــي الأسر في تلك المعارك المشؤومة التي جرت قرب مدينة فيازما. وفي ذاك الوقت كانت ما تزال حية تلك المفاهيم التي تجاوزها الزمــن حول كيفية التصرف في الحرب: إذا حوصرت فقد خسرت وعليك أن ترمــي ســلاحك. ولم يكن الطبع الألماني آنذاك قد عُرف على حقيقته: فالألمانــي ظاهــرياً صلب كالصخر، ولكنه في الحقيقة هستيري وهش إذا ضربته بقوة وحزم. ولكن للعلم ضريبته.

وقــد دفع أندريه يودينكوف الضريبة المفروضة. فقد ساقوه مع أسرى آخريــن إلــى مستنقع مسور بالأسلاك حيث وقفوا جميعاً تحت المطر وبلا طعام في وحل مائع يصل حتى الركب طوال أربعة أيام. بعضهم لم يصمد؛ انهاروا وغرقوا. وفي اليوم الخامس ساقوا الناس المنهكين إلى الغرب. وفي الطــريق انهار كثيرون أيضاً، وكانت تُسمع طلقات في أثناء ذلك ولا يلتفت إليها أحد.

وعــندما مرّوا عبر القرية راحت أعين النساء الروسيات الشفوقة تنظر إلى حشد الأسرى الكئيب من كل جانب:

مــن وراء الأسيجة، ومن خلف الأبواب المواربة، وعبر زجاج النوافذ الصــغيرة، وكن يمددن أيديهن إليهم بالخبز أو بقطعة فطيرة، وبعضهن كن ينــتظرن إلى أن يمر الخفير المرافق المتجهم الذي يسند رشاشه إلى عنقه، ويخرجن من تحت مناديلهن وعاء فخارياً: "اشربوا حليباً يا أحبائي".

وكــان بعض هؤلاء الأسرى الذين ألقوا سلاحهم متخاذلين بسبب عدم قدرتهم على التفكير السليم يحسون الآن بالخجل، ويمنعهم الحنق من ازدراد قطعــة الخبز التي تقدم لهم. ولكن العديد من الأسرى الأكثر صلابة، بدؤوا

يفــرون في أوقات الغسق عندما يبدأ الخفراء المرافقون يسوقون الناس إلى داخــل العــنابر. وهــذا ما فعله أندريه يودينكوف عندما تأخر بحجة قضاء حاجــة، واندفــع مــن خلف ظهر الخفير إلى داخل دغل من أشجار التنوب الصــغيرة وزحــف طويلاً وسط الطلقات النارية، واستمر في سيره متجنباً الطــريق الرئيسة إلى أن وصل إلى قرية "ستاريا بودا". وكما يفعل الفارون الآخــرون دق بــاب دار لا يعرفها وقال: "خذوني صهراً....". كان القانون الألمانــي يــنص على معاقبة من يتستر على أسير حرب بالشنق. خرج من الــدار شــخص أعــرج ذو شفة مشقوقة وشاربين وخطهما الشيب، وأجاب بصوت منخفض: "لا، إننا نخاف، ابتعد يا عزيزي". أما في الدار الثانية فقد قــبلوا بــه وأدخلــوه. خرجت إليه امرأة كهلة كانت تغسّل طفلاً أصلع في طســت. فكرت قليلاً وأجابته: "ولم لا! عندنا صبيّة، وعندنا طفل –ابن ابنتي الكــبرى... لقد فقدت ابنتي، ساقها الألمان إلى الماخور.. ابق عندنا، اعمل ضمن أسرتنا".

كــان في القرية عدة أصهار مثل أندريه، يعيشون مع أسر، ويقتسمون معهــم كســرة الخــبز، ولــم يكن من دافع إلى ذلك سوى الرحمة الروسية العظــيمة. وكــان العمــدة نوسكوف الذي أرسله الألمان إلى هنا من منطقة أخــرى شخصــاً قاسياً ولكنه جبان، ولم يكن يتشدد في التحري عن حقيقة هــؤلاء الأصــهار، كان كل همه أن يتأكد من تسليم السلاح ويستولي باسم القــيادة الألمانــية على الأمتعة الدافئة، والخنانيص والدواجن التي لم تصل إليها أيدي الجنود الألمان.

بدأ أندريه، بعد أن تعرف الظروف المحيطة، يتحدث مع هؤلاء الناس. كلهم كانوا شديدي الحقد على الألمان، ولكنهم كانوا جميعاً يرون أن قضيتنا خاسرة وميؤوس منها. فموسكو قد سلّمت منذ مدة طويلة –هكذا كان رؤساء الــبلديات والعُمَــد يــبلغون السكان، وفلول الجيش الأحمر تقضي نحبها في بعض مناطق الأورال..

رفــع أندريـــه بحـــنق الفأس التي انغرزت في الجذع وهوى بها على الأرض فـــانفلق الجـــذع فـــي الحال)، وأخذ فاسيلي فاسيليفتش يقرأ بعينين متقدتين سطور الورقة الزرقاء التي أبلغته أن الجيش الفاشي الذي يعد مليون شخص قد هُزم على طول الجبهة المسكوفية وتقهقر إلى الخلف تاركاً وراءه دباباتـــه ورحبات مدفعيته وسياراته، وقد غطت جثث جنوده التي لا تُحصى الطـــرقات والأجمات... كان هذا يشبه العفو غير المتوقع بعد صدور الحكم بـــالإعدام... ذهب بصحبة أندريه إلى الدار، وعند الموقد أمسك بكتفي امرأة شمطاء ممتلئة قصيرة القامة، مقصوصة الشعر، وهي ربة الدار التي يعيش عـــندها فـــي القـــرية على أنه ابن أختها، وأدارها نحوه وصاح في وجهها المـــرتعش: -كابيتولينا ايفانوفنا، دعي الكآبة، واصنعي لنا قطائف... هناك أخبار عظيمة... الرب الروسي حي!

تجـــاوز الحاجز وقرأ عند الطاولة، الورقة الزرقاء مرة أخرى بصوت عـــال... خـــبط الطاولـــة براحة يده وقال مقهقهاً: و مَنْ الذي لم يكن يؤمن بروسيا؟ آ! من الذي كان يهم بدفنها؟ لقد نهضت أمنا!

واندفـــع أندريـــه يـــروي كيف سمع قبل قليل دوي طائرة، وكيف هب راكضـــاً إلـــى الفـــناء": -يـــا إلهي، إنها طائرتنا! وكانت الطائرة قد مرت والمناشير تتطاير من خلفها كالحمام...

-ركضـــت خلفهـــا لألـــتقط أحدها والثلج يغمرني حتى بطني والبخار يتصـــاعد مني... إن هذا، يا فاسيلي فاسيليفتش، يغير جوهر الأمور تغييراً جذرياً...

-طبعاً، إنه يغير كل شيء جذرياً! -صاح مدير المدرسة وركض إلى مكـــان ما، ثم عاد ووضع على الطاولة مسدس "بارا بيلوم" مدهوناً بالزيت وكيســـاً مليـــئاً بالطلقـــات -كـــم من الليالي لم يغمض لي فيها جفن؛ كنت

أنــتظر فـيها هــذا المنشــور... لقد فكرت في كل شيء! لنبدأ بأخذ الثأر يا أندريه...

-اثنان فقط ومسدس واحد، وهم: سَريّتان يا فاسيلي فاسيليفتش.

-يجــب أن نبدأ من شيء ما، الإنسان الأول أيضاً فطن إلى أن يمسك بيده حجراً حاداً، فإلامَ آلت الأمور فيما بعد!

-ولكــن الرشاشات لم تكن موجودة آنذاك، لم يكن هناك سوى الفؤوس الحجرية والشجاعة الشخصية...

-ها ها! الشجاعة الشخصية!

قــال هــذا ومد إصبعه النحيل أمام أنف أندريه... لم يشاهد أحد مدير المدرســة في مثل هذه الحالة قبل الآن.. عيناه الصغيرتان كانتا تحفران ما تــنظران إليه كمثقبين، ووجهه النحيل الذي يشبه الكتاب بلحيته المدببة كان يتقد ويكشر، ولا تدري هل هو يضحك ضحكة وحشية أم يتأهب للعض.

-إننا الآن في امتحان، إننا نخوض غمار تجربة تاريخية عظمى...

قال ذلك وكأن أمام إصبعه يجلس ألف أندريه..

-هــل ستســقط روســيا تحــت أقدام الألمان، أم أن الألمان هم الذين سيسقطون؟ لقد نهض أجدادنا من توابيتهم في مقابرنا القديمة ليسمعوا جوابنا عن هذا السؤال. والقرار قرارنا نحن! مقدساتنا الروسية التي فجرها الألمان تُلــوّح لــنا بألسنة النواقيس... أهو ناقوس الخطر؟ هل تحب بوشكين؟ هل تــتألق هذه النجمة في قلبك؟ هل تحمل ثقافتنا الشريفة، الشعبية، الحكيمة في داخلــك؟ كلــنا مذنبون لأننا قليلاً ما رعيناها، وقليلاً ما صُنّاها... الإنسان الروســي مــبذّر... ولكــن لا بأس.. فروسيا عظيمة، ثقيلة، جَلْدة... وهل تعــرف أيــة فضيلة ينطوي عليها الهدوء الروسي؟ وأية رحمة تثوي تحت المنديل القطني الملون، وأي نكران للذات!

بعــد أن أفضى فاسيلي فاسيليفتش بكل هذا أصبحت نظرة عينيه ألطف قلــيلاً، بيــنما غدت عينا أندريه الرماديتان المفتوحتان على سعتهما باردتين وحاقدتين، وتطاول وجهه الفتي ذو الأنف المتحدي.

قــال فاســيلي فاسيليفتش: -الآن ينبغي البدء بشكل محدد من الخطوة الآتية: اليوم ليلاً سنذهب إلى ستاريا بودا!

كــان القمــر المحاط بهالة قزحية شاحبة يلقي بنوره من الأعالي فوق الــثلوج البيضــاء، التــي تستلقي عليها هنا وهناك ظلال ثقيلة من صنوبرة معوّجة ومدخنة موقد ترتفع وحيدة من رماد حريق منطفئ مغطى بالثلج.

كــان فاسيلي فاسيليفتش لا يكاد يلحق بأندريه الذي يسير بهمة والجليد يصر تحت جزمته اللبادية. رفع أندريه يده ووقف.

أمامــه ثمــة كلب يوعوع بصوت منخفض ضجر. انعطفا وسارا فوق الــثلج الطــازج ووصلا إلى القرية من ناحية البيادر وهما يلهثان ووقفا في ظــل عنــبر الغلال. كانت النوافذ الصغيرة في دور الفلاحين تبدو معوجة تحت ضوء القمر، وكان ثمة سيارة شحن في البعيد تنفث وتفرقع، وأصوات تصل متقطعة. أصوات ليست روسية. قال أندريه:

-الألمان جلبوا كونسروة وفودكا.. لننتظر.

عــندما ســاد الهــدوء الشــارع قفز أندريه عبر السياج وقال لفاسيلي فاسيليفتش الذي كان متلبكاً في فروته:

-اتبعني، هيا تشجع...

وجذبه من يده. ثم دقا الباب في الرواق الخارجي وصاح أندريه:

-أيها العمدة... جاء إليك السادة الضباط.

وعندما تناهى إلى سمعهما صرير الألواح الخشبية المغطاة بالصقيع في المدخل قال فاسيلي فاسيليفتش بالألمانية:

-اخرج.. أريد أن أتكلم معك.

وجاءهما الجواب من الداخل بصوت هامس متعجل:

-الآن، الآن، أيها السادة، دقيقة واحدة...

وأزيـــح المزلاج، وفتح الباب قليلاً، وأضاء نور القمر الوجه الذي أطل من الشق الأسود، وهو وجه ذو أنف حاد تشوبه بعض النقر ويكسوه التملق. انقــض أندريه على الباب واندفع إلى المدخل، وابتدأت هناك جلبة عنيفة. لم يستطيع فاسيلي فاسيليفتش أن يستطلع حقيقة الموقف فوراً. قُرب قدميه كان ثمــة شخصان يشخران وينخران ويتقلبان... ومع ذلك فقد استطاع أن يميز أن الذي يجثم في الأعلى هو العمدة وأنه يحرك عظمتي لوحيه، فما لبث أن وجّه ضربة بالمسدس إلى نقرة هذا المُتملّق. فصاح العمدة بصوت ممطوط: أووو وخ.. آآآخ، أوغاد....

كانت درفات النوافذ مغلقة في الغرفة المدفأة بإفراط والمضاءة بمصباح أُضــعف نـــوره. وفـــوق المقعد المغطى بمشمع والذي وثب منه العمدة قبل دقـــائق ملقياً عنه فروة الصوف ومسقطاً على الأرض مخدة الشيت المتسخة كانــت قــد ثبتــت بطاقة يبدو فيها هتلر في الزي البحري الرسمي. وعلى الطاولة العارية كانت هناك دواة زجاجية وسجل رسمي مفتوح وإلى جانبهما يستقر رشاش جديد، وهو الشيء الذي أتى صاحبانا من أجله.

سأل فاسيلي فاسيليفتش وهو يبتسم بمكر ويزيح لحيته إلى جانب:

-أنت توافقني على أننا أصبحنا الآن مسلحين على نحو لا بأس به؟ خذ الرشاش وأنا سآخذ السجل وهيا بنا إلى لينكا فلاسوف.

توخـــياً للحيطة نقلا العمدة من ردهة المدخل إلى عنبر الغلال وألقيا به خلف كوم حطب. كان القمر بازغاً فوق القرية الهادئة محفوفاً بأقواس قزح صـــقيعية، ولكنه لم يكن يروي للنائمين حكايا سحرية، كان من اللائق به أن يـــبزغ أحمـــر قانـــياً كالدم المنبثق من قلب معذب، متوهجاً كالكراهية. قال

أندريــه: -مالك لا تكف عن رفع رأسك إلى الأعلى، الهواء ساكن؛ اتبعني، لا يوجد كلاب في الفناء.

خــرج لينكا فلاسـوف بعنقه القوي ووجهه العابس لملاقاتهما حافي القدمين وليس عليه سوى قميص دون حزام على الرغم من الجو الصقيعي. أخـذ يـتأمل الرشاش المغتنم وهو يضم قدميه إحداهما إلى الأخرى ويستمع إلـى بـلاغ موجـز عـن المنشور الذي ألقته الطائرة وعن ضرورة القيام بعمليات فدائية فورية. وعندما بدأت أسنانه تصطك قال:

-هيا بنا إلى الدار. هذه أمور جدية وينبغي أن نستدعي الشباب...

فـي الـدار المعتمة التي تفوح فيها رائحة الفقر، أخذ الثلاثة يتحادثون همساً ويصـمتون كلمـا تململت النساء خلف الحاجز. وشاهدوا في النور الباهـت المتسلل عبر النافذة التي يغشيها الصقيع كيف خرجت إحداهن وهي تدخـل يديهـا في كمي فروة ضأن قصيرة... همس لينكا لها ببضع كلمات، فاقتربت من الموقد ونادت بصوت فتي:

"فانـيا، ناولنـي جزمتي". دست قدميها في الجزمة اللبادية وهي واقفة وغـادرت الفـناء بسرعة. وشرع فاسيلي فاسيليفتش يتوسع في الحديث عن تلـك الأفكـار التـي كان قد طرحها منذ سويعات أمام أندريه، بيد أن لينكا قاطعـه بحـزم: -الـتحريض الآن لا يمكـن تحقيقه سوى بلغة القتال. إذا اسـتطعنا أن نقضـي ولـو على حامية واحدة، سنحرض عشر قرى على النهوض للمقاومة. يلزمنا سلاح.

ورفع صوته منادياً: -فانيا، ارتد ملابسك وتعال إلى هنا.

انـزلق الصبي من على سطح الموقد ووقف قرب الرجال الثلاثة رافعاً نحوهـم عينـيه الكبيرتين. وعندما وضع فاسيلي فاسيليفتش يده على رأس الصبي ذي الشعر الناعم الدافئ تنحى فانيا جانباً وكأنه يقول: هذا ليس وقت الملاطفة. قال له لينكا: - يلزمنا سلاح.

-مفهوم.

-هل يوجد في الجوار أسلحة مهملة؟ أنتم الصبيان يجب أن تعرفوا كل شيء.

-يوجد. هناك صبي اسمه أركادي يعرف أكثر مني، وهو سيقول لكم.

هناك مدفعان غارقان في النهر. ونحن نعرف أين توجد الذخيرة. ويوجد في الغابة أحد عشر مدفعاً رشاشاً مطمورة في جفرة. كما يوجد في مكان آخر قنابل يدوية وألغام. سنريكم كل هذا. ماذا، هل أنتم عازمون على ضرب الألمان؟

-اسمع، هذا ليس من شأنك.

-كيف ليس من شأني؟ -قال الصبي بصوت رجولي وشد سرواله إلى الأعلى -إنني أتحمل التعذيب ولن أبوح بشيء.

قرفص فاسيلي فاسيليفتش ليتبين وجهه بوضوح؛ إنه وجه طفلي مدوّر منتفخ الشفتين، وفي الوقت نفسه يعبر عن جدية ليست طفلية.

دلف إلى الدار خمسة رجال من مقاتلي الجبهة واحداً إثر آخر، ودخلت على إثرهم الفتاة التي استدعتهم، نزعت منديلها وتوارت خلف الحاجز.

وقف فاسيلي فاسيليفتش لصق النافذة وقرأ المنشور ثانية، ورفع أندريه راحته كالسيف وقال: إن هذا نداء يدعو إلى النضال. فردّ أحد مقاتلي الجبهة:

-إذاً هكذا.. انظروا كيف انقلبت الأمور. فلنعاقب الألمان على ما ارتكبوه بحقنا.. هيا بنا نبحث عن سلاح.

وهكذا تحققت في تلك الليلة أمام عيون الألمان تعبئة فصيلة أنصار فدائية من ثمانية رجال، وصبيين يقومان بمهمة الاستطلاع.

قـــاد فانـــيا والصبي الآخر -أركادي -الذي يعرف كل شيء الأنصار المســـلحين بالـــرفوش إلى الغابة المظلمة، واتجها مباشرة إلى المكان الذي ينبغـــي الحفر فيه. وأخرج المقاتلون من الحفرة -من تحت الثلج والأغصان المتكسرة -المدافع الرشاشة، ومنها أربعة جاهزة تماماً لخوض المعركة.

كمـــا أخرجوا من حفرة أخرى قريبة صندوقاً يحتوي على قنابل يدوية ونحو عشرين لغماً. وراح الصبيّان يقنعانهم بأن يسحبوا أيضاً من تحت جليد النهر المدفعين المضادين للدبابات، وتطوعا في أثناء ذلك بالغوص في الماء بنفسيهما: -ليس عليكم يا أعمامنا سوى الذهاب وإحضار مِهدّة لكسر الجليد، نحن لا نخشى الغوص في المياه الباردة.

ولكـــنهم أجّلوا المدافع إلى وقت آخر، ونقلوا الأسلحة قبل انبلاج الفجر إلى القرية ووضعوها في دار فاسيلي فاسيليفتش.

وكان الأمر المؤسف الوحيد هو عدم حصولهم على بنادق. عاد فاسيلي فاسيليفتش صباحاً إلى تكسير الحطب وهو يغني مغمغماً:

"آه، أيهـــا الشـــتاء، بارداً كنت جداً، غطيت الطرقات كلها بالثلج". جاء فانيا متزلجاً بسرعة على الثلج عبر الحقل النظيف.

لم يبدُ في النهار صبياً صغيراً أخنس وضئيلاً كما بدا في الليلة الفائتة.

-الألمـــان مضـــطربون، لقد عثروا على العمدة نوسكوف خلف كومة الحطـــب، وهـــم الآن يطوفـــون ويمـــرون بالأفنية ويفتشون ويضربون... والصـــراخ يـــتعالى. في دار آل فيديوني أمسك أحدهم بطفل رضيع وهوى برأســـه على عضادة الباب... جميع شباننا غادروا إلى الغابة... أما الصبي الـــذي كـــان معـــنا فـــلا أدري هل هو يكذب أم لا، إنه يقول إنه يفهم اللغة الألمانـــية قليلاً. وقد سمع أنهم ينتظرون اليوم مساء قدوم سيارات شحن... قل لي: ما الذي تريد أن تعرفه أيضاً؟

-اذهب إلى كابيتولينا ايفانوفنا، ستعطيك قطائف ساخنة.

في تلك الليلة، وعلى بعد عشرة كيلو مترات تقريباً عن قرية ستاريا بودا مرت قافلة السيارات الشاحنة الألمانية فوق ألغام، وما إن انقذفت السيارة الأولى عالياً من الصدمة النارية القوية حتى أزّت طلقات المدافع الرشاشة من غابة الصنوبر. ولم يجد الألمان إمكانيةً للانعطاف أو التراجع. فعلى جانبي الطريق كان ينهض جداران من الثلج. وكان عددهم (كما أحصوهم فيما بعد) سبعة وعشرين شخصاً.

أخذوا يتراكضون قرب الشاحنات وهم يصيحون بأصوات وحشية ويطلقون النار دون جدوى ويتساقطون. واندفع من قلب الظلال السود إلى الطريق الذي يضيئه القمر شخص يرتدي فروة سوداء، وآخر قصير القامة يحمل رشاشاً.

-"أرااا!" [1] صاح الأول وهو يرفع يديه إلى الأعلى، وعندئذ تقاطر الأنصار من خلف أكوام الثلج على جانبي الطريق وهم يلقون بالقنابل اليدوية التي أخذت تتطاير متقلبة في الهواء. ولم تمض بضع دقائق حتى كان كل شيء قد انتهى. عثروا في الشاحنات الست التي استولوا عليها -وقد احترقت السابعة الأمامية -على رشاشات وذخيرة ومواد غذائية وبطانيات. أخذ المقاتلون كل ما يحتاجون إليه وأحرقوا الباقي في السيارات.

وفي الصباح عاد فاسيلي فاسيليفتش لتكسير الحطب ثانية.

وفي ذاك النهار مر بالقرب من القرية المقفرة عدد من الناس ليس بالقليل، وكان كل واحد منهم ينظر إلى مدير المدرسة ويسعل أو يفعل أي شيء يدل على نيته، ثم يسير بحذر في طريق ملتوية وينعطف أخيراً باتجاه داره. وما إن مضى أسبوع حتى تشكلت بقيادة فاسيلي فاسيليفتش فصيلة من

---

[1] - *أرا: صيحة حماسية يطلقها الروس عند الهجوم الحاسم في المعركة، وكذلك للتعبير عن الابتهاج بالنصر، أو عن الإعجاب الشديد، أو عند تحقيق أمنية، أو للاحتفاء بظاهرة سارة الخ.....*

الأنصـــار يزيد عدد أفرادها على مئتي شخص ولديها مدفعان. وعندئذ أقدم المقـــاومون على إنجاز العملية الأساسية وهي القضاء على الحامية الألمانية في قرية ستاريا بودا.

***

نينــــا

كلمـــا كـــان الإنســـان أكثر عافية وكانت حياته أخشن وأبسط ازدادت حساسيته. أليس كذلك؟ يهذرون زاعمين أن إيفان سوداريف لا أعصاب لديه البـــتة. أحياناً عندما يبدأ الحنين يذيب قلبك تطبق عليك ذكريات تملأ النفس بالأســـى الشـــفيف، فتـــترك الأحاديث، وتستلقي على العشب.... الريح تهز الأعشـــاب والأزهـــار البرية، وأنت ترى حافة السماء.... ويدق قلبك على الأرض:

أيتها الأم، يا أرض الوطن، افتحي لي، اغمري عابر السبيل بحنانك... وها أنا أتذكر حادثة وقعت لي في بداية الحرب. أنتم تعرفون، ولا حاجة بي إلـــى أن أحدثكم عن الوضع "الجميل" الذي وجدت قواتنا الحدودية نفسها فيه عـــندما عمـــد العـــدو إلى قصف مطاراتنا في أول أيام العدوان. وثمة في المؤخرة من لا يكف حتى الآن عن القول إن قطعات من الجيش الأحمر قد فـــرّت آنـــئذ. لا، لا تهينوا قبور الجنود المجهولين حيث يثوي أبناء الوطن الأبـــرار الذيـــن جادوا بأرواحهم ليمنحونا إمكانية النصر، وعلى صدورهم بـــالذات تحطمـــت وقاحة الألمان الجامحة. كانت سبطانات المدافع الرشاشة والبـــنادق الآلـــية تجمـــى حتى الاحمرار -هكذا كنا نقاتل ونحن نتراجع... طَوَّقـــنا العـــدو بعدد لا يحصى من الدبابات والرشاشات، وأمطرنا بالقنابل والألغام كما كان يحلو له. عملنا على اختراق طوق الحصار،واخترقناه؛ كنا

في ضيق شديد، ولكن الألمان أيضاً كان يتملكهم الهلع من فداحة خسائرهم.

لا أجـادل فـي أنه كان بيننا متخاذلون. انبطحوا دون وعي طوال مدة القصـف، ثم انتفضوا وحوّلوا أبصارهم قائلين: "ايه، لقد انتصروا علينا...." هؤلاء استسلموا. وكان هناك سبب آخر.

لقد علمونا الكثير، ولكن ليس الجميع استوعبوا كما يجب أن كل مقاتل يجب أن يمتلك المبادرة في المعركة. كنا ننظر إلى القائد: فهو المسؤول عن كـل شـيء... وإذا قُـتل؟ هل نغدو بلا رأس؟ هذا ما أودى بقطعات كثيرة آنـذاك... وآنـذاك أيضـاً أخذت روح المبادرة تنمو لدينا... شعبنا لماح، وشرس في العراك... لقد كانت كرامتنا تئن. وكما ننتظر العيد كنا ننتظر أن نصل إلى العدو لنقاتله بالأيدي.

بقـي نيمان في الخلف. وفقدنا الصلة مع القطعات. وهنا أطبق الألمان علينا من جميع الجهات. حفرنا بسرعة شقوقاً ضيقة جثمنا فيها؛ لم يكن لدينا حـتى العـيارات الخارقـة للدرع. وراح العدو يلقي علينا الألغام من جميع الجهـات، والطائـرات تُغـير سـرباً وراء سـرب، والأرض تـرتج من الانفجارات، والغبار ورائحة الحريق الكريهة يملأان الجو، والعيون والآذان مـلأى بالـرمل. أحياناً كان بعض الطيارين الأوغاد يهبطون إلى ارتفاعات تمكـنك مـن رؤيـة سـحناتهم البيضاء الكامدة ويمطرون الأرض بطلقات مدافعهم الرشاشة.

ونظل نحن جاثمين. هل تذكرون وصايانا؟ لا تعترفْ بأنك مطوّق و... انـتهى. عندئذ لا يبقى أمام العدو سوى أبغض الحلول، وهو أن يقترب منك للاشتباك بالأيدي. وبالفعل، هدأ كل شيء، توقف إطلاق النار تماماً، ولم تعد تسمع في الجو أية أصوات. وابتدأنا نسمع حفيف الأشجار في الغابة. أطللنا مـن الشـقوق فرأيـنا وهج الغروب، وكان قرص الشمس الذي يبدو كبيراً يضيء لنا للمرة الأخيرة من خلف السحب.

نأخذ المصابين بجروح طفيفة، القادرين على الإمساك بالبندقية أو حتى على التنقل سيراً على الأقدام... ونركض بحذر نحو الغابة. نعرف أن هناك مجموعة من حاملي البنادق الآلية والمدافع الرشاشة. نزحف فوق العشب بين نتوءات التربة وكل همنا أن نقترب أكثر فأكثر من اللحظة التي نصيح فيها "أُرا". أما العدو فقد آن له أن يطلق النار علينا.

أذكر أن قشعريرة سرت في بدني كله: ما هذا الأمر الغريب! نحن على مسافة مائة وخمسين خطوة منهم، ومن المفروض أن يكونوا قد اكتشفوا وجودنا، فَلِمَ هم صامتون؟ أنهض ملصقاً صدري بشجرة بتولا وأحدد النظر: ليس ثمة أية حركة عند طرف الغابة.

فيم تكمن الحيلة يا تُرى؟ وفجأة يبدأ الأزيز في أعماق الغابة، عن اليمين من هذا المكان. ويتوالى إطلاق الرصاصات الخطاطة: زرقاء وحمراء وخضراء، تتعاقب بسرعة وتمتد خيوطاً طويلة. ونسمع صيحة "أُراااا" الروسية. انفغرت حناجرنا تلقائياً، نهضنا وصحنا بدورنا "أُرا!". وتجاوزنا البقعة التي كان الألمان يقبعون فيها نهاراً، وقابلناهم في أجمة وسط الغابة، وشفينا غليلنا من حاملي الرشاشات هؤلاء.

وكان ما حدث هو الآتي: تأخرت عن أحد الأفواج سرية غير كاملة بقيادة الملازم موسييف، وشقت طريقها شرقاً، واكتشفت أننا مطوقون، وبما أنها كانت في الجوار، لذا قَرَّرتْ أن تنجدنا، وضربت حاملي الرشاشات من المؤخرة. ومن هذا الخرق بالذات خرجنا نحن.

كان موسييف ذا طبع حار، وقد خُلق محارباً بالفطرة. لم يتسنَّ لنا أن نعرف من هو بالضبط، ويبدو أنه قد خدم في مكان ما في غربي بيلوروسيا. إنه شخص مشدود القامة، متوسط الطول، وجهه عادي، غير مُعبِّر. يشمّر كُميَّ سترته العسكرية حتى المرفقين، ويضحك دائماً بطيبة قلب، ولكنه حاد النظرة، وذكي. أجل ، يوجد في روسيا أناس من ذهب. تابعنا طريقنا مع

ســرية موسييف باتجاه الشرق، وصرنا نحن الذين نبحث عن الألمان: وكنا نقــع تــارة على حامية تُركت في قرية ما بصفتها نسقاً أول، ونصطدم تارة أخــرى بجماعــة مــن الجــنود أُنزلوا في موقع ما، فنبادر إلى مهاجمتهم، ونجعلهم يولون الأدبار. طالت لحانا وغشّانا كلنا السواد، ولا أدري هل كان هــذا مــن الاتساخ أم من الغضب. وكان موسييف يقول في بعض الأحيان مازحاً: تصوروا جيشاً بهذه الهيئة يجتاز شوارع برلين على هدير الموسيقا، كم سيخيف الألمانيات، يا له من مشهد...

وصلنا ذات مرة إلى مرج رطب شديد الخضرة يقع قرب محطة قطار صــغيرة تقــف فــيها عربات قطار محطمة مهملة. كان الألمان قد غادروا المكــان للتو. وقد شاهدنا هناك امرأة شابة ممدة على عشب المرج الذي لم يُحــشّ. كانت المرأة تضع إحدى يديها تحت رأسها، بينما تضم الأخرى إلى صــدرها المصــاب بعيار ناري. كانت كأنها نائمة. أهدابها مرخية والهواء يحــرك شــعرها الكستنائي، ولكن خيطاً من الدم كان يسيل من زاوية فمها الشــاحب. قــرب المرأة تزحف طفلة سوداء العينين في الثانية من عمرها، تــرتدي ثوباً منقطاً، ولا تنفك تهز المرأة وتردد: "أمي نائمة، أمي نائمة..". عــندما اقتربــنا التصــقت الطفلــة بأمها وضغطت على وجنتيها براحتيها الصــغيرتين، وراحت تنظر إلينا كفرخ غراب مذعور. سمعنا صوتاً يسأل: "مــاذا هناك، أيها الرفاق، ماذا هناك؟" يركض موسييف ويمزق ياقة قميصه العســكري. تنحيــنا له صــامتين. وقــف وقال مندهشاً وكأنه يحدث نفسه: "أســرتي.. أســرتي، زوجتي وابنتي". اختطف الطفلة وضمها إلى صدره.. وانحــنى فــوق رأس زوجته وشرع يبكي ويعول كالأطفال، وهنا انفجرت الطفلة بالبكاء.

ابــتعد المقاتلون قليلاً. بعضهم كان ينخر وبعضهم يمسح عينيه. أخذتُ من موسييف مسدسه، وتركناه وحيداً مع ابنته. ورحنا نحفر قبراً تحت ثلاث بتولات وريقة.

يـــبدو أن زوجته قد هربت ـــ بثوبها الذي كان عليها ـــ مع ابنتها من بيلوســـتوك سيراً على الأقدام تارة وفي شاحنة تارة أخرى وفي قطار عابر عرضاً تارة ثالثة، وقد قصف الألمان القطار في هذه المحطة الصغيرة قبل قدومـــنا بقلـــيل، فقفـــزت منه وانطلقت تركض في المرج الأخضر. ولكن الطيارـــن الألمان، أولئك الصبية الأغرار، اعتادوا ممارسة رياضة خاصة: فهـــم ينقضـــون بطائراتهم إلى ارتفاعات منخفضة ليلاحقوا امرأة تعدو بلا وعي مع طفلتها.. وربما لم يكن بينها وبين لقاء زوجها سوى ساعة أو أقل.

حفـــرنا قـــبراً تحت أشجار البتولا، وكنا نظنه لشخص واحد، وإذا بنا نضطر إلى أن ندفن فيه اثنين.

وصـــل أحد مستطلعينا على فرس منهكة، وأبلغنا أنه اكتشف مجموعة مـــن راكبـــي الدراجات النارية في الطريق الرئيسة التي تتقاطع قرب هذه المحطـــة الصـــغيرة مـــع السكة الحديدية. كان يمكن، طبعاً، الابتعاد خلسة وتفـــادي الاشتباك في معركة. بيد أن موسييف اقترب حاملاً الطفلة بين يديه وقـــد تغيرت ملامح وجهه، فاكتسى بلون رمادي وانطفأ بريق عينيه. قال: "لا.. أبـــداً، أنـــا غير موافق... أجل، هكذا... فقط هكذا أيها الرفاق". مسح رأس الطفلـــة وســـلمها إلى مقاتل مصاب بجرح في رأسه، وقال لي بنبرة آمرة: "أعد لي سلاحي الشخصي".

نفـــذ موسييف بنفسه العملية كلها: كدّس بعض الأشجار في مكان ضيق من الطريق، وأوعز لعدد من حاملي المدافع الرشاشة والرماة بنصب كمين، وعـــندما توقـــف الألمان قرب كومة الأشجار مستغربين ولكن غير مرتابين بشـــيء، وانضـــمت الآلـــيات الخلفـــية إلى الأمامية عمد إلى إبادتهم بالنار والحـــراب حتى آخر شخص. ولا أدري هل كان يبحث فعلاً عن الموت في هـــذه المعـــركة، أم أن الحقـــد كان يخنقه: لقد كان يدور في وسط المعركة وبندقيته في يده. اخترقت طلقات رشاش بطنه بكامله، ومع ذلك فقد وجد في نفســـه القـــوة ليجلس على الطريق ويرى كيف يُباد الألمان.. قال وقد خرج

قلــيلاً عــن طوره كما يبدو: "انظري يا ماروسيا! هذه وليمة دفنك، هانحن ندفــنك علــى أنغام الموسيقا.." سقط على جنبه الأيسر وأخرج بيده المزرقة مسدسه من قرابه. وكان بطنه قد قطع إلى شقين.

دفــنّا الاثنين في قبر واحد. وتصوروا أن الطفلة التي كان يحملها أحد المقاتلين لم تبك، بل كانت تنظر كالكبار كيف كنا ندفن أمها وأباها. ربما لم تكن تدرك ماذا نفعل؟ ولكن لا.. فالأطفال في هذه الحرب يفهمون أكثر مما يبدو لنا. تزدحم في أذهانهم أشياء كثيرة ثم تنضج مع الزمن..

قبيل المساء توقفنا للاستراحة في الغابة؛ غلينا ماءً في خوذاتنا وغسّلنا الطفلة ولففناها بقماش شادر وبنينا لها عشاً من أغصان الأشجار، وخصصنا لحراســتها مقــاتلاً من حراس الحدود مسلحاً ببندقية اسمه ماتفي ماخوتنك، وهــو ذو مظهــر مرعب. كان نوم الطفلة قلقاً متقطعاً لا تنفك تستيقظ من بــرهة لأخرى وتنادي "ماما...". وكان ماتفي يقول لها: "ــ نامي، نامي، لا تخافي.." ولكنها لم تهدأ إلاّ في اليوم التالي. لم يكن ماتفي يأتمن عليها أحداً، كان يحملها على يديه ويحاول أن يعرف اسمها، وقد ظلت طويلاً تمتنع عن الحديث، ثم قالت فجأة في أذنه "نينا..".

تابعــنا شــق طريقنا نحو الشرق أياماً عديدة متجاوزين الموانع الألمانيّة، وعــندما اقتربنا كثيراً من خط الجبهة قررنا عدم المخاطرة بالطفلة. صادفنا في محلة نيميروفو امرأة اسمها رينا ميخالتشوك حازت إعجابنا وثقتنا فرجوناها أن تبقي طفلتنا عندها، وأعطيناها كل ما لدينا من سكر وأرغفة بيض مجففة جهازاً لنيــنا. وعــندما غادرنا المحلة ألقينا نظرة على بيت المرأة. كانت نينا تقفز فوق يدي أمها بالتبني، والمرأة تبكي بصمت.. هذه هي قصتي..

وقــد بقيــت طفلتــنا نيــنا في الغرب، عند الألمان، وبقي القبر تحت البتولات هناك، عند الألمان.

***

قصـــة غريبـــة

هاهـــي! جـــاءت تـــزحف واحـــدة تلو أخرى: الأولى، الثانية، الثالثة، بدوائــــرها البـــيض وصـــلبانها الســـود... رسمت براسكوفيا سافيشنا شارة الصـــليب وهـــي تقـــف خلـــف ظهر بيوتر فيليبوفتش؛ وما إن ارتفع هدير الدبابات حتى قفز هذا على المقعد وألصق وجهه بزجاج النافذة، ولكن عندما رسمت هي شارة الصليب التفت نحوها بحيوية، وضحك بسخرية من خلال أسنانه القليلة بصوت لا يكاد يتجاوز لحيته القاسية. تبع الدبابات في الشارع الريفـــي الموحـــل قافلةٌ من الشاحنات الضخمة المكتظة بجنود يجلسون في صـــفوف منـــتظمة. وكانـــت تطـــل من تحت الخوذات العميقة في الضوء الـــرمادي الرطـــب وجـــوه الألمان التي تنظر بعيون فارغة وتبدو رمادية، متذمرة، تعلوها صفرة الموت.

خمد ضجيج القافلة المبتعدة. وعاد يتناهى إلى الأسماع من جديد قصف الـــرعد من مكان بعيد جداً. تراجع بيوتر فيليبوفتش عن النافذة، وكانت كل التغضـــنات حـــول عينيه تضحك، أما عيناه اللتان تكاد لا تراهما من خلف أجفانه المزرورة فقد كانتا تلتمعان ببريق غامض.

قالت براسكوفيا سافيشنا:

ـ يا إلهي، أي خوف هذا... ماذا يا بيوتر فيليبوفتش! أيمكن أن نصبح بشراً الآن؟

لـــم يجـــب. جلـــس ينقر على الطاولة بأظافره. شخص ضئيل، أحمر، فتحـــتا أنفه عريضتان وأصلع. كانت براسكوفيا سافيشنا ترغب في الحديث عن بيتهما، بيد أن فمها كان مختوماً بالتهيب. عاشت طوال حياتها في خوف مـــن زوجهـــا مـــنذ ذاك اليوم الذي أخذوها فيه وهي في الرابعة عشرة من

عمرها من أسرة فقيرة إلى أسرة غنية يعتنق أفرادها العقيدة القديمة [1]. ومع مرور السنين بدا وكأن الأمور قد استقامت. ولكن في هذا الربيع، عندما عاد بيوتر فيليبوفتش بعد أن قضى في المعتقل عشر سنوات، عاودها الخوف منه ثانية وأصبحت الآن تشعر شعوراً عميقاً بالمهانة: لمَ كل هذا الخوف؟ إنه لا يضربها ولا يشتمها، ولكن عند كل حركة تقوم بها لا تلقى منه سوى ضحكات ساخرة؛ كل تصرفاته أصبحت مغلفة بالغموض. سابقاً لم يكونوا يعرفون في البيت كيف تُقرأ الكتب، أما الآن فقد أصبح يُحضر صحفاً من المكتبة الريفية، ويشعل مصباح الكاز ليقرأ الكتب. وقد جلب نظّارة من الشمال لهذا الغرض.

انهمكت براسكوفيا سافيشنا في إعداد طعام الغداء محجمة عن الإفصاح عما في ذهنها؛ فرمت أوراق الملفوف، والبصل، والخضار، وصبت الكفاس[2] المخفف في كأس، ونادت الأولاد بصوت غاضب. تغدوا متناولين قطع خبز مجفف مسها العفن، فالحبوب، والطحين، ولحم الأوز، والخنزير المدخن خبئت كلها خوفاً من استيلاء الألمان عليها. قبل أن يتناول بيوتر فيليبوفتش الملعقة مد يديه قليلاً خارج كمّيه بحكم العادة، وثناهما عند المرفقين ومسّد شعر رأسه براحتيه. كان قد اكتسب هذه العادة من أبيه. وعندما مد يديه قالت براسكوفيا سافيشنا فجأة بتناقض أنثوي مع السياق: ـ لقد انتزعوا لافتة المجلس الريفي، الآن يجب أن يعيدوا لنا البيت.

---

(1) ـ *مذهب أدى إلى ظهور حركة دينية ـ اجتماعية في روسيا أواسط القرن السابع عشر إثر الانشقاق الذي أدى إليه الإصلاح الديني الذي أجراه البطريرك "نيكون" وقد دعت الحركة إلى الحفاظ على النظم والطقوس الكنسية القديمة، وغدت حركة معارضة أو معادية للكنيسة الأرثوذكسية الرسمية. من أشهر قادتها الكاهن الكبير أفاكوم (1621 ـ 1682) الذي نفي ثم أحرق مع أنصاره المقربين وسيرد ذكره في النص فيما بعد.*

(2) ـ *الكفاس: مشروب شعبي روسي غير كحولي.*

وضعت ملعقتها ومسحت دموعها بمئزرها، وراحت الكلمات تتدفق من فمهـــا بلا انقطاع؛ أفضت بمكنون قلبها في شكوى طويلة سمعوها منها مائة مرة. وتابع بيوتر فيليبوفتش والولدان ــ صبي أحمر كأبيه، وبنت في الثانية عشرة من عمرها ذات وجه متجهم أبيض كالحليب ــ احتساء فتة الخضار. وأخيراً نطقت براسكوفيا شافيشنا بذاك الجديد الذي كان يثقل نفسها:

ــ فـــي قـــرية بـــلا غو فيشينسكي عيّنوا أحد المجرمين ــ كما يقول الجمـــيع ــ رئـــيس بلدية، وأعطوه بيتاً في طابق قرميدي وفرساً... وأنت، والحمد لله، أفضالك كلفتك الكثير من الآلام...

ــ يا لك من حمقاء عالمية يا براسكوفيا سافيشنا!

اكتفى بيوتر فيليبوفتش بهذا الجواب الذي نطق به بقناعة حاسمة جعلتها تقطع حديثها وتستكين.

فـــي الـــيوم التالـــي جاءت الشاحنات تحمل الألمان، ولكنهم لم يكونوا يعـــتمرون خـــوذات، بـــل ســـدارات. احتل الضباط المبنى الجيد ذا السقف الحديدي الذي كان يملكه آباء بيوتر فيليبوفتش، والواقع عبر الشارع منحرفاً عـــن الـــدار التي يسكنها الآن. أما الجنود فقد توزعوا على دور الفلاحين. وقـــبل ذلـــك ببضعة أيام كان جميع الشباب تقريباً ــ الفتيان والفتيات ــ قد اخـــتفوا مـــن القـــرية: أحد ما اجتذبهم إلى مكان ما. وهذا لم يعجب الألمان بالمـــرة. ألصـــقوا على باب الآمرية وعند البئر إعلاناً مكتوباً باللغتين على ورقـــة من النوع الجيد يحددون فيه قواعد السلوك المفروضة على الروس، ومـــن يخالف فعقوبته الإعدام حصراً. وبعد ذلك بدأت حملات تفتيش شاملة. روت براســـكوفيا سافيشـــنا التي استولى عليها الذعر أن لدى الألمان جندياً مختصـــاً بالبحث عن الخنانيص المخبأة: يدخل الفناء بهدوء ويبدأ يقبع، فلا تمـــيز بيـــن نخـــيره ونخـــير الخنازير، يقبع ويصغي. وبالفعل ردت عليه الخنانـــيص فـــي عدد من الأفنية، مع أنها كانت مخبأة جيداً في العلية.. وقد

بكت النسوة بمرارة فيما بعد...

كــان الألمان يستولون على كل شيء ويفرغون الدور من كل ما فيها. وراحــت براســكوفيا سافيشنا تئن وتتأوه وهي تنقل الملابس في الليالي من الصــندوق إلى القبو ومن هناك إلى تحت الرماد أو إلى تحت فرن الدار، أو تدســها فــي مكان ما. أخيراً صاح بها بيوتر فيليبوفتش وهو يخبط الأرض بقدمــيه: "اجلسي بهدوء، أو اذهبي موتي في مكان ما، ابعدي عني!". بيتهم كان كأنه يتمتع بالحصانة، فالألمان كانوا يتجنبون الدخول إليه. وأخيراً جاء اثنان مسلحان ببندقيتين. أرخى بيوتر فيليبوفتش قبعته الفرو التي ورثها عن أبــيه حتى عينيه، وسار بهدوء بين الجنديين. وقف عند مدخل مبنى الآمرية ورأى هــناك كــيف كــان شخص ألماني طويل القامة يضع نظارة ويبدو بمظهــر الإنسان المثقف يجذب نحوه فتاة ذات وجه مدور في الرابعة عشرة مــن عمرها، وكيف كان يفتشها ويجسها وهي تتقيه بمرفقيها وتهمس: "لا يا عمــاه، لا تفعــل... لا تفعل" حشرها بين ركبتيه وراح يضغط على نهديها بــيده الكبيرتيــن الحمراويــن. فشــرعت تبكي. دفعها في قفاها، فتعثرت وابــتعدت. أصــلح من وضع نظارته، وتطلع إلى بيوتر فيليبوفتش، لا إلى وجهــه، ولا إلــى عينــيه، بل إلى أعلى من الوجه. سأل وهو يلهث بعض الشيء:

ـ أهذا هو بيوتر غورشكوف؟

دلــف بــيوتر فيليبوفتش على إثر الألماني الطويل إلى البيت الذي ولد وكبر وتزوج فيه ودفن فيه أباه وأمه وثلاثة من أبنائه. لقد حمل طوال حياته هــذا البيــت على كاهله رازحاً تحت وطأة هذا العبء الثقيل الذي لا فكاك مــنه. كانــت الجــدران قد طليت بالكلس حديثاً، والأرضيات غسلت جيداً؛ وكانت تفوح في الغرفة ذات النوافذ الثلاث رائحة السيجار.

فــي الأيام الخوالي كانت عائلة غورشكوف تجلس هنا إلى المائدة في

الأعـــياد الكبـــيرة. وضع الألماني الثاني القلم باحتراس، ونظر باتجاه بيوتر فيليبوفتش رافعاً بصره إلى ما فوق رأسه، وقال بالروسية:

ــ اقلع قبعتك واجلس على الكرسي قرب الباب.

كـــان هـــذا الألمانـــي وسيماً، ذا شاربين أسودين، ومفرق شعر لامع. وكانـــت عـــراه السود مزينة ببروق فضية (كانت تعني في الأبجدية الرونية القديمـــة حرفي " C" و"C" وهي أيضاً من العلامات الرئيسية الملازمة لا له الحرب الجرماني "تور")

قال بعد فترة صمت طويلة:

ــ قصـــة حـــياتك معـــروفة لدينا، أنت كنت معادياً للسلطة السوفيتيية، وآمـــل أنك مازلت معادياً لها (كان بيوتر فيليبوفتش الذي وضع قبعته على ركبتـــيه، وأبـــرز لحيـــته إلـــى الأمام ينظر إلى الضابط بعينيه الصغيرتين اللامعتين اللتين تطلان من خلال شقين صغيرين متغضنين).

مـــا الـــذي نريده منك؟ نريد منك أن تنقل إلينا كل ما تحصل عليه من معلومـــات عـــن السكان، وخصوصاً عن الصلات مع الأنصار، وأن تجبر السكان على العمل؛ لا يحسنون العمل، ونحن الألمان لا نحب هذا.

الإنســـان يجب أن يعمل من الصباح حتى الليل طوال الحياة، وإلا فإن الموت سيكون بانتظاره؛ لدي والدي في أرض الوطن مطحنة صغيرة يعمل فـــيها كلب؛ إنه يركض ليلاً ونهاراً في دولاب الطاحون. الكلب حيوان ذكي وهـــو يـــريد أن يعيش؛ وهذا لا يمكنني أن أقوله عن الروس... والآن أنت ســـتُعيّن رئيســـاً لـــبلدية ميدفيدوفكا. يوم الاثنين ستحضر تنفيذ حكم الإعدام باثنين من الأنصار. وبعد ذلك ستتولى مهامك.

عـــندما عـــاد بيوتر فيليبوفتش إلى البيت هرعت إليه زوجته تسأل: ــ إيه، ماذا قالوا لك؟ هل سيعيدون لنا البيت؟

أجـــاب بـــيوتر فيليبوفتش بإعياء وهو يجلس على المقعد وينزع وشاح عنقه:

ــ كيف إذاً، كيف إذاً!

ــ وماذا قالوا لك أيضاً؟

ــ أمروا بأن تحمي لي الحمام.

تلعثمــت براســكوفيا سافيشنا وزمت شفتيها وهي تحملق في زوجها. ولكــنها خافــت أن تكــرر السؤال... "وعلى كل هذا صحيح: فاليوم السبت والألمـــان يحبون النظام.." وانتعلت جزمتها وذهبت تحمي الحمام على ضفة النهر.

اســتحم بيوتر فيليبوفتش جيداً في الحمام البخاري، واحتسى الكثير من الشاي ونام. وقبل الفجر كان قد غادر البيت.

كانــت رئاســة أركان الأنصار الذين يشغلون بال الألماني الوسيم ذي الــياقة المزيــنة بالــبروق قد اتخذت مقراً لها في مكان غير بعيد عن قرية ميدفــيدوفكا إذا قيســت المسافة على خط مستقيم، ولكن الوصول إلى هناك كـــان في غاية الصعوبة: فالطرقات والممرات التي لا تكاد تُرى، والتي لا يعــرفها إلا الســكان المحلــيون كانت تتعرج عبر أدغال كثيفة من التنوب والحـــور الرومـــي والأشجار الحراجية الأخرى وتفضي إلى مستنقع. وفي وســط هــذا المستنقع يقوم مقر رئاسة الأركان على جزيرة صغيرة صلبة، وكــل الطرقات المؤدية إليه مخفورة بمراكز حراسة إضافية سرية؛ لم يكن الألمان يتجرؤون على التقدم ولو خطوة واحدة إلى داخل الغابة. وإذا حاول شــخص غريــب أن يتخطى حدود الغابة سيسمع فجأة صوت نقار الخشب وهــو ينقر الأشجار في مكان ما بجانبه، وسيسمع كيف سيرد عليه الوقواق من بعيد، وكيف ستسري في الغابة كلها أصوات غريبة: نقر وصفير ونعيق غربان ونباح كلاب متقطع.. سيصاب الغريب بذعر رهيب هنا..

فـــي ذاك اليوم كانت الريح ساكنة والمطر يهطل رذاذاً ناعماً. ولم تكن قــيادة الأنصــار تــرى الظروف ملائمة للقيام بعمليات كبيرة. وقد انطلقت كالعــادة مجموعات صغيرة تضم كل منها ثلاثة أو أربعة أشخاص، بعضها للاستطلاع، وبعضها لزرع ألغام على الطريق العام. وكانت هناك مجموعة خاصــة، قــد كمنت منذ المساء منتظرة مرور قطار عسكري. أقام الألمان على جانبي ردمية السكة الحديدية التي غُطّيت بالكلس لاكتشاف آثار مرور الأنصار مراكزَ حراسة كل كيلو مترين، وكان الحراس يقفون في مراكزهم متجهميــن ويــنظرون بخوف فيما حولهم. على بعد عشر خطوات من أحد مراكــز الحراســة كانــت تنبطح راصدةً في دغل من نبات السُعادى داخل مستنقع صغير متسترة بأغصان مكسرة: فتاة مسلحة ببندقية قصيرة وقنبلتين يدويتيــن سوداوين لا يتجاوز حجم الواحدة حجم بيضة الأوز. وعلى مسافة قريبة منها كان يجثم صبي خلف جذر مقلوع، وكان هذا الصبي قد شاهد بأم العين كيف ساق جنود خضر ـ رماديون يعتمرون الخوذات أسرته كلها ـ أمــه وجدته وأخواته ـ إلى داخل عنبر الدريس، وكيف شبت النار ليلاً في العنــبر، وقد سمع وسط الصراخ صوت أمه تستغيث،... كان وجه الصبي أصــفر تغطــيه تغضــنات شيخوخية، وكان هو أيضاً لا يحول بصره عن الألماني الذي كان يسير فوق الردمية، وقد ضغط خوذته على رأسه.

عــندما اجــتاز أحــد الحراس المكان الذي كان المقاتلون الأنصار قد حــددوه، قفــز مــن خلفه فتىً رشيق الحركة يرتدي سترة مضرّبة مشدودة بحزام شدّاً وثيقاً، وتجاوز الردمية بوثبة واحدة ماداً رشاشه إلى الأمام، وفي تلــك اللحظة هب شاب آخر من بين الشجيرات بلا ضجة، وبدأ يضع تحت السكة بحركات سريعة عبوة معقدة ومرعبة.

انتشــر هديــر القطــار في الغابة، ثم ظهر بكامله للعيان عند منعطف الطــريق. وراحت أعمدة الدخان البيضاء المتصاعدة منه تهبط منبسطة على الأرض وتتشــابك وتــتداخل بيــن الأرومات العالية وأشجار البتولا النحيلة

المتـباعدة. كأن القاطر البخاري الضخم المرفوع فوق العجلات يقترب أكثر فأكـثر وهو يزفر أنفاساً حارة، ونزل الحراس عن الردمية مشيرين إلى أن الطريق حر ومفتوح. وفجأة دوّى أمام القاطر صوت انفجار حاد، وارتفعت زوبعـة رملـية وانقذفت قطعة من السكة جانباً وتطايرت منها شظايا وهي تصدر صفيراً. واصطدم القاطر بكل ثقله المندفع اندفاعاً عاصفاً بالعوارض، وراحـت العربات المقطورة ترتطم بمؤخرته المنحرفة مصدرة قرقعة عالية وتدخـل إحداهـا في الأخرى، وتنحرف ثم تنقلب بثقلها الهائل على منحدر الردمـية، ويتسـاقط مـنها أشـخاص خضر ـ رماديون مطلقين صراخاً كالعويل.

وعـلاوة علـى أمثال هذه العمليات كانت لدى الأنصار أشغال أخرى كثـيرة في هذا الصباح. كان رئيس أركان القيادة يفتوخوف يتحادث بصوت خافـت مـع ضـيفه رئـيس سرية خيالة الاستطلاع إيفان سوداريف وهما جالسان تحت رذاذ المطر على شجرة صنوبر ساقطة قرب الملجأ الأرضي المموه يحتسيان من علبتي كونسروة معدنتين شامبانيا فرنسية من التي تغنى بهـا بوشكين في زمانه كان الأنصار قد غنموها من الألمان.. جراح الاثنين القديمـة كانت تنق في هذا الجو الرطب. وقد تحدث يفتوخوف عن مختلف الصعوبات والمشكلات التي يعانون منها بسبب نقص المعلومات التي تصله حـول العملـيات التـي يعد لها العدو وحول ما يجري في مناطق المؤخرة الألمانية.

ـ يلزمـنا مستطلع في العمق، ولكن أين يمكن أن نجده؟ هذا هو الهم الذي يؤرقني.

ـ همك مبرر ـ قال إيفان سوداريف بتفهم وقذف من علبه الكونسروة ثمالـة الشراب الخفيف ـ بدون استطلاع في العمق سيقاتل رجالنا الشجعان بعيون معصوبة، وهذا ضرب من العبث.

فـــي أثـــناء هـــذا الحديث اهتزت أغصان تنوّبة مغطاة بحبات المطر، وتســـاقطت مـــنها قطرات الماء، وظهرت من خلفها فتاتان ترتديان سترتين عسكريتين قتم لونهما وكساهما البلل وتنورتين قصيرتين وجزمتين كبيرتين. كانـــتا تمســـكان ببندقيتيـــن ركبـــت حربـــتاهما، وتسوقان بيوتر فيليبوفتش غورشـــكوف الذي كان يسير معصوب العينين بمنديل من الشيت ومادا يديه أمامـــه. قالت الفتاتان مبررتين تصرفهما وإحداهما تقاطع الأخرى إنهما قد قبضـــتا علـــى هذا الرجل على مسافة ثلاثة كيلو مترات من هنا، ومن غير المفهوم كيف استطاع أن يتسلل متجاوزاً مراكز الحراسة السرية.

ــ هـــذا صـــيد ثمين ــ قال إيفان سوداريف مخاطباً رئيس الأركان ــ بتّ عنده مرة في ميدفيدوفكا. إنه ذكي، ومكّار، لنستمع ماذا سيقول.

فُكّـــت العصابة عن عيني بيوتر فيليبوفتش، وتنكبت الفتاتان بندقيتيهما وابـــتعدتا عـــنه على مضض. رفع بيوتر فيليبوفتش رأسه ناظراً إلى أعالي الغابة المغشاة بالضباب وزفر قائلاً:

ــ إليكم بالذات قصدت الوصول، لدي أمر أريد التحدث عنه معكم...

ــ شـــيء طـــريف، وما هو هذا الأمر الذي تريد التحدث عنه معي ــ أجابـــه رئـــيس الأركان وهو يرمقه بنظرة ثاقبة باردة ــ هل يسيء الألمان إليك.

ــ بـــالعكس، الألمـــان لا يسيئون إلي... وأنا قضيت عشر سنوات في السجن بتهمة التخريب.

ــ هـــل تعرف يا غورشكوف أنك تسللت إلى هنا من غير أن يدعوك أحد، وقد أصبح من الصعب عليك الآن أن تعود من حيث أتيت؟

ــ وكيف لا أعرف.. أنا أتيت وروحي على كفي...

تـــبادل رئـــيس الأركان وإيفان سوداريف النظرات، ثم قال الأول وهو يفسح مكاناً على جذع الشجرة:

ــ تعــال اجلــس يــا غورشكوف.. هكذا سنتحدث براحة أكبر. لماذا اخترت مثل هذا الأسلوب المعقد للانتحار؟

جلس بيوتر فيليبوفتش على الجذع المكسور واضعاً كفيه تحت بطنه..

ــ أخــذت.. أخــذت بنظر الاعتبار أنكم لن تصدقوني... لم يكن هناك مكــان أذهــب إليه. البارحة استدعوني وعرضوا عليّ تولي منصب رئيس الــبلدية... عــند الألمان: مبدأ التكافل والتضامن، ولذا قرروا أن يربطوني بجريمة: يوم الاثنين يجب أن أشهد إعدام اثنين من مقاتليكم...

لــم يعــد بإمكــان يفتوخوف أن يظل جالساً في مكانه، فهب واقفاً أمام بــيوتر فيليبوفــتش وصــاح به وقد اعوج حاجباه من الغضب وراح يثقب بنظراته الشقين الكتيمين في وجه محدثه.

ــ تباً لك أيها الشيطان.

قال له إيفان سوداريف: ــ اجلس، هذا بإمكانك أن تفعله عندما تريد ــ ثم توجه إلى الآخر قائلاً: ــ أكمل حديثك يا غورشكوف. إننا نصغي إليك.

ــ ســلفاً أريد أن أقول لكما: إنني بالفعل كنت مخرباً وأُدنت عن حق. ولكن لم أكن منتسباً إلى أية منظمة، بل كانت هذه تهمة ملفقة... كنت حاقداً فقــط... لــم أكــن أصدق أن أولادي سيعيشون جيداً، في يسر ورفاهية... وأننــي، أنا العجوز، سأموت بضمير مستريح، مسامحاً الناس.. كما ينبغي.. وأنني سأدفن في الأرض الروسية بشرف.. لم يكن لدي شعور بالمسامحة.. وصــدف أن نشأت صلة بيني وبين مهندس زراعي وأعطاني هذا الشخص مسحوقاً. فكرت.. فكرت، وقلت في نفسي: هذه الأبقار وهذه الحيوانات التي تطعمنا.. وهذه الخيول... ما ذنبها؟ ورميت المسحوق. لم أرتكب هذا الإثم. وقد أُلقي القبض على المهندس الزراعي وافترى علي في أثناء الاستجواب. وأنــا لــذت بالصــمت مــن الحقد والغضب. قلت في سري: ليكن... هيا انفوني...

قال رئيس الأركان الذي لم يكن قد هدأ بعد: ــ قصة غريبة.

ــ وما وجه الغرابة فيها؟ الإنسان الروسي ليس إنساناً بسيطاً. الإنسان الروسي مخلوق عجيب. لقد ظللت عشر سنوات أعمل في المعسكرات.. فكم من الأفكار أعدت فيها النظر خلال هذه المدة؟ وهكذا قلت لنفسي: أنت الآن تعانــي يا بيوتر غورشكوف.. آ، عفواً، أريد أن أضيف هنا فيما يخص بيت آبائي القديم ذا السقف الحديدي أن براسكوفيا سافيشنا هي القلقة بشأنه، وليس أنــا. فهذه المسألة قد ماتت في نظري منذ مدة بعيدة؛ إذاً من أجل أي حقيقة تعانــي؟ فــي مدينة بوستوزرسك التي كانت قريبة من معسكرنا حُكم على الكاهــن الكبير أفاكوم بالسجن في عهد القيصر الكسي ميخايلوفتش.. قطعوا لســانه لأنــه لم يشأ أن يصمت؛ وقد كتب في سجنه ولسانه مقطوع رسالة موجهــة إلى الشعب راجياً منه أن يعيش كما تملي عليه الحقيقة، وأن يدافع عــن الحقــيقة، حتى النفس الأخير... لقد قرأت كتابات أفاكوم. آنذاك كان لديهــم حقيقــتهم، والــيوم هناك حقيقة أخرى، ولكن الحقيقة... الحقيقة هي الأرض الروسية...

قــال إيفــان ســـوداريف لرئيس الأركان: ــ ما يقوله مُقنِع.. أكمل يا غورشكوف، ادخل في الموضوع.

ــ لــن نتعجل، سنصل إلى الموضوع. الشاب الألماني، الضابط تحدث بــالأمس عــن كلــبه. قال إنه حيوان ذكي ومفيد، وهذا لا يمكن قوله عن الــروس. الألمان يسخرون منا.. آ؟ ــ بسط بيوتر فيليبوفتش فجأة تغضنات وجهه ونظر بعينيه المستديرين الثقيلتين العديمتي اللون إلى مستمعيه ــ إنهم يســخرون من الشعب الروسي: انظروا إلى هذا الشعب الذي لا يغتسل ولا يمشط شعره ويعيش بغباء مطبق: اضربوه حتى الموت ! البارحة كان هناك ضــابط آخر يجس جسد الفتاة أنتونكا كيسيليوفا في الشارع على مرأى من الــناس؛ فتاة جميلة لطيفة، وقد عمد الضابط إلى رفع تنورتها وهو يلهث.. كــيف نفهــم هــذا؟ هل جاء المسيح الدجال؟ هل انتهت الأرض الروسية؟

السلطة السوفيتية سلحت الشعب وقادته إلى المعركة لكي يكف الألماني اللعين عن الهزء بنا.. إنكم، يا رفاق، تقومون بعمل أساسي، شكراً لكم.. السلطة السوفيتية هي سلطتنا، سلطة الإنسان الشعبي الروسي... أنا أغلقت حسابي الشخصي ونسيته منذ مدة طويلة...

استند بيوتر فيليبوفتش بمرفقيه، وغطّى براحة يده جبينه تحت حافة قبعته الفرو وقال:

ـ والآن قررا... إما أن تقوداني إلى الغابة وتطلقا علي النار.. وأنا مستعد لهذا، ولكن هذا سيكون مؤسفاً، أقسم لكما، وإما أن تصدقاني. وأعرض عليكم أن أقدم لكم عنهم كل المعلومات التي أحصل عليها. وأنا سأعرف كل شيء، وسأصل إلى هيئة أركان جيشهم، لدي ما يكفي من المكر. سأعمل بجرأة. أنا لا أخشى الموت ولا أخاف من التعذيب.

هبط إيفان سوداريف ورئيس الأركان يفتوخوف إلى الملجأ الأرضي وتجادلا هناك بعض الوقت. فمن جهة كان من الصعب تصديق مثل هذا الشخص ومن جهة أخرى كان من الغباء عدم الاستفادة من عرضه. خرجا من الملجأ، وقال يفتوخوف بلهجة صارمة لبيوتر فيليبوفتش الذي مازال جالساً على جذع الشجرة:

ـ قررنا أن نصدقك. وإذا خدعتنا سنجدك ولو تحت الأرض... تهلل وجه بيوتر فيليبوفتش ونهض وخلع قبعته منحنياً:

ـ هذه سعادة. سعادة كبرى لي. المعلومات سأرسلها إلى المكان الذي تعينونه مع ابنتي.. فابني يشبه أمه، ضعيف، أما ابنتي فهي تشبهني، طفلة شرسة، كتومة.

عصبوا له عينيه وأخذته الفتاتان اللتان أحضرتاه. يوم الاثنين جاء مثل ذاك اليوم: غائماً وماطراً؛ ومنذ الصباح راح الجنود الألمان يطردون السكان إلى الشارع وهم يصيحون بكلمات غير مفهومة، ويشيرون بأيديهم

نحـــو المجلس الريفي. وهناك، في الساحة الصغيرة حيث كانت توجد حديقة صـــغيرة ينتصب فيها تمثال لينين كان الألمان قد اقتلعوه وحطموه، تنتصب الآن، قائمتان عاليتان ثُبتت عليهما عارضة عُلق عليها حبلان دقيقان ينتهيان بأنشوطتين.

كـــان الجمهـــور كلـــه يعـــرف أنهـــم سيشنقون الكومسومولي ألكسي ســـفيريدوف الـــذي أطلـــق الألمان عليه النار في حرجة الجوز القريبة من القـــرية، وكلافديـــا أوشاكوفا، المعلمة في مدرسة ميدفيدوفكا الابتدائية، التي قبضوا عليها هناك وهي تحاول أن تحمل ألكسي سفيريدوف لتنقذه.

راح الجـــنود يســـوقون الجمهـــور ليحشدوه قرب المشنقة وهم يهزون ذقونهم ويصرخون كما لو كانوا يسوقون قطيعاً في الشارع العام المغبر نحو المدينة لإيصاله إلى المسلخ.

وكـــان المطـــر يســـيل علـــى خوذاتهم الفولاذية، وعلى وجوه النساء المتغضنة، وعلى خدود الأطفال. والوحل ينشج تحت الأقدام، ولم يكن يُسمع وسط الجمهور سوى صيحات بعضهم بصوت ضعيف وسقيم عندما يخزونه برأس الحربة.

أقبلـــت شـــاحنة تقـــف فـــيها المعلمـــة حاسرة الرأس وشاحبة شحوب الأمـــوات، ومعطفها الأسود مفكوك الأزرار، وقد قُيِّدت يداها خلف ظهرها. وعـــند قدمـــيها كان يجلس سفيريدوف شبه حي. لقد كان فتىً متحمساً يقنع المســـتمعين بما يقول، وكان أهل القرية يحبونه، أما الآن فلم يبق منه شيء مـــن شـــدة التعذيب، وكان يجلس متراخياً كالكيس. خلف الشاحنة كان يسير ضـــابطان: الطويـــل ذو النظارة حاملاً آلة تصوير، والوسيم. وكان الاثنان يضحكان بسخرية رزينة وهما ينظران إلى الروس.

وصلت الشاحنة واستدارت واقتربت بمؤخرتها من المشنقة، ووثب إلى ظهـــرها جـــنديان، وفي تلك اللحظة فتحت كلافديا أوشاكوفا عينيها وكأنها

أصيبت بذهول لا يُدرى كنهه، وصاحت بصوت منخفض:

ــ أيها الرفاق، أنا أموت، أبيدوا الألمان، أقسموا لي..

هوى أحد الجنديين بعنف على فمها براحة يده...

وشرع على الفور يدخل رأسها من قفاها بحركة سريعة متعثرة داخل الأنشوطة لتحيط برقبتها الطفلية الدقيقة.

أمـــا ألكسي سفيريدوف الجالس أمامها فقد صاح بصوت مبحوح يمزق القلب: ــ أيها الرفاق، اقتلوا الألمان!

ضـــربه الجـــندي الآخر على رأسه وشرع يدخل رأسه في الأنشوطة. علا صوت البكاء أكثر فأكثر وسط الجمهور. وانطلقت الشاحنة بحركة حادة مفاجـــئة. انجرّت قدما كلافديا أوشاكوفا ومال جسدها وكأنه سيقع، ثم استقام مـــتأرجحاً، وتدلـــت المـــرأة قبل رفيقها من طرف الحبل الدقيق، وقد أمالت رأسها المكشوف نحو كتفها وأغمضت عينيها...

وقـــف بـــيوتر فيليبوفـــتش، رئيس البلدية، في مكان الشاحنة المغادرة، وشاهد الجمهور كله بارتياع كيف نزع قبعته الفرو ورسم شارة الصليب.

لبـــث رئيس الأركان عدة أيام بعد الإعدام ينتظر قدوم ابنة غورشكوف في المكان المتفق عليه: في وهدة وسط دغل بلوط كثيف، ساعة الغسق. وقد جـــاء غورشكوف نفسه. وراح رئيس الأركان ينظر إليه وهو يرتعش بكل جوارحـــه. أمـــا هـــو فقـــد جلس القرفصاء وطفق يروي بصوت منخفض وبالتفصيل كيف حدث الإعدام.

ــ لقـــد فهـــم الشـــعب الحادثة على أن الشخصين اللذين غادرانا هما شـــهيدان عظـــيمان، قدّيســـان.. ووصـــيتهما قبل الموت استقرت في آذان الجميع... أما فيما يخص المعلومات فإنها كالآتي...

وطفق يدلي بمعلومات هامة إلى حد لم يكن الرئيس الأركان ليحلم به. نظر طويلاً إلى غورشكوف بعينين مبحلقين، ثم قال: ــ وإذا كنت تكذب...

لم يرد بيوتر فيليبوفتش، بل اكتفى بأن بسط راحتيه وضحك ساخراً. ثم أخرج من قبعته مخططاً يحدد مواقع مستودعات البنزين والذخيرة الألمانية، وقد أشير إليها بصلبان صغيرة. قال له يفتوخوف وهو يخبئ الورقة في جيبه:

ـ إياك ورسم المخططات. إنني أمنعك منعاً باتاً من فعل ذلك، عليك أن تحفظ كل شيء في ذاكرتك.. بلا أية وثائق! وأنت لا تأت إلى هنا بنفسك ثانية. أرسل ابنتك...

تبين أن معلومات غورشكوف دقيقة. وراحت المستودعات الألمانية تتطاير شظايا في الجو واحداً إثر آخر. وصارت الفتاة آنّا ذات الوجه الأبيض المتجهم تتسلل كل مساء تقريباً إلى الوهدة ناقلة معلومات هامة تارة وقليلة الأهمية تارة أخرى.

وقالت مرة متمتمة بصوت لا مبال كالعادة:

ـ أمرني أبي أن أقول لكم: إنهم قد استلموا رشاشات جديدة. ومفاتيح المستودع موجودة عنده الآن، وستكونون أول من سيتسلمها. تعالوا غداً ليلاً؛ ولكنه يوصيكم بألاّ تطلقوا النار على الحراس بأي حال من الأحوال، بل اذبحوهم ذبحاً...

كان بيوتر فيليبوفتش يعمل بجرأة وجسارة. كان كأنه يسخر من الألمان، ويريد أن يثبت لهم أن الإنسان الروسي مخلوق عجيب فعلاً، وليس للعقل المسطح المحدود أن يباري العقل الروسي الحاد الصاحي الملهم الذي غالباً ما يجهل حدود إمكاناته.

كان الضابطان الألمانيان واثقين بأنهما عثرا على شخص ذكي مخلص لهما كما الكلب لصاحبه. ولكنهما كانا يعيشان في خوف دائم: فأمام بصرهما كانت تحترق المستودعات العسكرية، وتقع كوارث القطارات، وبالذات تلك القطارات التي تنقل جنوداً أو أحمالاً ذات أهمية خاصة. لم يكن ليخطر لهما

بـال، علـى سـبيل المثال، أن نصف الصناديق التي وصلت من وارسو مملـوءة بالرشاشـات والمسدسـات لم يعد موجوداً، وأن الصناديق المغلقة بعـناية التـي أرسـلت من ميدفيدوفكا إلى الجبهة مملوءة بالرمل. ولم يكن للضابط الذي زينت ياقته ببروق الإله "تور" أن يفطن إلى أن الهجوم الغريب الـذي شُـنّ علـى منزله في إحدى الليالي الحالكة كان يهدف إلى اختطاف جعبـته الميدانـية التـي تحـتوي على خارطة رُسمت عليها إشارات بالغة الأهمـية والاحـتفاظ بها بضع ساعات. هو نفسه نجا، ولكنه أصيب بالهلع عـندما دوّى فـي منتصف الليل صوت تحطيم نافذته وسقوط شيء ما على أرض الغـرفة وانفجاره، ولو لم ينبطح في تلك اللحظة على السرير الواطئ لحـدث ما لا يمكن إصلاحه. قفز بملابسه الداخلية إلى الشارع. وكانت تئز فـي أجـواء القـرية أصـوات الطلقات، والجنود يندفعون من داخل الدور متراكضين وهم يصيحون: "الأنصار الأنصار" ويطلقون النار على الظلمة. رأى عند مدخل مسكنه حارسين مذبوحين؛ ولم يفتقد جعبته إلاّ في الصباح، ولكـن سرعان ما أحضرها له بيوتر فيليبوفتش مع حقيبة صغيرة ومعطف عسـكري ملطخ بالوحل. وقال إنه وجد هذه الأشياء هنا في حديقة المنزل، ومن الواضح أن الأنصار قد ألقوا بها عند فرارهم.

إن تعييـن بـيوتر فيليبوفـتش في منصب رئيس بلدية قد كلف الألمان غالياً. ولكنه مع ذلك وقع أخيراً بسبب أمر تافه، أو على الأصح بسبب حقده المتعالـي علـى الألمان. فقد اختلس الختم وأنموذجاً من الأوراق الرسمية، وأخذ من المستودع آلة كاتبة ألمانية وذهب إلى قرية ستاريابودا حيث كانت تنشـط فـرقة أنصـار فاسـيلي فاسيليفتش كوزوبسكي. وقد كتب له مدير المدرسـة باللغة الألمانية بطاقة سماح بدخول المدينة والوصول إلى رئاسة أركـان الجـيش. ولكـن علـى الرغم من أن فاسيلي فاسيليفتش يجيد اللغة الألمانـية، إلاّ أنـه ارتكـب خطـأ نحويـاً. وقد أدّى هذا إلى افتضاح أمر غورشـكوف. اعتقلوه وأعادوه إلى ميدفيدوفكا مع البطاقة المزورة. ولم يشأ

الضابطان، الطويل والوسيم، أن يصدقا مثل هذا المكر الروسي العصي على الإدراك. ولكنهما فيما بعد امتلأا غيظاً وحنقاً، وأدركا الآن كنه كل شيء...

حدث هذا في تلك الأيام التي اخترق فيها الجيش الأحمر الجبهة الألمانية في أحد المواقع وطرد الألمان من البلدات والقرى هناك. وكان الأنصار هم أول من اقتحم قرية ميدفيدوفكا المحتلة. في الشارع اقتربت آنا من يفتوخوف، كان شعرها مشعثاً ومتلبداً في كتلة واحدة محشوة بالتراب، وقد استطال وجهها العجائزي المغبر، وتمزق ثوبها عند الركبتين.

ـ هل تبحثون عن أبي؟

ـ نعم، نعم، ماذا جرى له؟

ـ الألمان أحرقوا دارنا وقتلوا أمي وأخي، وظلوا يعذبون أبي أربعة أيام، وهو مازال حياً، مُعلقاً، تعالوا معي.

سارت آنا أمام يفتوخوف ذابلة منهكة، واتجهت نحو بيت غورشكوف القديم ذي السقف الحديدي. التفتت وفتحت فمها بصعوبة لتقول:

ـ لا تظنوا أن أبي قد قال لهم شيئاً...

في حظيرة الأبقار كان غورشكوف معلقاً على عارضة وليس عليه سوى سرواله الداخلي الذي تتدلى منه قدماه المرخيتان الزرقاوان؛ كان جذعه المعوج مغطى كله بآثار السياط، ويداه مربوطتين خلف ظهره، وأضلاعه بارزة، وقد أُدخل خطاف في صدره من الناحية اليمنى... كان معلقاً على العارضة من ضلعه..

وعندما نادى يفتوخوف رجاله وحاول رفعه لكي يُخفف آلامه قال بيوتر فيليبوفتش وكأنه ليس في وعيه:

ـ لا يهم.. إننا روس.

□□□

مقدمة استجواب

"ف.م.دوستويفسكي"

بقلم:

لُبا جُرجِنْسونْ

■ ترجمة : عوض الأحمد■

عن الفرنسية

((حكمت المحكمة العسكرية على المتهم "دوستويفسكي" بأنه مذنب لاستلامه في آذار من هذه السنة من قبل المتهم "بليشييف" من "موسكو" نسخة عن الرسالة الإجرامية للناقد الأدبي "بيلنسكي" وقراءة هذه الرسالة في اجتماعات: أولاً في بيت المتهم "دوروف" وبعد ذلك في بيت المتهم "بيتراشيفسكي" وأخيراً لأنه عهد بها إلى المتهم "مومبيللي" لإعادة نشرها من جديد ولهذا فإن الضابط المتقاعد "دوستويفسكي" لعدم ابلاغه السلطات بانتقال رسالة "بيلنسكي" المهينة للدين وللحكومة حكم عليه بعقوبة الموت مع مصادرة الأموال والتجريد من الحقوق.

لم يكن "دوستويفسكي" حينذاك قد كتب أية رواية من الروايات الكبيرة التي ستجعله مشهوراً ورغم ذلك فهو معروف سابقاً بفضل قصة "الناس الفقراء" المثمنة من "بيلنسكي" و "بيتراشيفسكي" والجنرال "روستوفتسيف"

الذي يدير الاستجواب.

فقد قال له هذا الأخير: ((لا أستطيع أن أصدق بأن الإنسان الذي كتب "الناس الفقراء" يكون مرتبطاً بهؤلاء الأشخاص الفاسدين. هذا مستحيل فاتهامك ضعيف وأستطيع العفو عنك باسم عاهلنا بشرط أن تحدثنا عن كل القصة)).

وبما أن "دوستويفسكي" قد سكت فإن الجنرال خرج على عجل وانزوى في الغرفة المجاورة مغلقاً إياها بالمفتاح وصارخاً: هل خرج؟ أخبروني بخروجه فلم أعد أطيق رؤيته!".

بنى "دوستويفسكي" دفاعاً مؤثراً ومتكرراً لحرصه على الوضوح والدقة المكروبة. وحدسه بمصيره حينئذ جعل وجه "دوستويفسكي" الإنسان يتجلى بقوة غريبة وأظهر أيضاً وجه عدالة تعسفية لم تنجح رغم تعسفها في تشويه معنى الشرف عند الإنسان ولا تشويه الحرص على الحقيقة. طوال مدة الاستجواب كلها، بقي هذا همه الأول وانتهى بالهيمنة حتى على الاهتمام بإنقاذ حياته. ولا يعني هذا أن "دوستويفسكي" قام بإفشاء جدير بإضاعته هو ولا بإضاعة الآخرين. بل على العكس لقد توصل إلى إخفاء بعض الأشياء الأساسية. فمن الغريب مثلاً أن لجنة التحقيق المهتمة بفكرة مطبعة غير قانونية تسقط جانباً الدليل المادي الوحيد على وجود هذا المشروع. وفي عام 1885 وهذا يعني بعد ثلاثين سنة من الدعوى كشف "مايكوف" أنه في سنة 1848 زاره "دوستويفسكي" وأبلغه بقرار بعضهم في إنشاء مطبعة غير قانونية وأنه أي "مايكوف" رفض المشاركة فيها. (("دوستويفسكي" مثل "سقراط" وهو يموت كان جالساً على السرير في قميص الليل بقبة مفكوكة الأزرار وضع كل بلاغته في الكلام عن هذا المشروع المقدس وعن واجبنا في إنقاذ الوطن الخ..)) وتمّ الإيصاء على مطبعة يدوية وفقاً لرسم قام به "فيليبوف". وقبل يومين من توقيف المجموعة تمّ تعشيق هذه المطبعة في شقة "موردفينوف". وعند التفتيش بما أنه كان يوجد أجهزة وأدوات أخرى

فإنهـــا بكل بساطة لمْ تثر الانتباه. ونجح أهل "موردفينوف" في دخول الشقة دون كسر الأختام وإخفاء المطبعة.

إن الشـــباب المحكوميـــن وكذلك ((توبة العديد من بينهم)) وأخيراً كون أعمـــالهم الإجراميـــة لـــم تقـــع لها نتائج ضارة أو بالأحرى جهل المحققين المتعلق ببعض جوانب القضية أمور لعبتْ دوراً لمصلحتهم وبناء على طلب العفـــو الموجـــه إلـــى القيصـــر "نـــيقولا الأول" فقـــد كتب هذا فيما يخص "دوستويفســـكي": ((أربـــع ســـنوات أشغال شاقة وإنزال الرتبة بعد ذلك من ضابط إلى جندي)).

حينئذ غادر المحكومون قلعة بطرس وبولص حيث كانوا محتجزين منذ ثمانية أشهر ونفوا إلى "سيبيريا".

إلى السيد الجنرال الكونت "أورلوف".

من قبل قائد قلعة "سانت بطرسبرغ".

تقرير

طـــبقاً لإرادة ســـموه الإمبراطوري فإن المجرمين المحتجزين في قلعة "سانت بطرسبرغ" شطبوا من لائحة المساجين؛ فهذا المساء أرسل "دوروف" و "دوستويفســـكي" و"جاســـتر زيمســـكي" إلـــى "توبولســـك" مقيدين برفقة "بروكوفيـــيف" ضـــابط من فيلق قناصة المشاة مع ثلاثة من رجال الدرك. وأرســـل "بليشـــييف" إلى "أورانبورغ" برفقة "لييتر" ضابط من فيلق قناصة المشـــاة وأرســـل "أخشاروموف" إلى "خيرسون" برفقة "فيراندير" ضابط من فيلق قناصة المشاة ودركي. وهذا ما أتشرف بتبليغه لعطوفتكم.

توقيع: الجنرال "نابوكوف"

مصادق عليه أمين سر كلية "فاسيلييف"

ومن المؤكد أن حكم الإعدام وإخراج مشهد التنفيذ في 22 كانون الأول

عـــام 1849 وكذلـــك ســـجن الأشغال الشاقة لعبت دوراً أساسياً في مصير "دوستويفســـكي". ورغم ذلك لا يجب أن نستنتج من هذا انفصاماً جذرياً في شخصـــيته وانقلابـــاً كاملاً. فبطريقة ما بقي "دوستويفسكي" صادقاً مع نفسه رغـــم التـــناقض الظاهري بين هذا الذي كان يقرأ رسالة "بيلنسكي" في بيت "بيتراشيفسكي" ومؤلف يوميات كاتب.

إن الـــرؤى المحافظـــة والملكـــية التي طورها "دوستويفسكي" فيما بعد ليست بالضرورة متعارضة مع فوضويته الشخصية والروسية نموذجياً.

إن رفـــض الدولة ورفض السلطة في "روسيا" غالباً ما تلاءما مع فكرة النظام الملكي. والرغبة في "التغيير من الأعلى" مختصة بالفكر الروسي وما تزال حية بالتأكيد اليوم ((لأن من يستطيع أن يرغب في الثورة الروسية))؟

الوثـــيقة التـــي ننشرها هنا للمرة الأولى باللغة الفرنسية هي استجواب "دوستويفسكي" الذي جرى في 8 و 11 و17 و20 حزيران عام 1849.

هذه الوثيقة موجودة في "دوستويفسكي"، "المؤلفات الكاملة"، الجزء 18، إصدار "ناوكا"، "لينينغراد" 1978.

لم يسبق نشره.

التحقيق الرسمي "دوستويفسكي"

في قلعة بطرس وبولص حزيران عام 1849

تفضـــل وأجـــب بوضـــوح وإيجاز وبكل صدق على الأسئلة التمهيدية المعروضة عليك من لجنة التحقيق:

-ما هو اسمك ولقبك واسم عائلتك؟ ما هو عمرك؟ وما هو دينك وهل قمت بجميع الطقوس المقررة في دينك في الوقت المحدد؟

-"فـيدور ميخائيلوفيـتش دوستويفسـكي"، سبعة وعشرون عاماً ديني الأرثوذكسـية والشعائر الإغريقية الروسية. أنجزت في الوقت المطلوب كل الشعائر المقررة في ديني.

-مـن هـم أهلك وهل هم على قيد الحياة، إذا كانت الإجابة نعم فأين يسكنون؟

-كـان والـدي نقيب الأطباء "دوستويفسكي" وعضواً في الكلية وكانت والدتي سليلة عائلة من التجار وكلاهما توفي.

-أين وعلى حساب من قمت بدراساتك ومتى أنهيتها؟

-في "مدرسة المهندسين الكبرى" وعلى نفقتي الخاصة وأنهيت الدراسة بصفة ضابط عام 1843.

-هـل تعمل؟ وإذا كانت الإجابة بنعم فمنذ متى؟ وما هو المركز الذي شـغلته ومـا هي درجتك؟ هل حوكمت أمام القضاء وإذا كانت الإجابة بنعم فلماذا؟

-فـي عـام 1843 بـدأت العمل في مكتب الرسم التقني في مديرية الهندسة واستقلت في عام 1844 برتبة ملازم أول. ولم أحاكم إطلاقاً.

-هل تملك عقارات أو ثروة شخصية؟ وفي حال النفي فما هي مواردك وموارد أسرتك إذا كان عندكم أحد هذه الموارد؟

-بعـد وفاة أبوي فإنني وأشقائي ورثنا ملكية تتضمن حوالي مائة نسمة وتقـع فـي منطقة "تولا" ولكن في عام 1845 وبالاتفاق مع عائلتي تنازلت عـن حصـتي في الميراث مقابل مبلغ من المال. وحالياً لا أملك عقاراً ولا ثروة شخصية. عشت وأعيش إلى هذا اليوم من أعمالي الأدبية.

-من هم الذين كانوا أقرب معارفك والأكثر معاشرة بانتظام؟

-لـم تكن لي علاقات بثقة تامة مع أي شخص. باستثناء أخي "ميشيل

دوستويفسكي" المهندس الملازم المحال على التقاعد. ومع ذلك كان لي معارف عديدون. وبخاصة كنت أتردد على عائلة الرسام "مايكوف" والدكتور "لانوفسكي" و"دوروف" و "بالم" و"بليشييف" و"غولوفنسكي" وكنت أرى غالباً أخي "ميشيل" والدكتور "لانوفسكي" الذي يعتني بمرضي منذ سنتين. وكذلك "أندريه اليكسندروفيتش" بما أنني أساعد في عمل مجلته (أخبار الوطن).

-من الذين كنت تعرفهم في المدن الأخرى وفي الخارج؟

-زيادة على زياراتي البطرسبرجية كنت أرى عائلتي في "موسكو" وفي الخارج لم أكن أعرف أي شخص.

-منذ متى تعرف "بيتراشيفسكي"؟

-منذ ثلاث سنوات تماماً رأيته المرة الأولى في ربيع عام 1846.

-من الذي حثك على معرفة "بيتراشيفسكي"؟

-تعارفنا صدفة. إن لم أخطئ فقد وجدت نفسي مع "بليشييف" في بهو الشاي قرب جسر الشرطة وكنت أقرأ الصحف. رأيت "بليشييف" يكلم "بيتراشيفسكي" لكنني لم أكن أرى جيداً وجه هذا الأخير وفيما بعد خرجت بعد خمس دقائق. وقبل أن أصل إلى الكورنيش الكبير لحق بي "بيتراشيفسكي" وسألني فجأة: ((هل أستطيع معرفة موضوع روايتك القادمة؟)) وبما أنني في بهو الشاي لم أره جيداً ولم يوجه عندئذ إليّ الكلام فقد اعتقدت بأنه كان شخصية مجهولة وليس من معارف "بليشييف".

وبوصول "بليشييف" تماماً في تلك اللحظة زالت دهشتي. لقد تبادلنا بعض العبارات وبوصولنا إلى الكورنيش الصغير افترق بعضنا عن بعض وهكذا فقد أيقظ "بيتراشيفسكي" فضولي منذ لقائنا الأول.

وفي الغد سافرت إلى "روفيل" ولم أره إلا في الشتاء. لقد أحدث لدي انطباعاً بأنه رجل أصيل وليس على الإطلاق رجلاً فارغاً. لقد لاحظت بأنه

كـــان أديـــباً ومثقفاً ولم أزره للمرة الأولى إلا عام 1847 في وقت الصوم الكبير.

-هل ذهبت غالباً إلى سهراته؟

-فـــي الســـنتين الأوليين ذهبت إلى هناك قليلاً جداً. كان يحدث لي أن أتـــرك ثلاثـــة وأحـــياناً أربعة أشهر تمضي أو أكثر دون أن أذهب إلى تلك الســـهرات، في الشتاء الأخير ذهبت غالباً أكثر ولكن أبداً ليس أكثر من مرة واحـــدة في الشهر. كانت زياراتي غير منتظمة: أحياناً أحضر سهرتين على التوالي ثم كنت لا أعود خلال شهر. فمثلاً في آذار لم أكن هناك. وكان قسم كبير من زياراتي بسبب الفضول وأيضاً لأنني كنت أقابل فيها أناساً أعرفهم. وكان يحدث لي أن أشارك في حديث أو مناقشة كانت تظل غير تامة عندئذ كان المجيء إلى السهرة التالية يستهويني.

-كم كان عدد الأشخاص في هذه السهرات؟ من كان يرتادها بانتظام؟

-كـــان يوجـــد عشرة، خمسة عشر، عشرون وحتى خمسة وعشرون شخصـــاً أحـــياناً. لا أعـــرف جمـــيع الأسماء، فمثلاً أسماء "اخشاروموف" و"برســـتوف" بقيت مجهولة بالنسبة لي حتى توقيفي. ومن بين هؤلاء الذين كنـــت أعرفهم عن قرب كان يوجد "بليشييف" و "دوروف" و"بالم". ولم أدخل إلى بيت "بيتراشيفسكي" إلا غولوفنسكي وأخي؛ غولوفنسكي رحل إلى قازان وبيتراشيفســـكي الـــذي بلغه رحيل غولوفنسكي عن طريقي أراد أن يحمله رســـالة معـــه فعرضـــت اصـــطحاب "غولوفنسكي" إلى بيته. ولئن جعلت "غولوفنســـكي" يأتـــي إلـــى هـــناك فلأنـــه كان قد سمع سابقاً الحديث عن "بيتراشيفســـكي" وكـــان قد طرح عليَّ أسئلة بشأنه. لقد فعلت ذلك فقط لأدله علـــى "بيتراشيفسكي" وأصدقائه لعلمي بأنه قبل رحيله لن يكون هناك سوى أمســـيتين. وبالتالـــي لن أكون فرضت على أي منهما علاقة يمكن أن تبدو مـــزعجة أو بغيضـــة بمـــا أن هذه العلاقة لن تدوم، فلم يكن "غولوفنسكي"

هناك إلا مرتين.

أما بالنسبة لأخي "ميشيل دوستويفسكي" فإنه أيضاً عرف "بيتراشيفسكي" عن طريقي في الوقت الذي كنا نسكن فيه معاً.

كـــان ذلك عند عودته من "روفيل". ففي بيتي قابل "بيتراشيفسكي" وهذا الأخـــير دعـــاه إلـــى سهراته. لقد اصطحبت أخي إلى هناك لتسليته ولجعله يعـــرف الـــناس لأنـــه عملياً كان وحيداً في "بطرسبرغ" وكان يشتاق كثيراً لعائلته.

ولم يشترك أخي أبداً في المناقشات ولم أسمعه مطلقاً يتلفظ بكلمتين.

وكان الذين كانوا يترددون على "بيتراشيفسكي" يعرفون ذلك.

كان يذهب أقل مني إلى هناك وبسبب الفضول فقط.

لكـــن أيضاً لأنه أب لعائلة متواضعة الحال ويشتغل كثيراً ويرفض كل المـــتع فهـــو لا يستطيع التخلي عن هذه التسلية الوحيدة التي بفضلها احتفظ بنطاق معارف ضيق. وبدون هذا فهو سيكون منغلقاً على ذاته تماماً.

أقول هذا ليكون واضحاً أن أخي عرف "بيتراشيفسكي" عن طريقي.

فأنـــا المذنـــب بهذه المقابلة وكذلك أنا المسؤول عن تعاسة أخي وعن تعاسة عائلته. لأنه طوال هذين الشهرين لئن عانينا أنا والمتهمون الآخرون مـــن الهـــم والقلـــق الشديد فإنه قد عانى آلاماً فظيعة. فهو ذو بنية ضعيفة ومعـــرَّض للسل الرئوي. وبخاصة أن مصير أسرته الضائع المحكوم عليها حرفـــياً فـــي غيابه بالموت من الهم الشديد والحرمان والجوع يعذب روحه ولهـــذا كان توقيفه عقوبة شديدة له في حين أنه أقل جرماً منا جميعاً. وكان يجـــب أن أقول هذا لأنني أعلم بأنه ليس مذنباً في شيء ليس فقط في الكلام ولكن حتى في الفكر.

-عند اجتماع 25 آذار والذي كان موضوعه تحرير الفلاحين قيل بأن واجـــب كان واحد كل العمل على تحرير هؤلاء الضحايا المضطهدين غير

أن الحكومـــة لـــم تكن تستطيع تحريرهم لأنها كانت حينئذ ستلتزم بإعطائهم أراضي عن المالكين ولم تكن تملك وسائل لذلك.

إذن فلو أن الحكومة حررت الفلاحين دون أن تمنحهم الأرض ولو أنها لم تكن عوضت مالكيها فإنها كانت ستعمل بطريقة ثورية هذا الكلام لا يقول كـــيف يحرر الفلاحون دون إرادة الدولة. تفضل واشرح لنا لإجراءات التي تعنيها؟.

-ســـمعت هـــذه المناقشة وأتذكر كلام "غولوفنسكي". كان يتكلم بحمية ولكنني لا أتذكر أبداً أنني سمعته يقول بأن التحرير قد يتم بثورة.

أشـــهد بأنه ترك بعضنا بعضاً دون أن نوضح هذه المسألة. وانتهى كل شيء بنقاش كبير.

في الشرح الذي أعطيته شفهياً اعترف بأن "غولوفنسكي" لم يكن يستبعد ثورة تلقائية للفلاحين الذين يعون خطورة وضعهم هذا بالتأكيد ما سُئلت عنه لكنـــي لـــم أدرك فـــي بدايـــة الأمـــر معـــنى السؤال. يجب أن أضيف أن "غولوفنســـكي" لـــم يعبر قط عن أمنية إذ أنه لم يكن يعمل إلا على تسجيل الواقـــع. لأنه لو قبل مثل هذه الإمكانية لكان هو نفسه بعيداً عن الثورة وعن الفعل الثوري: هذا ما بدا لي عند نقاشاتنا.

الوقـــت الحاضر أتذكر جميع المناقشات ومع ذلك فإنني لم أسمع كلاماً من هذا النوع.

تـــناول "غولوفنســـكي" الكـــلام في موقفين. في المرة الأولى أشار إلى أهمـــية مســـألة الفلاحيـــن قـــائلاً بأن كل العالم يهتم بها وبأنها جديرة فعلاً بالاهتمام.

وفي المرة الثانية مجيباً على "بيتراشيفسكي" فقد دافع عن الفكرة القائلة بـــأن حـــل هذه المسألة أهم من الحصول على إصلاح في العدالة والرقابة. هاتان المداخلتان كانتا مختصرتين فالأولى دامت تقريباً عشر دقائق والثانية

ليس أكثر من ربع ساعة وذكرياتي في شأن ذلك واضحة إنه لم يتكلم إلا في مشكلة الفلاح وزد على ذلك فهو لم يستطع أن يتناول موضوعاً آخر في زمن قليل جداً. ومن أجل تناول موضوع مثل تغيير الحكومة ومعالجته بالتفصيل فإنه كان يجب أن يعطي بضع كلمات عن رأيه الشخصي حول مثل هذا الموضوع الهامّ.

إذا فالمسألة كما صيغت تفترض أن يكون دخل في التفاصيل بل وأن يكون عرض إجراءً أعني إنشاء دكتاتورية وفي هذه الحالة كان ملزماً أن يقول كلمتين على الأقل حول الدكتاتورية موضوع المسألة.

إذن أكرر بأن هذا ليس فقط كان سيقوده بعيداً عن الموضوع المختار ولكن بالإضافة إلى ذلك يكون قد عالج مسألة لم يجر ذكرها قبل أن يتناول الكلام. ولم يكن يستطيع أن يفعل ذلك إلا إذا قدمت له ذريعة والحالة لم يقدم له أحد ذلك. وأخيراً فإن مداخلته كانت ستتجاوز ربع الساعة أو حتى عشرين دقيقة. (فيما يتعلق بمدة مداخلته أثق بذاكرتي وآمل أن لا يقول شخص عكس ما قلته). إذن حتى لو قال شيئاً مشابهاً فإنه كان وسط كلام آخر ودون أن يعلق عليه أية أهمية، إذن يجب أن لا ندهش إطلاقاً لأنني ليس فقط استطعت نسيانه ولكن لم أستطع فهمه لأول وهلة. وبالإضافة إلى ذلك فإنني أعتقد بأنه لم يتلفظ بهذه الكلمات بل شيء عن تغيير الحكومة بشكل عام وليس بالضرورة حكومتنا كتبت في ما مر ذكره ((حتى لو أنه قال شيئاً مشابهاً)) فأنا لا أزعم أن الشهادة ضد "غولوفنسكي" كاذبة. أريد ببساطة أن يُفهَم إلى أي حد بُولغ في أهمية كلمات "غولوفنسكي" هذه (في الحالة التي قيلت فيها) (....) قلت آنفاً بأنني كنت أعرف "غولوفنسكي" شخصياً وأنني أعرف أفكاره. لم أسمعه أبداً يعبر عن الرغبة في تحقيقها بواسطة ثورة ولا بشكل آخر من العنف. واليوم أصرُّ على أنه لم يتلفظ مطلقاً بحضوري بكلمة واحدة حول تغيير الحكومة (...). والآن اذكر إحدى محادثاتي مع "غولوفنسكي" والتي جرت في بيتي. تكلمنا عن الفلاحين وعن

تحريرهم الممكن. وبما أن هذه المسألة تهمني كثيراً فقد سألت "غولوفنسكي" ماذا ستكون حسب رأيه وسيلة تحرير الفلاحين بدون تدمير المالكين، وبتعبير آخر كيف سيمكن التعويض لهؤلاء الآخرين. كنت أقصد أنه لا يمكن حل المشكلة بخلاف ذلك لأن المالك اليوم لم يكن هو نفسه قد استرقّ الفلاحين. لقد حصل ذلك قبل قرنين ولم يكن ذلك خطأه. والحالة هذه فإنه في التخلي عن حقه على الفلاحين سيخسر اليد العاملة ورأس ماله.

وأتذكر تماماً بأن "غولوفنسكي" كان موافقاً وحتى أنه أجابني بأنه لم يكن يرى ما يمكن أن يمنع من التعويض على المالكين وعندئذ حدثني عن إجراء مالي يقضي بدفع هذا المبلغ موزعاً على بضع سنين ولكنني لم أعد أتذكر أي إجراء كان يقصد بالضبط.

-معلوم أن "بيتراشيفسكي" في اجتماع 15 نيسان تكلم عن المسألة القضائية ومنحها المكانة الأولى وفي جملة ما قال أن إصلاح العدالة سيعمل على إظهار كل العيوب الأخرى وأنه لا ينبغي الشروع بثورة مسلحة ما دامت غير مضمونة النجاح، وأنه يمكن الحصول قانونياً على إصلاح قضائي بالطلب إلى الحكومة القيام بإجراءات لا تملك أن ترفضها لملاءمتها وبمجرد الحصول على مثل هذا الإصلاح يمكن المطالبة بتغييرات أخرى. أشرح هذا القول وأشر في أي مناسبة قرأت في هذا الاجتماع رسالة "بيلنسكي" إلى "غوغول".

-بما أن هذا الكلام متفق مع أفكار "بيتراشيفسكي" فمن المحتمل أن يكون قائله. بالنسبة لي بعد قراءة الرسالة كنت أجد نفسي في غرفة أخرى مع، إن لم أخطئ "كايدانوف" و"بالم". قرأت هذه الرسالة لأنني كنت اقترحتها عندما رأيت "بيتراشيفسكي" في بيت "دوروف". كنت قد التزمت ولم أعد أستطيع التراجع عن وعودي. وذكرني "بيتراشيفسكي" بها منذ يوم الجمعة التالي ومع ذلك فهو لم يكن يعرف ولم يكن يستطيع أن يعرف مضمون هذه الرسالة.

قرأتها محاولاً ألاّ أنحاز لا إلى هذا ولا إلى ذاك. وبعد القراءة لم أتكلم عنها لأحدٍ من مَدعوِّي "بيتراشيفسكي". أما بالنسبة لهم فلم يبلّغوني أي رأي حول هـذه الرسالة. وبينما كنت أقرأ كنت أسمع أحياناً هتافات وضحكات لكنني لا أستطيع القول من أين كانت تأتي ولا إعطاء أي انطباع عام.

أعترف بأنني تصرفت بطريقة متهورة.

وبعد تفكير أكثر نضجاً في المسألة أشعر أنني ملزم بتوضيح إجابتي. إن المسألة جرى ذكرها بجملة واحدة نُسبت إلى "بيتراشيفسكي" ((لن يتوجب الشروع في ثورة مسلحة ما دام النجاح لن يكون مضموناً)).

وإذا قلت بصراحة أكثر أن هذا الكلام كان متفقاً مع أفكار "بيتراشيفسكي" فلأن "بيتراشيفسكي" كان يرغب برؤية تغيير وتحسين النظام القضائي وهذه الرغبة كانت تأتي عنده قبل جميع الرغبات الأخرى. أما بالنسبة للجملة حول الثورة المسلحة فواجبي هو أن أؤكد بأنني لم أسمع مطلقاً "بيتراشيفسكي" يصوغ مشروع عصيان مسلح سواء كنا منفردين أو في مناقشة عامة. إني أجهل رأي "بيتراشيفسكي" حول هذا الموضوع ولا أستطيع القول بأن هذا الكلام متفق مع أفكاره.

ولما كنت في الغرفة الأخرى أثناء مداخلته لا يمكنني أن أؤكد شيئاً حول موضوع هذه الجملة. لكنني أخمن وأفترض بأن الموضوع لم يكن يتعلق بأي مشروع وإنما ببرهنة بسيطة بأن الثورة المسلحة كانت مستحيلة.

ولقد اقتنعت بذلك لرؤيتي أكثر من مرة أن "بيتراشيفسكي" لم يكن يتقبل الكلام العنيف أو عدم التبصّر في هذه الاجتماعات.

ولاحظت أيضاً أنه كان يحاول دائماً أن يستدرك الحماقة والكلمة المخالفة للصواب.

ولا يجب الاستخلاص من ذلك أنني أستطيع أو أريد أن أجيب عن "بيتراشيفسكي" فيما يتعلق بمقاصده الخفية (التي لم أكن أعرفها) أو بأفكاره

الخاصة. ربما يستوجب عليّ أن أعترف بأنني كنت لا أزال أعرفه أقل مما كنت أعتقد كما أني لا أسعى لتبرير أفكاره تلك التي أعرف فالتوضيح الذي قدمت ليس له هدف آخر إلا الإنصاف ويجب أن أقول الحقيقة ولهذا أكرر بأن "بيتراشيفسكي" لم يكن ليتفوّه بكلام عنيف في واحدة من سهراته ولم يكن يتلفظ بكلمات مثل "الثورة" أو "العصيان المسلح" للتعبير عن رغبة.

لأنه عندئذ هذه الكلمات المأخوذة بمعزلٍ ستقدّم لهم وحدها موضوع نهار الجمعة التالي.

أكرر وأؤكد بأن اجتماعات "بيتراشيفسكي" لم تكن من طبيعة تسمح بنقاش عن الثورة في ذكرياتي لم أجد أي تدخل من هذا الطابع ولا حتى أية فكرة سواء عبّر عنها "بيتراشيفسكي" بنفسه أو أي واحد من زواره. وأخيراً إني مقتنع بحزم أنه حتى لو سمح "بيتراشيفسكي" لنفسه بمعالجة هذا الموضوع أو أنه كان قد ترك واحداً آخر يشرح بالتفصيل فكرة من هذا النوع لما أتى أي واحد في يوم الجمعة التالي.

على الأقل أنا أضمن هؤلاء الذين أعرفهم ولا أتكلم عن مقاصد خفية ولا عن مشاريع خاصة لـ "بيتراشيفسكي" ولمدعويه (مشاريع لا أستطيع إلا افتراض وجودها) فأنا لا أسعى بإنكار هذه المشاريع إلى تبرير سهرات "بيتراشيفسكي". أريد ببساطة أن أستنتج قائلاً بأن "بيتراشيفسكي" ومدعويه لم يكونوا حمقى إلى حد تدبير مؤامرة حتى ولو كانت هذه رغبتهم (ولكن لا شيء يثبت أن هذه هي الحال ولا أؤكدها إطلاقاً) بطريقة صريحة ومتهورة وطائشة.

- بصرف النظر عن هذه الأحاديث. ألم تسمع عند "بيتراشيفسكي" كلاماً مهمّاً يتعلق بالحكومة ومن الذي صدر عنه هذا الكلام؟

-لا أتذكر أية أحاديث وبخاصة الهامة ما عدا تلك التي كان لي شرف توضيحها والتي شغلت عملياً كل أيام الجمعة من الشتاء الأخير بدءاً من

شهر أكتوبر ومع ذلك فأنا لا أستطيع الكلام إلا عن الأمسيات التي حضرتها شخصياً.

عند "بيتراشيفسكي" لم تكن تُقدَّم بيانات على حد قوله، كان يعطي الكلام أساساً لهؤلاء الذين كانوا يعبرون عن رأيهم ضد قناعات الأغلبية لكي لا تطول احتجاجاتهم ولكي لا تعكّر النقاش عبثاً. ولكن في أكثر الأحيان وبخاصة بعد المداخلة كنا ننقسم إلى مجموعات صغيرة وحينئذ يكون الحديث متبادلاً في المناقشات التي لا يمكن أن تحفظ حتى ولا يمكن أن تفهم أحياناً. قسم كبير من الكلام المذكور في المسائل قيل دون شك في هذه المحادثات الخاصة. ولكن لتدعوني أقول كلمة في هذه المداخلات وهذه المناقشات. عندنا لم يعتد شخص أن يتكلم علانية ولا يجيد فعل ذلك كذلك فإن هذه الممارسة المعتمدة فقط لتجنب الصخب كانت تقلق بجدّتها. لاحظت أكثر من مرة أن المحاضر كان يلجأ إلى الحيل كي يتشجع ولم تكن تلك الحيل قط من طبعه ولا من عاداته. من هذه الحيل الكلمة الطيبة والسخرية والإضحاك والنقد اللاذع والخروج غير المتوقع وكانت انفجارات الضحك من جميع الجوانب تحرض هذا الذي يتكلم. ومثل أي إنسان فهو يحتد ويضاعف العنف ويستسلم إلى الشغف المتصنع، إلى السخط وحتى إلى العدوانية ولا وجود لهذه الأمور في قلبه. لأنني غالباً رأيت ذلك حقاً فالخطيب هو إنسان من أكثر الناس لطفاً وتواضعاً. ولكن الغرور حاضر لإسكاره والرغبة في أن يعجب كل الناس تفرض عليه أحياناً قبول فكرة لا يقتنع بها حقاً على أمل أن لا تَمَسّ تلك الأفكار التي يهتم بها كثيراً. وأخيراً يمتزج بذلك حب الذات فيثير رَجُلَنا ويدفعه إلى طلب الكلام عدة مرات في السهرة ذاتها ثم انتظار السهرة التالية بفارغ الصبر لينتصر على منافسيه. وباختصار، بالنسبة للكثيرين وحتى بكل صدق بالنسبة للأغلبية، فإن هذه السهرات وهذه المداخلات وهذه المناقشات لم تكن الشغل الأهم الذي يمكن أن تكونه ألعاب الورق والشطرنج الخ... التي هي أيضاً تثير الرجال وتفعل

فعلها في الأهواء ذاتها الكبيرة منها أو الصغيرة.

وبحسب رأيي فإن العديد من هؤلاء هم الذين يعاندون وتعمى بصائرهم ويـربكون أنفسهم ذاتها. وفيما يتعلق بالأحاديث في المجموعات كان الشيء ذاتـه -فبمجرد أن ينهي المحاضر عرضه، كل ما كان قد تكدس وكل ما لم يكـن قد قيل وكل ما ثار في العقول كجواب على طول مداخلته التي يجب الإصـغاء إلـيها دون كلمة تقال، كل هذا كان يخرج الآن بكثير من العنف لاسـيما وأن الخطـاب كان طويلاً، والمتعاطفين معه عديدون والمناهضات الشخصية قوية وعندئذ كانت تفلت كلمة قاسية وفكرة غير متبصرة وغريبة جداً عن الشخص الذي عبّر عنها حتى إن هذا الشخص في الغد بدون شك، إن لم يكن في الساعة التالية، كان سيعتذر عن كلمته تلك ويتمنى أن يصحّح مـا كـان قـد قالـه لكن بعد فوات الأوان. وإضافة إلى ذلك فإن سهرات "بيتراشيفسـكي" كانـت تمضـي كاجتماعات أصدقاء وليس نادياً ولا مكاناً لاجتماعات سياسية منظمة.

أنـا أؤيـد ذلـك وهاهو السبب. حتى لو أن شخصاً ما (والأمر يتعلق بافـتراض) كـان يـريد المشاركة في اجتماعات سياسية أو في نادٍ أو في جمعـية سـرية فإنه بدون شك لن يخلط بينها وبين سهرات "بيتراشيفسكي" حيـث لا تجري إلا الثرثرة حتى لو ارتفعت النبرة فيها أحياناً بسبب سمتها الوديـة والعائلية. في تلك السهرات حيث التنظيم الوحيد فيها أن يعمل على قـرع الجـرس لطلب الكلام، كانت كذلك بالضبط لأن هذه السهرات ودية وعائلـية يـتكلم المـرء فيها دون أي تحفظ وعلى نحو ما كان ليفعله أمام جمهور.

وإذا كان يجب الحكم على الناس من أجل أفكارهم الأكثر سرية أو من أجـل مـا قـالوه في نطاق الأصدقاء المقربين جداً، عندما يتكلمون وكأنهم وحدهم تماماً، فمن لا يكون مذنباً؟

إن الإنسان الخاص والعام ليسا واحداً.

لقد دهشت جداً منذ استجوابي الأول حين اقترحت على لجنة التحقيق أن أشرح جملة "دوروف" القائلة ((بأنه يجب استخدام الأدب لإظهار منشأ الشر إلى الموظفين أعني رؤساءهم في المراتب الأعلى)).

أعرف "دوروف" شخصياً. وأتذكر أنه كان قد ساندني من كل قلبه في مناقشتين أدبيتين كانتا لي عند "بيتراشيفسكي" عندما أردت أن أثبت أن الأدب لا يتحمل التوجيه السياسي وأن ليس له غاية أخرى إلا غاية الفن المحض.

غير أن هذا يعني بالأحرى أن الأدب لم يكن يحتاج إلى (إظهار منشأ الشر) كما قيل في تلك الجملة التي نسبها الاتهام إلى "دوروف" لأنه حينئذ قد يُفرض على الكاتب توجهاً سيضايق حريته وإضافة إلى ذلك سيكون حرجاً وحقوداً وقاتلاً بالنسبة للفن.

زد على ذلك أن "بيتراشيفسكي" كان موافقاً تماماً ونقاشنا لم يكن إلا سوء فهم وجميع مدعوي "بيتراشيفسكي" يمكنهم أن يشهدوا على ذلك (... ..).

-هل حضرت الاجتماعات عند "سبيشنيف" و"كاشكين" و"كوزمين" و"دوروف" و"دانيلوفسكي" أو عند الاقتضاء لدى أشخاص آخرين؟

-كنت أتردد على سهرات "دوروف". ففي الشتاء الأخير تعرفت على "دوروف" و"بالم".

أفكارنا وأذواقنا قربتنا من بعضنا كلا الاثنين وخاصة "بالم" أثرا فيّ تأثيراً جيداً. وبما أنني لا أعرف طبقة الأغنياء فقد كنت حريصاً بصورة خاصة على هذه العلاقات الجديدة. إن محيط "دوروف" كان فنياً وأدبياً محضاً.

وعمـــا قليل أخي و"دوروف" و"بالم" و"بليشييف" وأنا نفسي قررنا العمل علـــى إصـــدار مجموعة من النصوص وهذا ما جعلنا نرى بعضنا أكثر في الغالـــب. واللقاءات جرت عند "دوروف" بسبب السهولة وسرعان ما تحولت إلى سهرات أدبية، تمتزج بقليل من الموسيقى.

تكـــررت هذه السهرات من أسبوع إلى أسبوع وفي أغلب الأوقات يوم السبت ومع ذلك لم يكن هناك يوم محدد.

غـــير أن فيليبوف قال إن هذا السهرات لا تجلب لنا شيئاً وستكون أكثر فـــائدة لـــو تحدث كل واحد منا إلى الآخرين في المجال الذي يجيد معرفته. كـــان ممكـــناً أن تجـــد هذه الفكرة صدى لها في الحضور لو لم يكن هناك اقـــتراح آخـــر طورهـــا بالكامل وألقى ظلاً بغيضاً على سهراتنا. وهو أن "فيليبوف" عبر عن أمنيته بنشر نصوص هؤلاء الذين كانوا يرتادون مجلسنا فهي لم تكن لتمرّ على الرقابة.

-من كان يرتاد هذه الاجتماعات وماذا كان يجري فيها؟

-قابلت "فيليبوف" الصيف الغابر في البيت الريفي في "بارغولوفو". إنه رجـــل شاب جداً ومتحمس تنقصه الخبرة بشكل رهيب وهو مستعد لارتكاب أيـــة حماقة مهما تكن ولا يتمالك نفسه إلا بعد أن يكون قد أحدث أضراراً. لكنه يتمتع بكثير من الميزات التي جعلته محبوباً عندي فهو شريف وصادق وجريء ومستقيم وذو تهذيب رائع. وأكثر من هذا لاحظت فيه صفة أخرى عظـــيمة: إنـــه يصغي إلى نصائح الآخرين من حيث تأتي بمجرد أن يجدها صـــحيحة وما يكاد يقتنع بخطئه حتى يكون في الحال مستعداً للاعتراف به وللـــتوبة. ولكن طبعه الحماسي وشبابه المغالي غالباً ما يتغلبان على ذكائه وبالإضـــافة إلى ذلك فهو يتسم بطبع مشؤوم كلياً إنه حب الذات أو بالأحرى حـــبه للمجـــد الذي يقارب الغرابة عنده إنه يسلك أحياناً وكأن الناس جميعاً يريدون امتحان شجاعته، وأعتقد أنه ما كان ليتردد في إلقاء نفسه من أعلى

كاثدرائــية "ســان إيساك" لو أن أحدهم قد ارتاب في عزمه على القفز. إنني أفكــر في حادث واقعي. في بداية جائحة الكوليرا. إذ كنت خائفاً جداً وكانت أكبر رغبة لدى "فيليبوف" أن يعلن لي في كل يوم وفي كل ساعة أنه لم يكن يخشــى الكولــيرا. ولإدهاشــي لم يكن يتخذ أي حيطة فكان يأكل الخضار ويشــرب الحليب. وذات يوم دفعني الفضول لأرى ردة فعله فعرضت عليه عنقوداً من عنبية الغبيراء لا يزال أخضر وبالكاد قد تكورت حباته وقلت له إن مــن يأكلها سيصاب دون شك بالكوليرا بعد خمس دقائق. فرط فيليبوف كل حبات العنقود وابتلع نصفها قبل أن أجد وقتاً للتدخل.

إن هــذا الشــغف المؤســف وهذه الجرأة الطفولية هي مع الأسف من السمات المهيمنة على طبعه.

وحب الذات نفسه يولد عنده الميل للنقاش إنه يناقش في أي شيء حتى في المواضيع التي لا يعرفها.

فهــو مــثقف بل إنه مختص في الفيزياء والرياضيات ورغم هذا فإنه يملــك قلــيلاً مــن اليقين الحقيقي والذاتي بسبب نقص الخبرة وبالمقابل فإن الشــباب مــنحه كثيراً من الأهواء المتنوعة وأحياناً الأكثر اختلافاً فيما بينها وحــتى المتناقضــة. هكــذا يبدو لي طبع "فيليبوف". الجميع تقريباً استقبلوا اقــتراحه بشكل سيئ جداً فقد أدركوا أنه يغالي جداً، وأنه كانت تُرْصَد ردة فعل كل واحد.

ربمــا أخطــأ ولكن يبدو لي أنه إذا كان القسم الأكبر من المشاهدين لم يعــبر فــوراً عن معارضته فذلك لأنه كان يخشى وحسب أن يكون مشتبهاً بنذالته من القسم الآخر.

وأنه كان يبحث عن وسيلة غير مباشرة للرفض. بدأت النقاشات وكان كــل واحد يظهر عقبات هذا الاقتراح. وشيئاً فشيئاً فسد الجو الودي للسهرة كان "دوروف" يسير جيئة وذهاباً في عارض من المزاج السيئ وكنت أشعر

بمجـــيء نوبـــة عصـــبية. وقد غادر بعضهم قبل الموعد المحدد وحالاً بعد العشاء.

وأخيراً فإن غيظ "دوروف" من "فيليبوف" آثار أزمة وجعله يأتي به إلى غـــرفة أخرى وبحجة تافهة ويوجه له بعض الشتائم. أما "فيليبوف" فقد كان عـــاقلاً وفهـــم حالاً بماذا كان يتعلق الأمر وأجاب بهدوء. وفي تلك السهرة غادرت أبكر من المعتاد.

وفـــي الغـــد قال لي أخي أن "فيليبوف" كان متمسكاً باقتراحه وأنه لن يذهـــب إلى بيت "دوروف". بعد يومين قابل "فيليبوف" وقال له ذلك. وحسب علمي لم يكن الوحيد الذي اتخذ هذا القرار. علمت على الأقل بأن "دوروف" كان يريد أن يضع نهاية لسهراته بأسرع ما يمكن. وعندما اجتمعنا من جديد طلبت الكلام وأقنعت كل الناس بالتخلي عن هذا المشروع. وحاولت أن أبقى ســـاخراً مداريـــاً حساســـية كـــل واحد. لقد نجحت ويبدو لي أنهم لم يكونوا ينـــتظرون إلا هـــذا. وحـــالاً رفض اقتراح "فيليبوف" ولم تجر سوى سهرة واحدة هذا كل ما لدي لأقوله عن سهرات "دوروف".

-تفضـــل واشرح لنا منذ متى وبأية مناسبة أظهرت ميولاً تحررية أو اشتراكية؟

-بكـــل صـــدق مازلت أكرر مرة أخرى بأن تحرريتي الوحيدة كانت تـــتكون من إرادتي الخير للوطن ومن تمنياتي له كافة الإصلاحات الممكنة لقـــد عانيت من هذه الرغبة منذ أن وعيت نفسي ولقد كبرت هذه الرغبة في داخلي لكن دون أن تتجاوز مطلقاً حدود الممكن.

وبالنســـبة لرغباتي فإنني لا أزعم أنني كنت دائماً على حق وهذا يعني أنني لن أدافع عنها جميعاً.

ربمـــا أخطأت برغبتي الخير للجميع وتحقيق هذه الرغبة ربما تكون له نتائج غير طيبة بل مشؤومة ومع ذلك كنت أحافظ غالباً وبعناية على رأيي.

ربما كان يحدث لي، وإن يكن نادراً، أن أعبر عن هذا الرأي بكثير من الحماس وحتى بكثير من المرارة غير أني لم أكن مطلقاً عدوانياً ولا حاقداً وبالإضافة إلى ذلك فإن الحب الأكثر صدقاً الذي كنت دائماً أشعر به تجاه وطني كان دليلي، أنا متأكد من ذلك، وقد جنبني عدة أضاليل مشؤومة.

إذاً كنت أرغب التغييرات والإصلاحات وكنت أتذمر من تعسفات عديدة ولكن أسس فكري السياسي ذاتها كانت تدفعني لأنتظر أن تأتي هذه التغييرات من جانب السلطة المطلقة وكنت أتمنى فقط أن لا يختنق أي صوت وأن يستطيع الجميع التعبير عن حاجتهم في نطاق الممكن. أعلم أن القوانين تحمي جميع الناس وكل واحد على حدة. إنني أعتقد بذلك لكن ثمة تعديلات ومن المؤلم أنها ليست نادرة ولهذا كنت أدرس وأتأمل المسالة بنفسي ولكنني كنت أحب أيضاً أن أسمع الناس الأكثر كفاءة مني يتصدون لإمكانية التغيير والإصلاح. لكنني أكرر ذلك بأنني لم أرغب أبداً في المستحيل.

أما بالنسبة لميولي الاشتراكية فأستطيع القول أني لم أكن أبداً اشتراكياً حتى لو أحببت أن أقرأ وأن أدرس المسائل الاشتراكية. أولاً ليست الاشتراكية سوى اقتصاد سياسي. والحالة هذه فإن المسائل السياسية – الاقتصادية تهمني. أحب بشغف العلوم التاريخية ولهذا تابعت بكثير من الفضول الانقلابات التي هزت "الغرب". كل هذه المأساة المخيفة أقلقتني كثيراً أولاً بوصفها مأساة وثم بوصفها حادثة تاريخية جديرة باهتمامنا. وباسم الإنسانية أيضاً لأن الوضع الراهن في الغرب يدعو للرثاء إلى أقصى حد. حدث لي أن عالجت مسائل سياسية ولكن يكاد لا يكون ذلك علناً على الإطلاق. كنت أقبل الضرورة التاريخية لانقلاب في "الغرب" ولكن فقط في انتظار إصلاح، والاشتراكية تقترح ألف إجراء لتنظيم المجتمع وبما أن جميع الكتب حول هذا الموضوع كتبت بذكاء وشغف وغالباً بحب حقيقي للإنسانية فقد قرأتها حباً بالاطلاع. والحالة هذه بما أنني درست الاشتراكية

عــبر جمــيع مذاهــبها دون أن أخــتار واحداً منها بشكل خاص ورغم أن معرفتــي بعــيدة عــن الكمال فإنني أرى بوضوح خطل كل واحد من هذه المذاهب. وأنا مقتنع بأن تحقيق أي واحد من بينها سيؤدي إلى كارثة مباشرة حــتى في "فرنسا" ودون التكلم عن الوضع لدينا، لقد عبرت عن هذه الفكرة سابقاً في عدة مواقف. وأخيراً هاكم النتيجة التي وصلت إليها. إن الاشتراكية هــي علم في غمرة التكوين، إنها ركام، إنها خيمياء بدلاً من كيمياء وتنجيم بدلاً من علم فلك ومع ذلك فإنني أعتقد أن هذا الركام سيعطي ذات يوم شيئاً مــن التنظــيم والعقلاني والمفيد للصالح العام كما أعطت الخيمياء الكيمياء والتنجيم علم الفلك.

وفي الإجابة على الأسئلة التي عرضت علي كتبت الحقيقة الصرفة ولم يعد عندي شيء أضيفه.

الضابط المتقاعد المهنس فيدور دوستويفسكي

المصدر المجلة الشهرية: لأوتر جورنال l'autre journal

العدد الرابع أيلول عام 1990م

□□□

أناشيد أرمينيا

بقلم:

غيفورك إيمين

■ ترجمة : عبود كاسوحة ■

عن الفرنسية

حدثت في أرمينيا في قديم الزمان، وفي العصر الحالي بشكل خاص، معجزات من النوع الذي يشبه مجرَّد وصفه النشيد...

أليس ما أنوي كتابته يماثل أغنية ملحمية؟

إني حريص على أن أكلِّمكم عن وطني المتجدد.

فما الوطن؟

إنه الشعب وتاريخه، إنه الأرض والماء والصخور والمصانع وكتبنا وأناشيدنا. إن عهداً جديداً قد بدأ لوطننا، عهداً تعيد نسمته الحياة لما يحيا منذ عصور. وكل ما يحيا ينشد. وليس الشعب وحده بل الأرض والمياه والصخور والمصانع والكتب والأغاني التي تنتمي إليه.

تعالوا نصغِ إلى تلك الأغاني.

نشيد القرون

أنا من البلد الذي عَبَر القرون

أعلنَ فيه البوق ليلاً عن بزوغ الفجر
أنا من البلد الذي تعرّض لمصائب لا تحصى
من غير أن ينطفئ فيه مشعل الإيمان.

مرّت القرون وانطوت على هذه الأرض، فخلّف فيها كل واحد جرحاً، ورسم ندبة على جبين شعبها وفي قلبه، وظلت تلك القرون ماثلة في الكتابات المسمارية وفي الصروح المهدّمة وفي القلاع المنيعة... ولم يخلّف كل قرن خرائب فقط وجروحاً، بل أضحى درجة في سلم قاس وطويل قاد شعبنا من الشقاء إلى الهناء.

فمن أي صفحة نبدأ بقراءة هذا الكتاب الحي؟ من الصفحة التي تركت لنا أطلال الحصون الأورارتية...

كان أجدادنا قبل ثلاثين قرناً أو أربعين قد باشروا بحفر أقنية ضخمة. لكن تلك القنوات كانت تروي أراضي ملوك أورارتو. وكانوا يغرسون الكرمة ويبذرون القمح، لكن ملوك أورارتو يأخذون منهم محاصيلهم لتخزينها في أهرائهم الضخمة. "لقد عانينا الكثير من التعب، لكن ليس من رده علينا أضعافاً مضاعفة"... هذه العبارة كتبها فنانون مجهولون على لوحة فسيفساء لمعبد غارني Garni وهي مثل بيت من نشيد يعود إلى عصر العبودية... وحين كانت آلهة الأورارتيين وأصنامهم تطالب بضحايا، كانوا يضحون بأجمل صبايا المزارعين والحرفيين وفتيانهم.

حين عزم ملوك أورارتو على بناء قلعة يريبوني، كان المزارعون والحرفيون هم الذين جرّوا حجارة المقالع وجبلوا الملاط لتشييدها. ونقشوا على الحجر، بكتابة مسمارية، نصاً ما زال محفوظاً في متحف في ييريفان الحديثة، يعلن للعالم قبل 2750 عاماً عن ولادة مدينة يريبوني التي دعيت ييريفان من بعد: "بنعمة الإله هلدا، أنشأ أرغيتي، ابن مينوا، هذه القلعة وسماها يريبوني".

وقام من بعد ملوك من أمثال روسا وساردور وأرغيستي فانتزعوا المزارعين والحرفيين من منازلهم وسلّموهم رماحاً وسهاماً ثم أطلقوهم لمحاربة قبائل الشمال... انطلقوا من عند بحيرة بيانيا (اليوم بحيرة فان) التي تقوم على

ضـــفافها طوســبيا عاصمة أورارتو، فبلغوا بحيرة سيفان. فأقاموا الحصون على ضفافها ونقشوا على الصخور الضخمة كتابات، تمجيداً للملوك الظافرين. وقاموا، مـــن أجــل وليمة النصر، بصيد أسماك الترويت الشهيرة من بحيرة سيفان، وهي أمـــيرات الأسماك بحراشفها الموشاة ببقع صغيرة حمراء، مثل بقع الدم الذي قدمه شـــعبنا... وحين هاجمت البلاد مملكة آشور الجبارة وهزمت ملوك أورارتو، دافع المزارعون والحرفيون بدمائهم عن تلك الأرض التي لم تكن وطنهم الأم بعد.

كـــافح الشعب وتألم وأحب وحلم... فماذا بقي لنا منه أو عنه؟ بقيت نصوص مســـمارية تمجّد الملوك من أمثال روسا وأرجيستي، وبقيت الحصون شاهداً على عظمة ساردور، والأقنية العملاقة المنسوبة إلى الملكة سميراميس.

اتّحـــدت القـــبائل مـــن بعد على شواطئ بيانيا لتشكّل بلاد "نايري" بأربابها وعاداتها. لقد أسسوا دولة نايري، أرمينيا، التي تعرضت منذ البداية لموجات الغزو والمصائب...

مـــع كـــل حرب، كان الرجال يسقطون صرعى في ساحات القتال، وتساق الفتـــيات والنســـاء إلـــى الأسر، فالأمهات يصلّين والأولاد يبكون ويتولّى الشيوخ والعجائـــز التخفيف عنهم واعدينهم بانتهاء الحرب عما قريب... فهل كان بوسعهم أن يعـــرفوا أن تلك الحرب، بل الحروب، سوف تدوم قروناً وتستمر إلى أن يغدو الشعب سيد نفسه وتغدو تلك الأرض وطنه الحقيقي؟...

كان الثابت هو الحروب والشعب الذي يعاني ويلاتها، أما المتغير فهم الغزاة الأجانـب وملـــوك الـــبلاد الذيـــن ينسبون لأنفسهم من غير حق مواهب الشعب وشجاعته وثمرات كدّه ومناقبه العسكرية.

حيـــن شهرت روما الجبارة حسامها فوق تلك الأرض، حمل انتصار الشعب الأرمنـــي اســـم الملـــك تـــيغران العظيم وحملت مدينة وقلعة بناهما الشعب اسم تيغرانكرت. وحين أعقبت روما كل من بيزنطة وبلاد فارس حملت بطولة الشعب أسماء مثل فاغارشاك وأرشاك وأطلقت على مدنٍ أسماء فاغارشابات وأرشاكافان.

لكن نشبت حروب وقامت غزوات تهددت وجود الشعب نفسه ولغته وكتابته وإيمانه. عندئذ خاض الشعب بأكمله الكفاح، رجالاً ونساءً شباباً وشيباً.

جرى ذلك عام 451 أثناء معركة افاراير. فقد سحقت فيلة بلاد فارس الثقيلة خيالة الأرمن الخفيفة، لكن ازكرت، ملك الفرس، انتابه الخوف من إيمان الشعب العنيد وتمسكه الشرس بلغته ووطنه وحريته...

وتوالت القرون فجاءت بغزاة آخرين. وتوارت القرون، لكن الجراح التي تسببّت بها بقيت...

أما وقد فهم الشعب فهماً مشوّشاً أن الملك ليس الدولة وأن الكنيسة ليست الإيمان، عكف على الهرطقة بمثل الحماس العنيف الذي أظهره حيال الإيمان. وقامت ثورات على الكنيسة وعلى النبلاء... وعلى الرغم من العذابات والمذابح ظلّ رجع فتن الهراطقة وتمرداتهم يتجاوب طويلاً بين جبال أرمينيا وفي قلب الشعب. أما حين اقتحم السلاجقة وبعدهم المغول تلك الأرض، فإن الشعب الذي أحس بريبة من الإيمان مثل الريبة من عدم الإيمان، لم يؤمن إلا بالأسطورة، فخلق صورة البطل الملحمي ، الذي كان لرمحه الصاعق أن ينقذ الشعب حين أصبح الكأس طافحاً...

وماذا من بعد؟

إن الهدم أسهل من البناء بكثير، والإبادة أيسر من الخلق. ولئن سئم الغزاة الأجانب من الهدم والتدمير فإن الشعب الذي لا يكلّ، واصل البناء، سئم الآخر من الهدم أما هو فواصل الإبداع بلا هوادة...

ومهما تكن رحمة السماء ضئيلة فقد حل السلام لبعض الوقت، فتطورت مدن غنية بالمهن مثل آني. وعاد الاخضرار إلى الحقول والبساتين، وتضاعف عدد المخطوطات والمنمنمات في صوامع الأديرة. وبدأت الأغاني خجولة في البداية، تكتسب جرأة متزايدة مثل الغوسان والأشواغ، وكشف الراقصون على الحبال عن تمكّنهم من فنهم، وأدخلت الزغاريد في الأعراس والعمادات بهجة على الحياة... وتحولت الأرض شيئاً فشيئاً إلى بلاد، بل إلى دولة، إلى أن جاء عدوان غزاة جدد ليبعثر عبر العالم شعبنا الذي صنع البلاد والدولة وأقام مدارس ومراكز كتابة وفنون وحرف فوق سفوح أخرى للجبال وفي وديان أخرى وعلى شواطئ بحيرات وبحار أخرى...

في القرن الرابع عشر تجلّى أمل الشعب في إنشاء بلد بصورة نهائية وإقامة دولة على المتوسط في كيليكية، لكن حلمه بالاستقلال دفن هنالك تحديداً، ولقرون. فهاجم الفرس أرمينيا مجدداً، وأعادت القبائل التركية الكرة فاجتاحت أرض الوطن وفصلت الأخ عن أخته والأم عن ابنها، وانتزعت الريشة من على المخطوط، والسكّة من أرض الحقل، ومسحت اسم أرمينيا نفسه من الخارطة، لتجعل منها ولايتين، فارسية وتركية... كان الكابوس طويلاً، طال بشكل رهيب: خمسة قرون، خمس مئة عام لا تنتهي. فانتهى الأمر بشعبنا، وهو شعب من الحجارين، إلى نسيان عادة قلع الحجارة ونحتها وآل به الأمر إلى بناء منازل، جدرانها من اللبِن والطين... وصار يكتب نصوصاً بحروف أرمنية، لكن بلغة عثمانية أو نصوصاً أرمنية بحروف فارسية. ولم يعد من أحد يسمع الأناشيد والتراتيل التي لا تبارى...

ولكم من مرة تبدّت الرغبة في تدمير مراكز الكتابة واقتلاع شجرة حضارتنا القوية من جذورها. لكن البذور التي سقطت من أغصانها انتشرت في العالم أجمع. ولئن لم تزهر مراكز الكتابة الأرمنية فيما مضى إلا في أرمينيا، فقد بدأت تبرز الآن في كل مكان تقريباً، من البندقية إلى جزر الفيليبين ومن تيودوسيا إلى لفوف ومن كالكوتا إلى فيينا.

ظلت الثورات وأعمال التمرد والصدامات مع المحتلين تهزّ أرض أرمينيا إلى أن قامت روسيا فمدت لها يد العون. فتحرر القسم الشرقي من أرمينيا عام 1828 بعد أن كان رازحاً تحت النير الفارسي. وتهلل الشعب الأرمني فرحاً. وكانت البهجة مصدر إلهام المؤسّس العظيم لأدبنا الحديث خاتشاتور أبوفيان. كما كانت البهجة مصدر إلهام نرسيس أشتراكتسي، كاثوليكوس جميع الأرمن الحكيم والشجاع. إذ كان على صهوة جواده يحمل السيف بيد والصليب بيد وهو يقاتل الفرس على رأس الجيوش الروسية والأرمنية. وكانت البهجة مصدر إلهام الديسمبريين الروس، أولئك الضباط المنفيين الذين كانوا يطلبون الحرية للشعب ويناضلون في سبيلها...

لم تكن نتيجة اتحاد أرمينيا مع روسيا إنقاذ شعبنا من الإبادة الجسدية فحسب بل أشركته مع الشعب الروسي العظيم وشغفه بالعدالة...

لكن فيما كان أحد الضباط الديسمبريين يقرأ لأبوفيان أبيات بوشكين

المحظورة، وكانت تعرض في يريفان مسرحية "الويل من العقل"- لأول مرة منذ تأليفها- كان رجال الدرك الروس يبعدون إلى سيبيريا زهرة الانتليجنسيا الأرمنية، وكان الموظف الروسي قد بدأ يبتز الفلاح الأرمني فيأخذ منه الأتاوة...

كانـــت مصـــائب شعبنا وآلامه كثيرة. ففي ربيع عام 1915، وتحت ستار قوانيـــن زمـــن الحرب، قام زعماء حزب تركيا الفتاة الذين كانوا يمسكون بزمام السلطة في تركيا آنذاك بالتخطيط الهادئ لترحيل الأرمن وإبادتهم إبادة جماعية.

كـــان يقـــيم في أرمينيا الغربية ثلاثة ملايين ونصف من الأرمن قبل الأمر بإبـــادتهم مـــن قبل السلطان عبد الحميد وأعضاء تركيا الفتاة. أما الباقون على قيد الحـــياة والذين نجوا بمعجزة من المجازر، فساحوا في الأرض وتبعثروا في كافة أرجاء العالم، لكنهم استقروا بأكثريتهم في سورية ولبنان ومصر وفرنسا واليونان وإيران وأميركا الشمالية والجنوبية.

... أمـــا أرمينيا الشرقية فلم يبق فيها سوى حفنة من الأرمن: عشر الشعب فـــوق عشر ترابه الوطني. لم يبق سوى سبع مئة ألف فوق الأرض الصغيرة التي تؤلف أرمينيا الحالية. لكنه شعب تمرّس بالآلام التي عركته، شعب تدرَّب على سر الانبعاث مقابل شهداء ضحوا على مدى العصور...

بعـــد وقت قصير، خرج الوطن المسحوق لشعب مسحوق، إلى العالم بأشعار أغيشـــي تشـــارنتس وموســـيقى آرام خاتشـــادوريان ولوحات مرتيروس ساريان وانعكاسات حجارة يريفان الوردية...

هـــؤلاء الســـبع مـــئة ألف من الأرمن، الذين بلغ عددهم مليونين (في نهاية الســـتينات مـــن القرن العشرين)، رفعوا من الرماد أرمينيا قوية ومولودة مجدداً، تـــدرس المجرات والأشعة الكونية وتمتلك الحاسبات الحديثة والأجهزة ذات الدقة العالـــية وحضـــارة غنية، قديمة وحديثة... أليست مسألة النهوض من بين الركام والوصول إلى هنا معجزة حقيقية؟

إن مشـــهد تلـــك المعجزة كان حديث العالم أجمع، وكان أيضاً حديث حجارة أرمينيا، التي شهدت كل شيء.

فلنصغ إليها:

نشيد الحجارة

أنا من بلاد حجارتها

ترقد بغزارة منذ قرون.

من بلاد كان بناؤو المعابد والقصور

يعيشون فيها بخمول داخل أكواخ طينية.

يطلــق الأرمــن على بلادهم اسم هاياستان. لكن هنالك اسم يشبهها وينطبق عليها: كاراستان، بلاد الحجارة...

تخــرق أرمينيا أكثر من عشرين سلسلة جبال، وتشرف عليها أكثر من تسع مــئة قمــة من ارتفاعات مختلفة. وتغطي الجبال الصخرية أكثر من ثلثي مساحة الــبلاد الحالية... ويقول التقليد إن الله حين خلق الأرض والمهاوي كان يقف فوق جبالــنا. وحيــن وضعَ الخليط الذي أعده في الغربال، انزاحت التربة الطيبة إلى ناحية والحجارة التي بقيت في الأسفل إلى ناحية أخرى، في موقع أرمينيا الحالية.

يا بلاد الحجارة المزمجرة

يا أرمينيا، يا أرمينيا.

إنها الصيحة التي هتف بها الشاعر أوسيب مندلستام حين شاهد أرمينيا للمرة الأولى.

إن الحمــم التــي قذفتها البراكين عبر العصور قد حولت أرمينيا إلى متحف مدهــش لحجــارة البــناء. فلــيس من نوع إلا وهو قائم فيها: المرمر والبازلت والغرانيت والغليس والخفان...

ولــم يقــو هذا الشعب، الذي يعود تاريخه إلى ثلاثين قرناً مضت، على بناء مقرٍ له إلا في عام 1920 حين أضحى استقلال أرمينيا مضموناً.

وأصــبح للحجر الذي وضع في خدمة الشعب القدرة على الكلام. فأعاد إلى أرض الوطن المهندس الساحر الكسندر تامانيان الذي عُرِف في روسيا عن طريق أبنيته المدهشة.

وضــع تامانيان مخططاً لمدينة من مئتي ألف نسمة، يوم لم يكن تعداد سكان

يبريفان يزيد على ثلاثين ألفاً عام 1924.

ثـم اضطر المهندس العجوز إلى تعديل المخطط العام للمدينة وتكبيره ثلاث مـرات متتالية في حياته. ولم يكن له من خيار في ذلك. لأن يبريفان التي رقدت قروناً طويلة ضمن حدود مضمار لا يتغير، شرعت على نحو مباغت تفور وتغلي لتغزو في نموها قمم الجبال وتفيض على الهضبة المجاورة لتبلغ كاناكر. وفي كل عام يشاد في المدينة ما يساوي مساحتها عام 1920.

تجـاوز تعـداد السكان ستة مئة ألف نسمة في الستينات من القرن العشرين وواصل ارتفاعه نحو المليون...

إن المـرء الـذي يتأمل مجموعات الأعمدة والحجارة الزاهية المنحوتة في يـيريفان اليوم يستطيع فقط أن يقدّر الماضي حق قدره وتأثيره على حياة الشعب. فحجارة زفارنتوتس، وهو معبد من القرن السابع، أصبحت غالية على قلوبنا بشكل خاص مذ أن أعدنا نحت زخارفها على مبانينا الحديثة. واتخذ جبل أرارات أهمية أكبر في نظرنا مذ أن مثّلناه على شعار بلادنا...

... أرمينـيا. كاراستان. بلاد الحجارة. إن الحجر الذي كان على الدوام آفة بالنسبة لنا، قد تحوّل إلى مصدر غنى وهناء. وهل من شيء لا يصنعه من الحجر أبناء هذه البلاد؟ الكاراستانيون؟ إنهم لم يصنعوا المباني فقط والطرقات والأسوار والأعمـدة. إنهـم يسـتخرجون كل شيء من تلك الحجارة التي لا نفع فيها والتي تعـرقل الـزراعة بدءاً من الأسمدة لتخصيب التربة حتى العناصر نصف الناقلة بالنسبة للمركبات الفضائية.

نسـتطيع في الوقت الراهن أن نذكر باعتزاز، بالإضافة إلى معادننا الثمينة مثل الذهب، ونحاس كافان وألافيردي، موليبدين أغاراك، وحديد سفارانتس، فليْس أرتـيك وخفـان آني، والمرمر والبازلت في خورفيراب، وحجر آرابات الكلسي وسبج اراغاتس وصوان رازدان.

ولئـن كانوا فيما مضى يقتصرون في البناء على البازلت والفليس، لا سيما الأسود، فإن بوسعنا اليوم أن نرى على الأبنية الحديثة في أرمينيا كافة ألوان قوس قـزح من حجر الفليس بما فيها البنفسجي والأصفر والأحمر، وفسيفساء كاملة من

المرمر مع البازلت الأزرق...

ولـــو كـــان الحجر أخف وزناً وكان نقله أقل صعوبة وكلفة، لرأيت حجارة أرمينـــيا المتعددة الألوان تلتمع، لا في المدن الروسية البعيدة جداً فحسب، بل في كافة أنحاء العالم، لأن الاحتياطي لا ينفد عملياً. فلو بنيت البيوت من فليس أرمينيا لأمكـــنها أن تؤوي سكان روسيا كلها مع أوربا، أما البازلت الأرمني فيلبي حاجة سكان الكرة الأرضية للمنازل، طول ألف عام.

وليس الحجر مادة بناء ممتازة فقط، بل هو يحفظ ذكرى العظماء من الناس. ولكم هي عديدة الحجارة الخام المبعثرة في مضائق أرمينيا ثم تحولت إلى صروح لتخلـــيد ذكـــرى رجـــال مـــن أمثال شاوميان وماشوتس وكوميتاس وسابات نوفا ونلبـــنديان واســـحاقيان؟... وكم من الحجارة استخدمت عيون مياه تخليداً لذكرى أبطـــال وشـــهداء ماتوا دفاعاً عن الوطن، لكن مجدهم صلب صلابة تلك الحجارة ودائم ديمومة مياه الينابيع.

نشيد المياه:

أنا من بلاد شعرت فيها السيول،
من قرن إلى قرن، أنها في مكان ضيق،
واصفرَّت فيها المياه من البطالة،
لكنَّ العمل اليوم يعيد إليها شبابها.

كانت المياه في هذه البلاد، موضوع عبادة منذ أقدم الأزمنة. يشهد على ذلك التنيـــن الحجـــري الذي لا تزال تماثيله قائمة حتى اليوم على سفوح الأراغاتس، والحصون التي شيدت عند منابع الأنهار، من أجل الحفاظ عليها وحمايتها.

كـــيف نفسِّر لأطفال يريفان الذين يلهون حول النوافير الصغيرة للماء النقي الصافي ويضغطون بأناملهم عليها لينقذف الماء من النافورة بعيداً، كيف نفسِّر لهم حقيقة حجر الماء؟

حجر الماء... (إنه جرن من حجر الفليس مرتكز على دعائم خشبية كأنه قبة مقلوبـــة. كان يملأ عند الصباح بمياه النهر العكرة من أجل تصفيتها. وكان الماء

يرشح منه إلى جرة من الفخار فينزل قطرة قطرة مثل شراب سحري وفي صفاء الدموع...

في مقاطعة كوتايك حجر قديم حفرت عليه العبارة التالية: "هذه المياه تخص مالـيك أغاملیانتس. ملعون الذي يتصرّف بها، هو وذريته كلها." وفي مقبرة قرية اشتاراك شاهدة تقول: هذا قبر رجل قتله أخوه بسبب الماء...

إن قعقعـة السلاح وضجيج المعارك الأخيرة في الحرب الأهلية التي جرت في أرمينيا، قد واكبتهما الضجة الصادرة عن ورشات حفر أولى القنوات. وقل أن يمـر عـام مـنذ ذلك الحين دون أن يشهد تدشين العمل بقناة جديدة: هنالك أقنية اتشميادزين واوكتمبريان وشيراك وغارني وسينيان وتالين وكوتايك... وغيرها... وغيرها...

ليسـت المـياه فقـط حقلاً أو بستاناً أو نافورة تذكارية: هنالك بلدان بمنازل حجـرية قد شيدت بمحاذاة قناة تالين، واستقبلت الساسونيين الذين سكنوا قديماً في القرى الفقيرة على سفوح أراغاتس.

أمـا السـبب الـذي جعلهم يختارون لسكناهم أعالي الجبال فينطق عن قدر شعبنا، وعن تاريخ آلام لا نهاية لها فرضتها علينا الحروب والغزوات...

على هذا النحو بدأت قرى أرمينية بالنزوح عن مواقعها، لكنها المرة الأولى التـي يـتم فيها النزوح اختيارياً، لا بفعل النار والدخان، وليس مصحوباً بالقصف والقتل وعويل الأطفال. للمرة الأولى يجري الانتقال يرافقه صوت المزمار وقرع الطبول وأبواق السيارات والدبكات الساسونية.

ليس الماء فقط هو الكروم والمراعي، إنه الكهرباء أيضاً. فنادرة هي مجاري المياه العاطلة عن العمل في أرمينيا الحالية. لأنها كلها تقريباً تقوم بتشغيل محطات توليد كهربائية ذات قوة متنوعة. فنهر رازدان وحده يحرك توربينات سبع محطات تولـيد كبيرة ضمن مسافة قصيرة محصورة ما بين بحيرة سيفان وييريفان. ودخل الـنور إلـى الحـياة في كافة المواقع في أرمينيا فعبر الشعاب كلها وتسلّق كافة الجبال. وغمر البلاد بأكملها.

كل مياه ولها قيمة. لا يزال هذا الواقع حتى اليوم في أرمينيا. لكن هنالك مياه

ثمينـــة بشـــكل خاص. فينابيع المياه المعدنية المعروفة في البلاد يربو عددها على المئتيـــن. وكانـــت المـــياه في أرمينيا نادرة على الدوام ومقدسة من الشعب. لذلك السبب يواصل نصب النوافير في الأماكن المحبوبة أو تخليداً لذكرى الذين يحبهم. فعيـــن الماء عند ممرّ ستيبانافان يحدّد المكان الذي وقف فيه بوشكين تحية لمرور جثمان غريبويدوف القتيل. أما عند مضيق غنديفاز فتمجيداً لأبطال الحرب الأهلية. وهنالك عيون عديدة ونوافير أنشئت تخليداً لذكرى شهداء الحرب العالمية الثانية.

أما العين التي دشنت في أواخر الستينات في واحدة من حدائق ييريفان فكانت تخليداً لذكرى سابات نوفا، الشاعر الشهير الذي عاش في القرن الثامن عشر. فمن الجـــدار الرخامـــي الأبيض يبرز نحت لصورة الشاعر العظيم وينبجس خيط ماء بلوري يدندن ما يشبه أبيات سايات نوفا:

لن يشرب العالم كله من ينبوعي الرنان:
فطعم مياهي غير مألوف!
ولن يقرأ العالم كله ما أكتب:
فمعنى كلامي غير مألوف!
فلا تأمل أن تقلبني من غير عناء!
فقاعدتي ثابتة ثبات الغرانيت.

نشيد الأرض

أنا من بلاد، منذ قرون
التهمت فيها الحنطةَ نارُ الحرائق،
حتى لا يجعلها العدو غنيمة له...
أما الآن فالشعب سيد حنطته.

يأتـــي الربيع عادة مرة واحدة كل عام، أما في أرمينيا فزياراته مألوفة أكثر. والـــبلاد قليلة المساحة: أقل من ثلاثين ألف كم2، لكنها شديدة التنوع. فهذه القطعة

مـن الأرض تتضمن كافة المناطق المناخية: فالمراعي الجبلية والكروم، والغابات والمناطق شبه المدارية تتجاور كلها فيها:

حيـن ينتهي نضج الرمان والتين بين الصخور الحارقة عند مضيق ميغري، يكـون العنب قد أينع وبدأ الدراق يتورد في وادي الأرارات. إننا في الصيف عند سـفح الجـبل فحقول القمح تكون قد بدأت تصفرّ. وترى العشب في الوقت نفسه يصـبح خضـرة وشقائق النعمان تزهر في المراعي الجبلية. أما إذا ارتقيت إلى أعلـى فالـثلوج بـدأت نتوها بالذوبان. وعلى القمم تربض الثلوج الأزلية والبرد الشـتوي. أما السيل الناشئ عن انصهار الثلوج على منحدرات الأراغاتس فيمكن أن يصادف في دربه نحو نهر رازدان الفصول الأربعة: الشتاء والربيع والصيف والخريف...

لـم يكـن نقـص الماء سوى نصف شر. فالأسوأ هو نقص التراب. وكثرة الحجارة تجعل حفنة التراب بعيدة المنال ومجدبة.

إن كروم أشتاراك محاطة بتلال من الحجارة. وقد اعتقدتُ لزمن طويل، وأنا مولود في تلك القرية وابن فلاح، مثلما اعتقد معظم أترابي، أنها تلال طبيعية. ولم أعـرف إلا مؤخراً حقيقة مصدرها. تلك الأكوام الحجرية التي لا تحصى، عكف علـيها أجـدادي وآباؤهم وأجدادهم والتقطوها، وظهورهم مقوسة، لينظفوا أرض حقولهم وكرومهم منها ثم كدسوها تلالاً عند تخوم القرية...

إن كـروم مضيق ميغري محاطة أيضاً بالصخور والتلال الحجرية، لكن ما حصل هنالك كان مغايراً: فالإنسان صنع مساحات خضراء على سفح التلال. فقد فـرش الفلاحون فوق المدرجات الصخرية طبقة سميكة من التراب جاؤوا بها من بعـيد بوسـائل بدائية. وسقوا تلك السطيحات بالماء المجلوب في جرار ملئت عند المضيق، فصارت لديهم بساتين وكروم عجائبية.

لم يبق من الكروم في أرمينيا عام 1919 سوى خمسة آلاف هكتار. خمسة آلاف هكـتار كرمة دهرية، متجعدة، أتت كثير من الحرائق على ثمارها وأوراقها ووطئـتها سـنابك الخيول. لكن الكرامين الذين عادوا إلى أراضيهم وحقولهم بعد انتهاء الحروب، صمموا على وضع كرمة وسنابل فوق شعار أرمينيا الجديدة...

لقد تحولت الأراضي السوية والوهدات في وادي الأرارات إلى بحيرات وأنهار من الخضرة. وانتهى الأمر بتلك الأنهار المترعة أن بلغت خواصر الجبال، ثم ها هي الكرمة تحصل على الحق بالانتقال إلى مناطق أخرى خارج وادي الأرارات مثل شامشادين وتالين وغرست أنواع مقاومة للبرد في حوض سيفان.

إن الأرض، وقد جرى إحياؤها، قد صنعت شغيلة الأرض.

نشيد النار:

أنا من البلاد التي ما كان يُسمع
بين شعابها سوى الشبابة تنوح.
أما اليوم فبين جبالها العاتية
يتجاوب دوي المصانع الحديثة.

لئن كانت الحجارة والتراب والمياه والكتابة والشعر قائمة في أرمينيا منذ قرون، فإن الصناعة لم يكن لها من وجود فيها على الإطلاق. ولم يكن يتعدى كل ما كان في ييريفان حتى العشرينات من القرن الماضي مدبغة واحدة وتعاونية صناعية واحدة ومعملين للخمور وبعض المشاريع الصغيرة الأخرى.

كانت البرجوازية الأرمنية الكبيرة وأصحاب المصارف الضخمة والاستثمارات النفطية والمصانع والمعامل والدور التجارية، هؤلاء كلهم كانوا يمارسون نشاطاتهم في المدن الصناعية الكبرى، خارج أرمينيا: بين بطرسبرغ وباريس، وبين موسكو واسطنبول، وبين تفليس وباكو...

إن كافة المصانع في أرمينيا يقل عمرها عن خمسة وستين عاماً وأكثريتها الساحقة دون الأربعين.

لقد ولدت الصناعة الأرمنية الجديدة يوم قدَّم عمال ايفانوفو عدة أنوال نسيج لتوضع في معمل قماش. وقد وضعت إحدى تلك الآلات بعد إحالتها على "التقاعد" في متحف الثورة في ييريفان. قامت الصناعة الأرمنية، في حقيقة أمرها، من قلب الخرائب والدمار، فلا يسعها إلا أن تثير الزهو والإعجاب لدى الجميع.

ظلت ييريفان حتى الثلاثينات من القرن العشرين، مشهورة فقط بخمورها

والكونـــياك الـــذي تنـــتجه وبغبارها أيضاً. لكنها بدأت تنتج البكرومات والزجاج والموليت والأدوات الآلية.

يجـــري في جبال كافان إنتاج الكثير من النحاس، لكن معمل النحاس الجديد في الافيردي رسّخ التقاليد لطبقة عمالية جديدة.

لـــم تتوقف المصانع في أرمينيا عن العمل يوماً واحداً أثناء الحرب العالمية الثانـــية. بـــل ارتفعت في تلك الظروف الصعبة الأبنية الضخمة لمصنع ماكينات كهربائـــية بالقرب من جبل آرارات الشهير. وجرى في ييريفان تحويل الكاوتشوك إلى كابلات وعجلات... حسبنا القول إن الستينات فقط من القرن العشرين شهدت نشوء ما يربو على خمسين مصنعاً أو منشأة صناعية كبرى في أرمينيا.

كانـــت أرمينيا بلداً ذا حضارة روحية راقية وبلداً فلاحياً بائساً، فصارت بلد الفـــيزياء الكونية والعلوم الالكترونية ودراسة المجرات والأشعة الكونية، بلد إنتاج الأجهزة عالية الدقة وصناعة الحاسبات... لقد أصبحت بلداً مخبراً ومعهداً عملاقاً تجري فيه أبحاث معقّدة في مجالات العلوم والصناعة.

فـــي الـــربع الأول مـــن القرن الماضي لم يكن هنالك سوى أرمينيا صغيرة ومحرومة. أما الآن فقد أضحت على درجة من القوة كأنها تمثلت أكثر من خمسين أرمينيا قديمة. وبات بوسعها أن تستقبل الأرمن الذي توزعوا في كافة أنحاء العالم وشـــكّلوا جالـــيات في أكثر من أربعين بلداً. بل إن آلافاً منهم قد عادوا من فرنسا وأميركا واليونان وإيران والأردن ومصر ولبنان وسورية...

نشيد الأناشيد

أنا من البلد الذي تتحول فيه
حكمة القرون إلى كلام إنساني،
إلى مخطوط. لكن مرت سنون
قبل أن تتمكن الشعوب من القراءة.
أنا منَ البلاد التي تجاوزت الأناشيد

الجريئة فيها ذرى الجبال
لتذكّر بأزمنة الآلام الماضية
والسعادة الجديدة للعمل الخلّاق.

مـا كـان لشعبنا الذي مزّقته الحروب والنكبات طيلة قرون أن يعيش حتى ازدهـاره الراهن لو لم يمتلك سلاحاً جباراً عدا الحسام: إنه الكتابة، فحين لم يكن للسـيف من أثر كانت الكتابة تنتصر، فتدحر العدو وتحمل عبر العصور للأجيال المقـبلة رغبات الشعب وآماله وإيمانه. وعلى الرغم من كوارث لا تحصى، ظلت مخطوطات أرمنية يربو عددها على خمسة وعشرين ألفاً، محفوظة، فوصلت إلينا. ووضع أكثر من نصفها في ماتيناداران، مستودع النصوص القديمة.

ألا كم عمد الغزاة إلى مهاجمة مراكز الكتابة فدمّروا المكتبات وقتلوا النسّاخ. لكـن شـعبنا المحب للكتاب قد أنقذ، مخاطراً بحياته، مخطوطات أرمنية وسلافية وفارسية ويونانية وعبرية وهندية ولاتينية وجورجية وعربية وكثيراً غيرها، والتي مـا تزال حتى اليوم تثير غيرة العديد من المكتبات في العالم أجمع. كما أن العديد من مؤلفات الفلاسفة والعلماء القدماء، من الإغريق والآشوريين وغيرهم قد أعيدت للإنسانية بفضل حفظها في ترجمات أرمنية.

لقد ورد ذكر اتساع المكتبات ومراكز الكتابة مراراً وتكراراً لدى المؤرخين، وفي معظم الأحيان في معرض كلامهم على تدميرها. فكم عدد الناس الذين عملوا فـي كـل واحـد من المخطوطات الأرمنية الخمس وعشرين ألفاً، وعلى حفظها، لجعلهـا تـبقى حتى أيامنا؟ حسبنا أن نذكر النسّاخ المتواضعين المغمورين الذين أتحفونـا بـتلك الكنوز بفضل مواظبتهم ودأبهم الأسطوريين. إن كل ما وسعنا أن نعـرفه عـن حـياتهم وأفكارهم ومشاعرهم عبر الوقائع الموجزة، كان ذا فائدة عظيمة.

يتحاشـى النسـاخ بصورة عامة الحديث عن أنفسهم. فحياتهم شاقة وعملهم مـرهق، لكنهم لا يذكرون سوى عزاءهم والمكافأة التي يجدونها في إنجاز كتاب. فهـم يـتعاملون معه كأنه كائن حي أو صديق ويعتبرون حقهم في تذييل الصفحة الأخـيرة بتوقيعهم تعويضاً مدهشاً عن عنائهم. أما أكثرهم جرأة فدون ملاحظات

تعبّر عن أفكاره ومشاعره، كما كتبوا في بعض الأحيان أبياتاً أو رسموا صورتهم بين يدي هذا العالم أو المؤرخ أو الشاعر الشهير، أو ذاك.

إننا نرى، لدى قراءة تلك التعليقات المقتضبة، انبعاث حكمة الشعب وفكاهته. هـنالك مخطـوط يصف آلام الأرمن وهم تحت نير المغول، ويصف جبن الذين يفضّلون العبودية على الكفاح وعلى الموت. ولم يتوان الناسخ عن تدوين عبارة علـى الهامش: "خير للمرء أن يموت مرتاح الضمير من أن يعيش وهو لا يجرؤ علـى رفع بصره." ونقرأ على هامش مخطوط في الكيمياء يصف اختبار الذهب بالـنار: "يُختـبر الذهب في النار والمحب الحقيقي لوطنه في القتال." ويقوم آخر، يشغله مصير الفلاحين الفقراء الذين يراهم وقد سلّموا محصولهم للأمراء والأديرة، يغـرقون أحزانهم في الشراب، بتقديم اثنتي عشرة نصيحة "حول مخاطر السكْر." أمـا وهو يرى أن ذلك غير مجد، وأن الأشقياء سيظلون يشربون، فإنه ينتقل إلى نصـائح عملية أكثر حول طريقة الإقلاع عن الشراب: "كُلْ خمس لوزات أو ست على الريق. امضغ بذرتين أو ثلاث بذور سفرجل بعد كل كأس." وقال آخر معلّقاً على مصرع خانٍ سلجوقي، عرف بوحشيته المتطرفة، على يد فلاح أرمني: "الذي يقتل كلباً مسعوراً هو بريء".

كان العزاء الوحيد لأولئك الناس الذين نذروا أنفسهم لذلك العناء الشاق يتجسّد في هذه العبارة: "يدي سوف تغيب لكن الكتابة ستبقى." وما كانوا يخشون الموت، كانوا يخافون فقط أن يموتوا قبل أن ينجزوا عملهم...

هنالك واحد من بين مخطوطات ماتيناداران اسمه الأحاديث المختارة وقصته تشـبه تـاريخ شعبنا شبهاً كبيراً. ونحن مدينون به للخطاط فاردان كافيستي، الذي أمضـى ثلاثة أعوام في نسخ نصوصه في مدينة موش الأرمنية وأنجز عمله عام 1204. ويـزن هذا المجلد الضخم أكثر من ثلاثين كيلوغراماً! وقد ذبحوا ما بين 600 إلى 700 عجل لإعداد صفحاته الجلدية وعددها 607 صفحات.

وتـروي مذكّرات المخطوط التاريخية أشياء شتى، لكنها تتوقف عند أحداث مأسـاوية: منها معركة باسين التي جابهت فيها الجيوش الأرمنية والجورجية معاً الغـزاة السلاجقة، وكيف قتل صاحب المخطوط (أي الذي أوعز بكتابته وجمعه)

فوقع المخطوط في الأسر، فعاد الأرمن فعثروا عليه بعد أن بحثوا طويلاً في المدن والقرى والأديرة والمدارس، إلى أن اشتروه من الناهبين مقابل أربعة آلاف قطعة فضية وأعادوه إلى دير موش.

أوشك المخطوط أن يتعرض للتلف، أثناء الحرب العالمية الأولى، وقد سلم بفضل لاجئتين كانتا على وشك الموت جوعاً، حين أخرجتاه من الدير الذي نُهب وأُحرق. وتبادلتا نقل ذلك الحمل الثقيل على ظهرهما. وبعد أن خارت قواهما قامتا بشطره نصفين. فغلّفتا أحدهما ببعض الخرق وقامتا بطمره إلى جانب الطريق. وواصلتا حمل النصف الآخر حتى مدينة اتشميادزين. عثر من بعد ضابط بولوني في الجيش الروسي على النصف المدفون ونقله إلى ماتيناداران.

والتقى النصفان أخيراً على أرض الوطن لينعم المخطوط مجدداً بالأمن والسلام.

أما اللازمة التي لا تني تتكرر في أدبنا كله، بأصوله القديمة، فهي الكفاح لتحرير الوطن، والإيمان الراسخ للشعب في الحياة المسالمة والعمل الشريف.

فهل من يستطيع تعداد الكنوز التي لا تنضب لثقافتنا؟ وهل يسع أحداً أن ينسى أن شعباً يمتلك تلك الكنوز الروحية قد ظل قروناً بحالها غير قادر على التنعُم بها؟

ولكم هو كبير عدد الكتاب الذين ظلوا يحلمون، حتى مطلع القرن العشرين، بزمن يقدر الفلاح الأرمني فيه أن يقرأ أعمالهم.

وقبل قرن وبضعة عقود، كان خاتشاتور أبوفيان، يحلم دون كبير أمل، بأن يكون لديه ذات يوم مئة تلميذ أرمني. فهل كان يسعه أن يتخيل أن مكتبة مياسينكيان في يريفان، تضم على رفوفها من الكتب ما يكفي لإعارة كل فرد في البلاد أكثر من خمسة كتب، حتى الرضّع والشيوخ؟

هل كان بوسع هاكوب ميغابارت، وهو الذي بذل الكثير من أجل طباعة الكتاب الأرمني، أن يتوقع أن يطبع في أرمينيا الحديثة من الكتب الأرمنية، خلال بضع عشرات من السنين، أكثر مما طبع منها في العالم أجمع منذ ظهر أول كتاب عام 1512 وحتى عام 1920؟...

ولئن ظهرت لدينا أشياء كثيرة في القرن العشرين، ووصلت إلينا أشياء أخرى بحجم ساقية صغيرة نبعت من الماضي، فإن الكتابة والأدب، وهما الكنز الذي لا مثيل له، قد وصلا إلينا نهراً متدفقاً جباراً.

وليس من مهمة تفوق سمواً مهمة الكاتب الأرمني الذي يمثّل أدباً ذا تراث غني.

إن النداء الذي أطلقته أرمينيا في انبعاثها لم يُرجع فقط إلى أرض الوطن فنانين كانوا مبعثرين في البلدان البعيدة، (عادوا أحياء أو أعيد رفاتهم)، بل أعاد نتاجاتهم الفنية أيضاً، تلك كانت حال أوبرا أرشاك 2 من وضع تيغران شوخاجيان، التي ظلّت تائهة طيلة قرن ويزيد، ورسوم ادغار شايين ومنحوتات هاغوب غورجيان.

لقد قُدّمت في أرمينيا، للمرة الأولى، أوبرا ألماست بسندياريان وأوبرا أنوش لأرمين تيغرانيان، وألحان نيكوغايوس تيغرانيان وماكار اكماليان وكاراموروزا وروموانوس ميليكيان، على النحو الذي تستحقه. كما تألقت للمرة الأولى أيضاً في صالات المعارض الأرمنية المنمنمات القديمة ولوحات هاكوب أوفاتانيان وفاردغيس سورينيانتس واغادجانيان وأراكليان وايغيشي تاديفوسيان.

إن ألحان آرام خاتشادوريان معروفة ومشهورة في كافة أرجاء العالم، أما الرباعي الشهير كوميتاس فقد أسمع موسيقاه في كافة البلدان.

وماذا عن الأغاني وعن الرقصات الوطنية؟ من الذي أعادها إلى الشعب بعد أن استوحاها من المصادر الفوكلورية فأغناها بالفن المحترف سوى فرق الغناء والرقص وفرق الإنشاد والرقص الإيقاعي وسواها؟

إن حيوية المواهب لدى الشعب لرائعة حقاً. أما طاقته الخلاقة التي ظلت مخنوقة طيلة قرون، فقد تحررت في النهاية لتحقق معجزات تنعقد لها الألسن من الدهشة.

حسب التصوير الأرمني الحديث اسم واحد: مرتيروس ساريان ليؤمّن له شهرة عالمية. فماذا عن المصوّر والنحات ارفاندكوتشار وموهبته الخصوصية جداً؟ ثم هاكوب كوجويان، وهو المصوّر والرسام النادر مثيله، والذي ورث لباب

التصـــوير الأرمنـــي في العصور الوسطى؟ أما الأسماء الحديثة جداً والعديدة جداً التـــي نقع عليها في المعارض المقامة هنا وهناك فحدّث ولا حرج. فكلها نتاجات فنية تنمّ على خصب مواهب الشعب التي لا تنضب.

ولكـــم أشـــادت الصحافة الأوربية والأميركية بالمطربات والمطربين أمثال: غوهارغاســـباريان وزارادولوخانوفا وتاتيفيك سازندارايان وبافل ليسيتسيان الذين عكسوا في أغانيهم الجديدة انبعاث الوطن.

ولا مـــناص من الإشارة إلى شهادة قديمة وردت على لسان الأديب الفرنسي الشـــهير رومان رولان، الذين فتن بالألحان والأغاني الأرمنية وروعتها فقال إنما أرمينيا هي إيطاليا بلاد السوفييت...

ألا فلتصدح الأناشيد الأرمنية التي تروي لشعوب العالم أجمع آلام شعبنا في الماضـــي ومـــا يـــنعم به حالياً من رغد العيش. ولتصدح في أرمينيا أيضاً أناشيد الشعوب الأخرى، فليس أجمل من التآخي بين الشعوب والأناشيد...

ملاحظة الكاتب

إن النشـــيد الأخير الذي أهدي إلى أرمينيا قد انتهى، لكنْ هل انتهت الأناشيد كلها؟ لكلٍ شيء على الأرض بداية ونهاية، لكن أليس الشعب وأغانيه بلا نهاية؟

أما أنا كيفورك، ولقبي ايمين، ابن الكرام غريغور من قرية أشتاراك، وأمي هـــي أروســـياك، المشـــهورة بغزل الصوف، من مقاطعة غوختان، فابن الشعب الأرمنـــي بأجمعـــه. ولم أقل لكم سوى ما قرأت في المخطوطات القديمة والكتب الحديـــثة وما سمعت من فم أجدادي وما رأيت بعينيّ. وأنا أكلّف شعراء المستقبل فـــي أرمينـــيا بمواصـــلة هذه الأناشيد الأبدية، التي تشبه مسيرة شعبنا عبر الآلام لملاقاة السعادة. وهي أناشيد أبدية كالحياة.

وتواصـــل الحـــياة سيرها... فبالأمس شهدت دور التوليد في ييريفان ولادة سبعة وستين صبياً وثمان وثلاثين بنتاً جاءوا ليضموا أصواتهم الرنانة إلى الأغنية القديمة لأرمينيا. ولم يحملوا بعد من أسماء. لكن أياً كان الاسم الذي سيطلقه عليهم

أهلهـــم: فاهان أو غريغور، أرتويت أو اكيت، فلن يكون لهم بالنسبة لنا سوى اسم واحد: غاليك، أي المستقبل.

فَلْيكبروا، ويرثوا هذه البلاد القادمة من أعماق القرون والماضية نحو القرون البعيدة، هذه البلاد الشهيدة فأضحت سعيدة، الصغيرة بأرضها والكبيرة بطموحاتها، والتي يبرق على شعارها: جبل آرارات، شاهداً على تاريخنا الطويل

وكرمةٌ وسنبلةُ قمح.

□□□

قصائد للشاعر الأرمني
هوانيس شيراز

■ ترجمة : ديلان شوقي ■

عن الأرمنية

كلما ابيضّت شعرة
في رأسك يا أمي،
بكتها أوتار قلبي.
فأنت، وإن لم تفقدي ولداً
في الحرب،
إنما الذين فقدوا أولاداً هناك
جلبوا بياض الثلج إلى شعرك،
أنا لا أريد شيئاً من الدنيا،
سوى، ألاّ يتساقط ثلجٌ جديد،
فوق ثلج شعرك.

إنهـا باقـة مـن المعاني السامية والمشاعر الإنسانية الدافئة جمعها الشاعر هوانيس شيراز في قصيدة "إنسانية" التي تألق في فضاء ارتفاع مستواها، وظهرت

مــرارة حــياته عــبر آلام لم يعانها وحده كشاعر أو كإنسان فقد أهله في مجازر وحشــية بل عانى الشعب الأرمني بكامله المذاق ذاته وقاسى القسوة حتى انطفأت شعلة الفرح بين أطفاله وشبابه وشيوخه ونسائه.

وقــد استطاع هذا الشاعر الحساس ذو الرؤية البناءة أن يوصل القارئ إلى درجة من التعاطف الإنساني، والروح الحزين مع كل الشعوب التي تعاني من ظلم الطغيان، وتحاول أن تعيش كما خلقها الله.

إن الشاعر الأرمني هوانيس شيراز يتذكر في كل كلمة يكتبها ويحس بمعناها أمــه التي ولدته، وهي هاربة من بطش الظُلاّم الأتراك، إنهم لم يدركوا بأن سهل شــيراك سوف ينبت في عيونهم شوكة لن يستطيعوا اقتلاعها مهما حاولوا. وهكذا تكلــل مديــنة كومرو بمجيء شيراز عام 1915، ثم قتل والده عام 1920 حين هاجموه وضربوه حتى فارق الحياة.

يقــول في قصيدة معجزة وهو يتذكر والده ويبلغه شوقه وحنينه عبر شعور من الشعر والحزن.

رأيتُ أبي في حلمي،
فظهر لي مثل أمي.
برغبة، ورهبة، ارتميت في أحضانه
فقام من اللحد واحتضنني،
سكبنا معاً أمرّ الدموع وأحلاها.
ألقى أبي نظرة لما حوله،
فرأى جبل أراكاتز، وابتسم بحنان.
قال: ما زال ابني على قيد الحياة.

كانت أم شيراز تعمل لدى الأغنياء، تنقل لهم الماء إلى بيوتهم وتعمل بأشغال يدوية صعبة، حتى كبر شيراز وشقيقتاه كوهار وماري.

دخل المدرسة بعد أن أخرجته أمه من الميتم.

كان يؤلف الأشعار ويلقيها قبل أن يتعلم الكتابة، فكانت شقيقته الكبرى تدونها لــه. عمل في مجالات عديدة، فقد عمل لدى حداد وسمكري وخياط ولم يستمر في مهنة واحدة، كما أنه كان يهرب بشكل دائم من المدرسة.

حين بلغ شيراز السابعة عشرة من عمره، أخذ يعلم الصغار في قريته، وذلك بتشجيع من أخته، بالإضافة إلى أنه توجه بشكل فعلي إلى تدوين ماكان يؤلفه، ثم عمل عند نساج في معمله، ثم عمل موظفاً في مطبعة كموزع للحروف وهذه كانت القفــزة النوعــية في حياته بالنسبة للكتابة، فقد شجعه أصحاب العمل فأخذ يؤلف الأشعار بشكل غزير.

بعد ذلك أخذ يكمل دراسته حتى تخرج من الجامعة.

لقــد ذاق الشــاعر فــي حياته كل أشكال الظلم و البؤس وبقيت صور القتل والتشــرد والدمــاء طاغية على منافذ الفرح، والتفاؤل، فتغلقها كلما حاول الشاعر التخلص منها أو الهروب إلى عالم أكثر نقاءً وإشراقاً.

فيقول في قصيدة: سفر التكوين.

عيون السماء القاسية الظالمة.

وبكت النجوم أيضاً..

ارتفعت البحار حتى بانت في قعرها

الرمال هي عبرات متحجرة.

هاجت عصوراً، وآثار العذاب

بقيت تجاعيد الأمواج المتلاشية،

تدنس وجه البحر الصّبوح.

حيــن أخــذت قصــائد شــيراز ترى النور، وجد نفسه في الصحافة، فطبع مجموعــته الشــعرية الأولــى عام 1935، بعنوان تباشير الربيع وقد طبعت في موسكو.

في عام 1937 انتسب شيراز إلى جامعة يرفان قسم البحوث وأصدر خلال

ذلك مجموعته الشعرية "بلاد الشمس".

ثـم ترجمت مجموعته الأولى إلى اللغة الروسية، فمنحته الدولة جائزة وسام الشرف، بعد ذلك العام تتابعت إصدارات كتبه فكانت..

ـ "اختلال الأقطاب" 1939.

ـ "سعادتنا".

ـ "الراعي الصغير".

فـي عـام 1940 صـدر له كتاب "النسر البرونزي"، ومجموعته الضخمة "أنشودة أرمينيا".

كانـت أشـعاره تـرفع من معنويات الجنود خلال الحرب العالمية وتلهب مشاعر الجماهير وخاصة الوطنية منها والقومية.

فيقول في قصيدة "صوت الشاعر"

أنا الذي حزن لموت زهرة واحدة،

أنا الذي لم يطأ النملة بالقدم،

إني مرسلٌ زنيري، إنه سوف يموت،

وسيبقى أبداً تحت أقدام المنية...

حتى يسير السلام بحرية.

نحو ربيع الإنسانية الآتي.

ثـم تابع شيراز العمل المتواصل ولم تنقطع إصدارات كتبه، بل ازداد نشاطاً وغـزارة بشـكل كـان فيه التجديد والتطور باديين والتنوع بالمواضيع واستخدام الأدوات والتحكم بها بطريقة مذهلة.

فـي عـام 1942 صـدرت مجموعـته الشعرية الثانية مترجمة إلى اللغة الروسية، فمنحته الدولة وسام "الراية الحمراء للعمل".

اتجـه شـيراز نحـو الشعر القصصي آخذاً مضامينه من القصص الشعبية والأساطير المتناقلة بين الشعوب.

فـــي 1947 أصدر قصته الشعرية "سيامنتور وخجي زاريه" وهي أسطورة شعبية قديمة في الشرق، وقد ترجم عمله هذا إلى لغات عديدة.

فـــي عـــام 1949، صدرت له "مختارات" ثم "رفيقي السماني" وهي قصيدة طويلـــة، يروي فيها الشاعر مأساة طفولته المؤلمة وطفولة رفاقه الذين ذاقوا معه الجوع والتشرد.

في نفس العام أصدر مجموعة "كتاب للحب والسلام"، وكتاب "الحية والنحلة"، عام 1953.

في عام 1954 طبعت مجموعته مختارات الجزء الثاني.

أمـــا أكبر مجموعاته فقد صدرت عام 1959 بعنوان "قيثارة أرمينيا". المجلد الأول وهي تتضمن أشعاراً وجدانية وفلسفية لها النفس الطويل والبعد الفكري.

اصدر "الحب أو السيرانامـا" وهي قصة حب ملحمية عام 1959.

في عام 1968 صدر ديوانه الصغير "نصب لذكرى أمي".

أما المجلد الثالث من "قيثارة أرمينيا" فقد صدر عام 1974، تلته "إنسانيات" وهي مجموعة قصائد مختارة طبعت عام 1975.

وقد منح جائزة الدولة على مجموعته الأخيرة هذه.

أما كتابه الأخير فقد كان في عام 1978 بعنوان: "علام تدل الأمثال".

وهـــي مجموعـــة قصـــص مستقاة من الأمثال والحكم الشعبية وقد صاغها الشاعر وأطّرها بشكل شعري جميل، وضمن أجواء واقعية واضحة الملامح.

لقـــد كان للشاعر شيراز وموهبته الكبيرة الأثر الإنساني العميق، فهو اعتمد على العفوية والمكنونات الحسية والبصرية وحاول أن يبقى جدياً وقريباً من واقعه إلى درجة الالتصاق بالإنسان والبيئة.

تجلـــى الصدق وتمجيد العذاب البشري في كل قصائده، حتى إن قصيدة من شعره لم تكن في مستوى أقل تأثيراً على القارئ.

اســـتفاد شـــيراز مـــن التراث والأدب الشعبي الشفاهي كثيراً، واستخدم كل مفاتـــيحها بعـــبقرية ودراية، ولم يهمل أي جانب من تلك التي اعترف بها عالمه

المحيط به.

شــيراز الــذي لــم يجد متسعاً من السعادة أو التفاؤل الحقيقيين، إلا أنه كان مدركــاً لقضايا الإنسان وكل حاجاته فتغنى بالأم والوطن والسلام. وأعطى للمرأة الأهمية الكبرى وصورها بأجمل تصوير وعمق رؤية.

وقد كتب عن المرأة يقول:

كأن الشمس تشرق من عيني المرأة

وبقبلة منها تزدهر الصحاري.

المرأة ينبوع الحياة، المنتصرة على الممات.

لقــد بقي شيراز واقعياً، حتى أنه أبعد الخيال والتخيل عن كل نتاجه الغزير ذاك، وبقيــت قــيمه وأخلاقه الإنسانية التي أورثتها له أمه، حية ونقية كما كانت، وبقي الشاعر يذكر الإنسان بالضمير والإحساس بالآخرين، حتى إنه كان يستحضر روح والدتــه، حيث كانت تذكره بنفس الشيء وتؤكد عليه أن يتمسك بتلك المبادئ فهــاهو فــي قصــيدة "معجزة" يحدثنا كيف أتته أمه وطلبت إليه أن يستعين بالله والضمير، فكلاهما واحد فإن وجد واحدهما كان الثاني موجوداً بالتأكيد، فيقول:

رأيت فيما يرى النائم،

أن قرع بابي، قلتُ: من القادم.

امرأة عجوز من خلف الباب،

قالتْ: أفديك بالروح والقلب،

بصورة سائلة، أتيت

ليعرف الناس أيضاً ضميرك

أباقٍ يا بني، ضميرك أنتَ،

أم إنه بموتي قد مات.

ونــرى خــلال عرضنا لأدبه وسيرته الشعرية الفنية بأن الشاعر شيراز قد

خلف لنا خطاً إنسانياً مميزاً في أشعاره التي مرت من قنوات مختلفة.فكان لوقوفه أمـام مأسـاته الطفولـية وكذلك آلام أمه المضحية بذلك الكم الهائل من استخدام المعانـي والاسـتعارات والصـور الشعرية، البصمة القاتمة والترفع الشفاف من حـالات الألـم بـذات الوقـت وهي لم تحبطه بل بالعكس فهي قوت من عزيمته وصقلت موهبته.

ونجـد مشاركته الدائمة مع الآخرين من أهله وشعبه والإنسان في كل مكان، فـيدعوهم إلى التآخي واقتسام الأفراح والابتسامة، وكذلك يخاطب، مثله مثل كافة الشعراء في العالم، القصيدة فهي يمكن أن تغير وجه العالم، وتجعله حميلاً وخالياً من القتل والجرح والحزن.

ثم ينادي جميع الأمهات، ويحث على مكانتهن وعذابهن من أجل الأولاد.

يقول في قصيدة "مقدمة أغنية"

ـ بدت الآلهة شياطين
أخ يغدر بأخيه، وأخت بأختها.
وما سلم من الدَّنس سوى قلب الأم المقدس.
آه... هي الأم وحدها سامية مقدسة.
ـ تغزل الشاعر صيات نوفا بحبيبته،
وتغنى الشاعر ناريك بربه، والخيام بخمره.
قلتُ لنفسي: تغنَّ بأمك أيها الشاعر،
حتى تصبح أماً الحياة والمرأة.
سأفتح لكم قلبَ قلبِ الأم،
مثل كهوف عتمة ضمت نفائس الكنوز،
سأدفع دين جميع الأبناء العاقين،

إلى جميع الأمهات الضالات....

أمـــا بالنســبة للبنـــية الملحمية والفلسفية في قصائد شيراز، فقد قدم الشاعر الأرضـــية الخصبة لتلك الثقافات الشرقية لفلسفة حياتية عاشها وقلّبها وفرزها إلى نقـــاط ومرتكـــزات عمل بموجبها ولخص كل تلك المعرفة المسبقة والتجربة في قوالـــب أدبـــية شـــعرية، ينز منها الهم الإنساني والتعاسة التي يتسبب بها الإنسان لأخيه الإنسان.

الشاعر شيراز كان يملك نفساً ملحمياً مكّملاً وناطقاً بغنائية محببة ذات أوزان عفوية ومتوافقة وخاصة تلك التي كان موضوعها الحب والرومانسية.

وحيـــن كـــان يصـــف الجمال والطبيعة والمشاعر الإنسانية من فرح وحزن وغضـــب، كـــان يـــتوجه إلى الله فيربط الكون وموجوداته بأغلب الأشياء الحسية وبذلـــك يباغتـــنا بدهشة ونحن نقف أمام لوحة كتابية لونية تتحدث بجمالية الأشياء وأسرارها وسبب وجودها.

ـ الروح المجهولةُ ـ خالقة الكون ـ
التي سميت: إلهاً منذ العصور، والعصور،
عندما خلق الشمس والتراب والسماء والبحار،
خلق كل مافي كوننا هذا:
فخلق الإنسان من صلد التراب،
وزع كل خيراته اللا محدودة،
فبهجة النور أعطاها للسماء.
وخصَّ البحار بالضحكة الزرقاء.
البسمة البيضاء نثرها على الثلوج.
وفرحة السموّ أعطاها للجبال.
بسمة الربيع الخضراء للسهول،

والتغريدة أعطاها للرياح للطيور،

وسعادة الأمومة للتراب،

وأعطى للكل نشوة الحب.

لم تقتصر شهادة النقاد والشعراء الأجانب على إظهار عبقرية وأهمية اتجاهات شيراز الشعرية وأغراضها، فشيراز شاعر أبدع في الشعر المحكي الغنائي، وعمق نظرة الغزل والوجدان في الأجيال التي تلته، وقد قال عنه الشاعر الفرنسي الكبير، لوي أراغون قبل الأربعنيات من هذا القرن، "هوانيس شيراز، المشرد سابقاً، هو اليوم شاعر كبير، أكثر شعراء أرمينيا شعبية وشهرة...".

ويقول عنه الناقد الروسي الشهير، نيقولاي تيخونوف عام 1956 في مجلة "ليتيرا تورنايا غازيتا"... إن أشعار هوانيس تزخر بنار الكلاسيكية وهو ليس من أكثر شعراء أرمينيا شعبية وموهبة فقط، بل هو واحد من أكثر الشعراء شعبية وموهبة في كافة أنحاء الاتحاد السوفياتي.

بقي أن نقول بأن الشاعر هوانيس شيراز فِعْلاً نجم خالد، كما قال عنه الكاتب والناقد السوفياتي، موريس بوتسخيشفيلي.

□□□

المقاومة
في الأدب الإيراني المعاصر

بقلم: محمد جعفر يا حقي

■ ترجمة : د.ندى حسون

عن الفارسية

كــان الشعر الحديث أو الشعر الحرّ محطّ اهتمام أنصار الغرب من المثقفين فــي إيران، وقليلاً ما نجد لدى شعر هؤلاء انعكاساً للميول الدينيّة، ومع ذلك فإنّ بعضــاً مــن هــؤلاء المجدّديــن اقتربوا من المفاهيم الدينيّة في العصر الحديث وبالتحديد قبل الثورة الإسلامية وكانت أشعارهم تمثيلاً للتيّارات السياسيّة السائدة في تلك المرحلة.

فمــنذ أوائــل الســتينات اصطدم الشعراء والمثقّفون مع النظام البهلوي ممّا جعلهم عرضة للملاحقة السياسيّة والإيذاء والسجن والتعذيب، وفرض عليهم أنواع الحظر الفكريّ والبيانيّ، وتمشيّاً مع الشعر الاجتماعيّ الحماسيّ الذي صرف همّه للدفــاع عن المحرومين والمجتمع المظلوم، نشأ نوع من الأدب المخالف للحكومة مقــروناً بالحيطة، وكان هدفه المبارزة المباشرة مع الحكومة، مما جعلهم يطلقون علــيه اسم "أدب المقاومة". وتعايش شعر المقاومة بجناحيه الاجتماعي والديني في العقدين السادس والسابع بهدف مشترك.

---

* *المقالة مترجمة من كتاب في الأدب الإيرانيّ الحديث والمعاصر "جون سبوى تشنه" للدكتور محمّد جعفر ياحقي*

كـــان شـــعراء الجـــناح الاجتماعيّ من الشعراء المحترفين آنذاك، وكانوا قد استعملوا الرمز والتصوير في الهجوم على النظام الحاكم، من هؤلاء: أحمد شاملو، مهـــدي أخـــوان ثالث، آتشي، سيانلو، م. آزاد، إسماعيل شاهر ودي، م. سرشك، مفـــتون، أميني، حميد مصدّق، منصور أوجي، محمّد مختاري، خسرو كلسرخي، سعيد سلطانيور، رمنوجهر نيستاني

وكـــان الشعراء الخراسانيون يمتازون بالصراحة والجرأة في طرح وجهات نظرهم ومبارزتهم مع النظام، وتعرّضوا للكثير من الملاحقة والأذى والتعذيب من قـــبل الحكومـــة، وانتمى بعض هؤلاء الشعراء لجماعات متمرّدة مثل فدائيي خلق وغيرهم[1].

وفي العقد السابق للثورة الإسلاميّة ازداد النشاط السياسيّ-والمبارزة المسلّحة مـــع النظام الحاكم، ومع أنّ أشعار المنتمين إلى جماعات كمنظمة خلق لم يكن ذا قـــيمة أدبيّة عليا، إلاّ أنّه ذو أهميّة من حيث كونه صورة واضحة لتلك الفترة ومن حيـــث طـــرحه مفاهـــيم ضـــدّ الظلم والاستبداد، ونجده يقترب أحياناً من الشعار السياسيّ.

ولا بـــأس هـــنا أن نقرأ قصيدة "فارس في الفلق" للشاعر الجنوبي منوجهر آتشي من مجموعته "لقاء في الفلق" كنموذج:

براعم
أمل في الفلق الأبيض اللون
براعم في هدأة ملال السَّحَر
****أيها القلب! انهض من نوم الأحاسيس الهانئ***
أيها القلب! انهض من النوم
-الماء يجري-

---

[1] *طبعت نماذج من هذه الأشعار في مجموعة بعنوان: شعر الحركة الحديثة جمعها صفر فدايي ينا، انتشارات طوس.*

وفارس عارٍ،

-ألم تره قطّاً!-

من قتامة الدماء الليليّة الشرقيّة

من قتامة جرح شهداء الليل

يأخذ مرآة من يد بعيدة، المرآة تعبر حول الشمس

وعارٍ آخر

-لم تره قط-

الدم يعبر من السراب

****أيها القلب! انهض من النوم***

انظر احتراق الظلال في حاشية الصحراء

إلى ذاك الفارس الغريب

-ذاك الرسول اليقظ-

فمرّة ثانية في الفلق، عبر الرصاص بلون الماء

خلال تلك السنوات جاء شعراء مثل طاهرة صفار زاده، موسى كرمارودى، مهرداداوستا، وبعض شعراء خراسان ليرفدوا شعر المقاومة بطرح مفاهيم الجناح الدينيّ.

نشـرت طاهرة صفار زاده مجموعتها الشعرية الأولى في أوائل السبعينات تحت عنوان "رهگذر مهتاب" أي: (معبر ضياء القمر)، ثم سافرت لمتابعة الدراسة فـي أمـريكا واطّلعت على عالم الشعر الإنكليزي، ومنذ ذاك الحين تأثّر شعرها بالشـعر الإنكلـيزي من حيث البناء والقالب، كما نظمت أشعاراً بالإنكليزيّة ترجم بعضها إلى الفارسيّة في مجموعة بعنوان "سدّو بازدان" أي "سد وسواعد"

اتجهـت صفارزاده في السبعينات إلى الشعر الديني الذي أصبح سمة غالبة على بعض مجموعاتها مثل "سفرينجم" أي "السفر الخامس" و "بيعت بابيدارى" أي:

"مبايعة مع اليقظة" التي تتضمّن قطعاً نظمت في السنوات القريبة من الثورة تتجلّى فيها روح المعارضة والعقيدة الدينيّة الكاملة.

وفي المجموعتين "سفرينجم" و "بيعت بابيدارى" نجد قصائد قيّمة تنضوي تحت "أدب المقاومة" مثل "سفر سلمان" و "سروش قم" و "آتش نشان" ونموذج على هذه الأشعار، نقرأ قطعة من قصيدة "سردش قم" أي "ملاك قم" المهداة للإمام الخميني.

تعال

أيّها الشفق يا معلّم اليقظة

يا قائد معركة الخلاص

جاءت الصحوة من نداء قم

وتفتّحت البيوت الشبيهة بالقبور

ونهض الإنسان من نوم عميق

سمعت نداء "قم[1]" وقمت

قلت "قم" فقام الجميع

وأزيح الستار

عن رسم سلسلة الجبابرة

عن رسم الأثرياء المشؤومين

بعد هذه اليقظة لن يكون ليل أبداً

والليل لم يحتوِ قطّ يقظة كهذه

أيها الروح المضادّ للنوم

يا روح "الله" العادل

---

(1) إشارة للآية (قم فأنذر) من سورة المدثّر.

أنت السابق لجميع المبارزين

أنت المبارز الرسول

في عصر الوسوسة والطمع

عصر توافق قاتلي البشر

عصر تواطؤ الطرّارين

المرتشين وطلّاب الليل

في أحلك ليالي التاريخ

أنت مشرق العالم بأجمعه

ولا ستارة بينك وبين الشمس

أمّا أشعار موسى كَرمارودى، فكانت نماذج لتجلّي الروح المقاومة وفيما يلي مقطع من قصيدته، محبوبة "شب" أي "محبوبة الليل" التي نجد فيها إحساساً شعرياً مقروناً بالمفاهيم الدينية نقلاً عن كتاب "سرودركبار" أي "نشيد الوابل"

محبوبة الليل

قيامتي الصغيرة

صحوة حضنك

فيها، أتخلّص من كلّ شيء

وفي غمرة هذا الخلاص

سأتعلّق بالله

قسماً بورق الورد

أنّ في امتزاجنا

لا يوجد شيء سوى الله

اتلونا!

فنحن جزء من آيات الله

عندما تتشابك أيدينا

تعال،

لنقف في صلاة أخرى

انهض!

لنمتزج في الله

سلام على لحظة الوصول

حيث السلام أعلى من العلوّ

سلام على هذه القداسة

ففي ذاك العراك كان اضطراب ولم يكن:

لحظة امتحاننا القدرة،

وجرياننا، انسياباً

كأمواج الرمل، في حرارة عاطفة ساخنة

مثل، أعلى زوبعة ترابيّة

نلتف حول أنفسنا

وإلى طرف الله ذاك

نرقى إلى الأوج رافعين عباءاتنا

قاب قوسين،

أو أدنى

وتلك: سدرة المنتهى

وأنت، يا سيدة الدم

يا من ضفائرك نسجت من حرير أسود كالليل
وحاجباك توازن آيتين مكررتين
وعيناك:
كتابان سماويّان
من نبيّ واحد
شفتاك قطعة من السكّر
وأنفك
استقامة استقرار دائم؛
كيف استقرّت عظمة كهذه في رقّة كهذه؟
في الصدر نارنج
وفي اليدين قنبلة يدويّة!
حضنك ميقاتي
سلام عليك
والله أكبر
سلام على تلك اللحظة العليا
التي يتماوج فيها في داخلي بحر من النجوم
عندها
تحولت رؤوس أصابعي
إكسيراً
وإذا ما غاصت في كومة الرمل
تحوّل ذهباً مذاباً

من دمائك

التي رششتِ بها الصحراء..

في تلك اللحظة الإعصاريّة

حيث العالم لا شيء سواك

وقفتِ إلى جانب الضياء

وأنا

من أعلى أغصانك،

أرفع قبضتي

لأقطف من عنقود النجوم حبّة

أو من رداء الله

ذيل جبّة

عندما تجلّى الإله في النور

حدّقت عيناي

والزمان

جرى فيّ

بزلال عين الماء وبرودتها

وقلبي الأرضيّ

يتوقف

وقلبي السماوي

ينبض؛

كلّ شيء فيّ يعبر من مرآة النور

ولا شيء منّي غير انعكاس تجلّي الوحدة

على مرآة الحقّ
يبقى
عندما نلتفّ معاً
كمنعطفات الغابة
ونسخَر الوحدة أيضاً
لأنّنا أعلى من الوحدة؛
في ذاك الحين
أنا أيضاً،
أصبح بعضاً منك
فخطاب أنا،
إهانة كبرى
لهذه الكلمة
وأنا وأنت،
بعض من الله
فخطاب "نحن" إهانة كبرى
لشمول الله!

وفـي العقدين السابقين للثورة الإسلاميّة نشرت مجموعات من شعر المقاومة تطرح مفاهيم دينيّة كالجهاد، والشهادة، والقيام، وليلة القدر؛ كما أكّد الشعراء على سـيرة أشـخاص كالإمام الحسين، والإمام عليّ، وأبي ذر وطرحت مفاهيم ثوريّة مسـتقاة مـن أفكـار هؤلاء العظماء ممّا جعل الجناح الدينيّ لشعر المقاومة يبدو هجومـيّاً أكثر من السابق وشيئاً فشيئاً بدأ الشعراء يعرضون عن الرمز والتورية والحذر في طرح رغباتهم الوطنيّة والقومية، وازدادوا صراحة حتى إنّ الشعر كان يغـدو شـعاراً وازداد الحظـر من قبل قوى الأمن والنظام ولم يبق مجال لطرح

الأفكار بحريّة، فأصبح تداول هذه الأشعار بشكل خطّيّ أو كانت تطبع بشكل سرّيّ في كتب فاقدة لبيانات الطباعة.

وفي النهاية لا بدّ من القول إنّه رغم أنّ الأشعار السابقة للثورة لم تكن تتّسم بالطابع الدينيّ، إلاّ أنّها كانت بالاقتراب من السنوات الثورة تتجه للمفاهيم الدينية وقد تلاحم المستغربون (المؤيدون للغرب) من الشعراء مع الشعراء الملتزمين بالدين للمبارزة مع النظام البهلوي وفي سبيل المقاومة. وقد اتحد في النهاية أغلب الشعراء غير المتدينين من جبهة المقاومة في مسيرة المبارزة السياسيّة مع النظام الحاكم مع شعب الثورة، وحاولوا جنباً إلى جنب تحقيق أهداف الثورة.

ويمكن لأشعار هؤلاء الشعراء القادمين أن تغني ما يسمّى بأدب الثورة وترفدهُ وتساعد في دراسته وفهمه.

□□□

الإبداع الأدبي
مقاومة
من نوع آخر

■ ترجمة وإعداد: هدى أنتيبا ■

عن الفرنسية

لأنها رافقت الشعوب والعصور ودكت العروش، وصنعت أمجاد الجندي المجهول، تعددت تسمياتها وتنوعت عناوينها... انبثقت من القاعدة الشعبية حيناً، ومن مراكز القيادة العليا حيناً آخر، لتخوض حرب الجبهات الشائكة، وحروب الشوارع الموحلة، وحروب الريف... مقاومة هي وتجربة استثنائية خارجة عن المألوف حسبما دعتها "الفيغارو الأدبي"، في ملفها الخاص "بأدب المعركة"... تجربة استنفرت من أجلها القوافي والألحان والفنون المسرحية والتشكيلية (لوحة غيرنيكا رائعة بيكاسو)، والفن السابع، ألا يعتبر أدباء المعركة دعاة مقاومة؟؟...

من تجربة بين الحياة والموت شقت طرق الشهادة في سبيل الحرية والتضحية من أجل الوطن والخلاص من العبودية... ارتوت المقاومة بدماء آلاف الفدائيين لتخلد بطولاتهم أعمال الأدباء ويوميات الثوار ومراسلات الصحفيين الحربيين.

في مقالاته الصحفية. وقبل أن يصبح رئيس وزراء بريطانيا وقف "وينستون تشرشل" إلى جانب المجهود الحربي كأسلوب لدعم المقاومة الشعبية في بلاده

خـــلال الحـــرب العالمية الثانية... أما الجنرال "ديغول" فتمجد "مذكراته" العمليات الفدائية التي نفذتها خلايا أنصار المناهضين للنازية، رافعي شعار "فرنسا الحرة"... كذلـــك الأمر بالنسبة للزعيم الصيني "ماوتسي تونغ" ومسيرته الأطول على دروب الـــتحرير... ولأن المقاومة مواقف ـ تسلحت تلك التجربة بالثقافة والعلم حيناً، وبتأيـــيد الـــرأي العام أو إدانته لها في معظم الأحيان... فالمقاومة الفيتنامية على سـبيل المـــثال قد لا تختلف عن شقيقتها الفلسطينية من حيث المبدأ أو الغاية لكن الثانـــية تتميز من حيث كونها لا تزال ساخنة تنبض بالحياة وبدماء شهداء الأرض المحـــتلة.. كذلـــك الأمر بالنسبة لمقاومة المليون شهيد في الجزائر والتي تعاطفت معهـــا مجتمعات العالم الثالث، وتتدرج تلك الاعتبارات بالنسبة لتصدي "هانيبعل" للجيوش الرومانية أو مقاومة "سبارتاكوس"، لتلك القوات مع إهمال الفارق الزمني بين الثائرين...

فرغم مناهضتها لجحافل الامبراطورية الغازية إلا أن "سبارتاكوس" (قتل سنة 71 ق.م). اعتـــنق المقاومـــة كطريق للخلاص من الرق خلال صموده مع رفاقه العبـــيد عاميـــن فـــي وجه الرومان في حين حمل الجنرال القرطاجي (انتحر عام 183م)، الســلاح للدفـــاع عن وطنه وقد احتله العدو الغاشم... لكن كيف تنوعت أشكال المقاومة؟...

وماذا أنجب هذا التباين؟...

خصائص المقاومة

هـــزّت المقاومة الوجدان الإنساني في مجمل فصولها ومواقفها خلال حروب الأريـــاف وحـــروب الأنفاق والجبهات وحروب الشوارع... ولأنها تنشد الحرية والســلم والعدالـــة استخدمت أدوات "أمنا الحرب" على حد قول "ايرنست يونغر" وبذلـــت الغالي والرخيص في سبيل الوصول إلى غايتها... وفي كتاب موسوعي صـــدر حديـــثاً وعـــنوانه: "عشـــرون قرناً من الملاحم"، [مطبعة بلون الباريسية 2001]، يســـلط المؤلـــف المـــؤرخ "آرتو/ كونت". الأضواء على هوية ونوعية الحـــروب والمعـــارك التي عرفتها الألفيتان الماضيتان إلى جانب نماذج الأسلحة المعتمدة وكيفية طي الصفحة عصر الحصان والرمح ـ لتحل الغواصات النووية،

والـدرع الصـاروخي، والتجسس عبر الساتلايت (الأقمار الصناعية)، مكانها في معارك الألفية الجديدة... ويرى المؤرخ الكونت أن نوازع الإنسان وتطلعاته نحو الخـير والشـر وأطماعـه وتضحياته لم تتغير عبر التاريخ... فالتزامات الجندي المجهـول شـبيهة بالـتزامات "تشـي غـيفارا" من حيث التضحية والفداء، أما المستجدات الطارئة في هذا المجال فطالت فنون وأساليب القتال ليس إلا...

الأسلحة على سبيل المثال، تختلف من عصر إلى آخر فهي أيام "روبن هود" غـيرها أيـام "الفرسان الثلاثة".... وقد عرف القوس والنشاب عصرهما الذهبي خـلال القرنيـن الرابع عشر، والخامس عشر، ثم جاءت "الكرات الحديدية" لتدلي بدلوها في ظل حكم لويس الحادي عشر أما البارودة (الموسكية) التي تُطلق بفتيلة ملتهـبة فقد أطلّت إلى الساح عام 1525 والبندقية عام 1699... لترافق المقاومة أصـناف الأسـلحة. ولعـل أمضى أسلحة العصور الحديثة، الأسلحة الفكرية في مقاومتها الأدبية التي أغنت المكتبة العالمية وتركت بصمات عميقة في هذا الحقل الإبداعـي وعلـى الصعد كافة مع انتقال عدواها إلى الفنون الأخرى... فها هي "الفيغارو الأدبي" وفي ملف خاص حول "التعذيب وأساليبه في كتابات الأدباء" تعدد مواقف هؤلاء من المقاومة وتعذيب الثوار ـــ فتقول: "إن مقاومة عدد من الأقلام التقدمـية للممارسات التعسفية للغستابو على سبيل المثال، كانت أشد وقعاً من أكثر الأسـلحة فـتكاً بالإنسـان"... ألـم يتمرد كل من "فولتير" و"هوغو"، و"تولستوي" و"موسيه"، و"بودلير"، و"مالارميه"، و"غوركي" و"هيمنغواي"، و"فانون" و"آراغون" و"فورياك"، على أهوال جرائم الملكية أو فظائع المظالم عشية قيام الجمهورية؟!...

هـاهو "فرانسـوا موريـاك" صاحب النوبل لعام 1925 على غرار الأديب المناضل "جورج برنانوس"، يقف إلى جانب الثوار العرب في شمال إفريقية ليعلن مناهضته للعنف ضد الشعب الجزائري أيام الاستعمار الفرنسي وقد رأى عدد من الكتاب في الحروب الشر المطلق وفي المقاومة الخير والمطر الضروري لإنعاش الأرض...

كما عند "دريولا روشيل" الذي مجد عظمة الإنسان خلال المعارك وزميليه: "مالابارتـي" و"مونـترلان"... ولئن "خاضَ الإنسان الحروب دون أن يحبها"، كما قـال: "مالرو" إلا أن المقاومة تظل في عيون الفدائي صرخة حب الوطن والسمو

بالذات إلى فوق الطبيعة البشرية، وهي حق طبيعي لرد ظلم الإنسان من أخيه الإنسان (الوحش)....

ملاحم المقاومة

اكتوت عشرات الأقلام بلهيب حروب شاركت فيها أو عاصرتها أو... لتبدع في تصوير وتمجيد أشكال وأساليب المقاومة الشعبية، أو في استنكارها وإدانتها حين تتحول عن هذا الهدف النبيل لتغدو الحروب مجازر وأداة بطش وإبادة جماعية.

هاهو "هيمنغواي" في رائعته "لمن تقرع الأجراس" - صدرت عام 1940 وتعتبر حسبما أجمع النقاد من أهم أعماله الأدبية ـ يحمّل البطولة مهمة تحدي المستحيل والصعاب... وهو الذي التزم بالقضايا التقدمية التي عرفها عصره رغم حصوله على جائزة نوبل عام 1954.... ألم يتطوع في الصليب الأحمر كسائق سيارة إسعاف خلال حرب إيطاليا، ولم يتجاوز التاسعة عشرة من عمره؟... جرح خلالها عام 1917، وكاد يفقد حياته على غرار أبطال روايته "وداعاً أيها السلاح" و... ليعمل من ثم مراسلاً حربياً في أوروبا انطلاقاً من عام 1937، وليشارك في المهمات القتالية للقوى الجوية الأمريكية فوق ألمانيا ثم في تحرير باريس إلى جانب الفرقة الفرنسية للدبابات... وتكاد مواقف شخصيات روايات وقصص "ارنست هيمنغواي" القصيرة تشكل إسقاطاً لمسيرة حياته الخاصة...

ففي "لمن تقرع الأجراس" ينضم "روبير جوردن" إلى صفوف الجمهوريين الإسبان ليتولى مهمة شبه مستحيلة تقضي بتفجير جسر استراتيجي على طريق تقدم أنصار "فرانكو"... وفي مغاور الجبال يقوم "روبير" مع مجموعة من الفدائيين بالتدرب على المهمة السرية. ويتزعم هذه الخلية من الثوار القائد "بابلو" وصديقته "بيلار" التي تحتل رتبة معاونته في اتخاذ القرارات الحاسمة... تشارك هذا الثنائي مجموعة تتألف من "أوغستان" و"فيرناندو" و"رافائيل" (الغجري). و"انسلموا" الدليل العجوز والمراهق "اندريس" و"ماريا" التي فقدت كل أسرتها قبل انضمامها إلى المقاومة ليقع "جوردن" في غرامها... قرأت "بيلار" في كف "روبير" الأمريكي المتطوع نهايته الوشيكة. فاحتمال فشل هجوم أنصار هؤلاء الثوار أي

الجمهوريين كبير جداً، مما يعني اعتماد الفدائيين على أنفسهم لتنفيذ المهمة. وينجح "جوردن" في نسف الجسر لكنه يصاب بجروح تحول دون تمكنه من مغادرة المكان... فيطلب من رفاقه الانصراف بما في ذلك "ماريا" التي ترفض في بادئ الأمر، فما كان منه إلا تهديدهم بالنسف، إن لم ينج كل منهم بحياته، ويظل بمفرده بانتظار مواجهته العدو القادم لقتله...

وأسوة بـ"هيمنغواي" انخرط الأديب الفرنسي "اندريه مالرو" كطيار في الجيش الجمهوري الإسباني، الذي نظم مقاومة شعبية ضد جماعة الجنرال "فرانكو" المنشقة. وليخوض تجربة فدائية نقل تفاصيلها في روايته "الأمل" وصدرت عام 1937... وتسرد الرواية مسيرة الجمهوريين الإسبان منذ انتفاضتهم على "فرانكو" 18 تموز 1936. حتى سقوط المقاومة مع فشل الهجوم على "غواد لجارة" في آذار 1937 لتشكل أحداثها يوميات تؤرخ لتلك المرحلة.

ويحمل الجزء الأول من الرواية عنوان "الوهم" وليرسم مشاعر الأخوة المتنامية في صفوف جماهير "برشلونة" و"مدريد" المطالبة بتغير جذري للمجتمع يحقق العدالة والكرامة للجميع ويُبعد "فرانكو" (ويدعمه هتلر وموسوليني)، عن الحكم. ولأن أحداث الحرب الأهلية الإسبانية اعتبرت فاتحة الحرب العالمية الثانية نتوقف عند هذه الرواية التاريخية... يعمل البطل "غارسيا" في وزارة الدفاع في حين يقوم "مانين" خبير الطيران الفرنسي بالإشراف على تدريب الطيارين الأجانب المتطوعين في صفوف المقاومة الشرعية (لحساب حكومة مدريد الرسمية)، حين تسقط "طليطلة" في أيدي "فرانكو" وعصبته... وتصعق تلك المفاجأة "ينبغ" و"تيفوس" و"هيرنانديز" الثوار الفدائيين الذين يخوضون حرب الشوارع جنباً إلى جنب القوات النظامية الحكومية.. فيقتل "هيرنانديز" ويتولى "مانوئيل" وهو سينمائي ناجح عملية قيادة المقاومة الشعبية خلال معركة "مدريد" و"مانوئيل" مخرج شيوعي النزعة تنجح فرقته في تحقيق نصر الجمهوريين على القوات التي أرسلها "موسوليني" لمساندة "فرانكو"... لكنه نصر مؤقت... إذ سرعان ما تتمخض الحرب الأهلية الإسبانية بعد عام واحد فقط عام 1938 ـ عن سحق هؤلاء الثوار وإبادتهم على يد قوات "فرانكو"... ولتندلع من ثم الحرب العالمية الثانية بعد أشهر قليلة من تلك المعارك الدامية... ولئن افتتح (هيمنغواي) الأسلوب التلغرافي في

الكتابة الروائية إلا أن "مالرو" يعتبر في الرواية "الظروف الإنسانية" عراب التيار الوجودي الذي دشنه كل من "سارتر" و"كامو" ... فيما بعد...

حصدت رواية "اندريه مالرو" تلك جائزة "غونكور" الفرنسية عام 1933 لإثارتها إعجاب اليمين واليسار على حد سواء. جمعت في طروحها البطولة والإنسانية والجمالية الفنية حين تناول الأديب من خلالها الثورة ووحدة الأمة... وتجري أحداثها في "شنغهاي" عام 1927 لتتناول ميتافيزيقية الحياة والموت والتضحية والبطولة والفداء والالتزام... ويعبّر "مالرو" في "الظروف الإنسانية" عن إعجابه بالزعيم الصيني "شون ان لاي" وجسد تلك الشخصية البطل "كيو" لتغدو المقاومة الوطنية أشرف وأنبل الأهداف.... وتستجيب جمالية البطولة لإيديولوجية العمل القومي وهي الأفكار التي دعت إليها الديغولية و"مالرو" من أشد أنصارها حماساً وعملاً لتجديد المسار الوطني في فرنسا مابين الحربين العالميتين..

ثم تأتي "المعذبون في الأرض" كأهم أعمال "أدب المقاومة" في النصف الثاني من القرن العشرين وكمرجع المثقفين في العالم الثالث خلال المرحلة المذكورة...

ويعتبر هذا العمل آخر كتاب صدر عام 1961 للطبيب النفساني الانتيلي (من جزر الانتيل) "فرانز فانون" (1925 ـ 1962)، وأحدث ضجة في الأوساط الثقافية في الشمال والجنوب على حد سواء... فمن خلال "المعذبون في الأرض" سمع الرأي العام العالمي صوت الثورة الجزائرية لأول مرة وكانت تحمل لواء حركات التحرر الوطني في الجنوب... انضم "فرانز فانون" لجبهة التحرير الوطني الجزائري منذ انطلاقها ليصور في مؤلفه التظاهرات المناهضة للاستعمار الفرنسي (الفصول الأولى) مع تحول المقاومة الباسلة إلى السبيل الوحيد للحصول على الاستقلال... ويرى "فانون" أن المقاومة مرتبطة بالأرض أي بالطبقة الفلاحية الكادحة التي تعمل في الزراعة... وهي طبقة ثورية بالفطرة تبنت المقاومة لتواجه الفقر وعناصر الطبيعة الغاضبة إلى جانب سعيها للتحرر من العبودية والاستغلال والاستعمار.

وقد امتدح "جان بول سارتر" هذا العمل وكتب له مقدمة مشهورة.

وصنف "المعذبون في الأرض"، كأبرز كتب "أدب المقاومة" منذ "إنجلز"..

شهود عيان.

لأن اعـــترافات شهود العيان من الوثائق التاريخية المعتمدة امتلأت ملاحم "المقاومة الأدبية" بهؤلاء الناطقين بالحقيقة المرّة والحلوة والحامضية المذاق.. وقد تباينـــت آراء الـــنقاد حول مكانة وأهمية شهادات هؤلاء المراقبين الصامتين حيناً المشـــاركين أحـــياناً فـــي أعمال البطولة والفداء... فمنهم من وجد أن تسجيلات وانطـــباعات شـــهود العيان تستحق التوقف عندها على اعتبار أن صاحبها خاض غمـــار تجـــربة غير مألوفة... ومنهم من اعتبرها وثيقة من الدرجة الثانية لكونها ذاتية أكثر منها موضوعية... ومهما يكن من أمر تلك الآراء المتناقضة في معظم الأحيان فإن أمثلة تلك المشاهدات والمعاينات وحدها تستطيع إقناع القارئ بجديتها وعمقها أو بسطحيتها وهامشيتها..

ففي رواية "عشرة أيام هزت العالم" للصحفي الأمريكي التقدمي "جون ريد" يســـجل الكاتب الأحداث التي عاينها خلال وجوده في "بيتر وغراد" تشرين الثاني 1917، يومهـــا تعاطف "ريد" مع البلاشفة لمعايشته تحركاتهم وكتب على طريقة فـــيلم تصويري وثائقي المستجدات على الساحة الروسية والتي أدت إلى قيام ثورة أكـــتوبر 1917، كذلـــك شارك "ريد" بصفته صحفياً وشاهد عيان أعمال المقاومة الســـوفيتية انطلاقاً من "بترو غراد" مقاومة وضعت يدها على مراكز الاتصالات الســـلكية واللاسلكية في المدينة قبل الوصول إلى محطة البلطيق ومن ثم التوجه إلـــى القصـــر الشتوي لقياصرة روسيا. ويتوقف هذا الكتاب الوثائقي التسجيلي ــ الحـــدث عند المواجهات الدامية بين الثوار السوفييت الذي رفعوا شعار "المقاومة حتى النصر" وبين أنصار القيصر المنقسمين على أنفسهم.

... ويـــتابع مـــن ثم "ريد" تصوير المحطة القادمة للمقاومة وقد تحولت إلى لجان شعبية مع انضمام العمال الذين خرجوا من مصانعهم إليها (المقاومة) بهدف الدفاع عن مدينتهم. وعلى غرار "جون ريد" قام "اندريه ماندوز" ــ وهو أستاذ في جامعـــة الســـوربون اليوم شارك خلال الاحتلال الفرنسي للجزائر بمجلة "دفاتر" (المقاومـــة) ــ بكـــتابة مذكـــراته حـــول تلك المرحلة، وصدرت عام 1999 في

المقاومة الجزائرية للاستعمار الفرنسي...

شكل "ماندوز" مع "موريـاك" أهم الأصوات الأدبية المسيحية ـ كما تدعوهم الصحافة الأوروبية ـ المناهضة للممارسات التعسفية للقوات الفرنسية في الجزائر... وفي مقابلة أجرتها معه "الفيغارو الأدبي" بتاريخ 31/أيار/2001 تكلم "ماندوز" عن انخراطه في صفوف المقاومة الجزائرية قائلاً: "أعلنت حفنة من الأدباء التقدميين وكانت غالبيتهم تعمل في الصحافة إلى جانب نشرها الروايات والمسرحيات على غرار "فرانسوا" "موريـاك" و"كلود بوردي" مناهضتها لأساليب التعذيب التي أستخدمتها القوات الفرنسية لقمع انتفاضة الشعب الجزائري والشبيهة بأعمال الغيستابو.. يومها انتقلنا من مقاومة إلى أخرى، من مقاومة العنصرية الهتلرية إلى مقارعة الاستعمار... وقد وجدنا في كل منهما رفضاً للإخاء المسيحي بشكل خاص وانتهاكاً لحقوق الإنسان بشكل عام... فها هو "موريـاك" يقف في أعماله والتزاماته قبيل عام 1954 إلى جانب المجاهدين الجزائريين برفقة صديقه "روبير بارات" خلال زيارتهما لمخيمات المقاومة الجزائرية كذلك الأمر بالنسبة "لجورج برنانوس" الذي ندد بالعنف السياسي الفرنسي في الجزائر المحتلة... وقد نشرنا عدة كتابات ومقالات لهؤلاء الأدباء حُظرت طباعتها علناً ويتابع "اندريه ماندوز" لقد عشت في الجزائر (16 عاماً)، وشاركت حياة هذا الشعب العربي عن كثب... وأستطيع القول إن المظالم التي ارتكبت بحق الجزائريين مجحفة ويندى لها جبين الإنسانية، أما بالنسبة للمثقفين الفرنسيين الذين هاجموا "موليه" و"فيشي" وأنصارهما فقد تم إعدامهم... فعلى سبيل المثال: "أودان" تمت تصفيته "واللينغ" تم تعذيبه حتى الموت... ولم يسلم عدد من رجالات الدين المسيحي الذين استنكروا ممارسات القوات الفرنسية في الجزائر من الأذى... ألم يطلق أعداء المونسينيور "دوفال" ـ وهو أول من ندد بالتعذيب الجسدي الذي يتعرض له رجال المقاومة الجزائرية ـ على هذا الأسقف لقب "محمود دوفال"؟!.. ومن الأدباء شهود العيان الذين قالوا لا للاستعمار الفرنسي في شمال إفريقية نذكر على سبيل المثال: "فرانسوا موريـاك" أشهر الروائيين في الخمسينيات من القرن العشرين والذي رمى جانباً جائزة نوبل التي حصل عليها ليفضح الممارسات العسكرية الاستعمارية في المغرب العربي... ولكم أثارت مقالاته الهجومية غضب

السلطات في باريس التي شعرت بتعريته لفضائحها واستنكار الرأي العام الأوروبي لشرعيتها آنذاك... أما "جورج برنانوس" (1888 ـ 1948) فقد دعي بحق "محرض الشعب الفرنسي على المقاومة"... كذلك الأمر بالنسبة لكل من "مالرو" و"كامو" و"سيلين" صاحب الرواية المعروفة "السفر إلى آخر الليل" وصدرت عام 1932... هذا ولا تزال حرب التحرير الجزائرية مثار اهتمام المثقفين عبر شاطئي المتوسط لدرجة أن أضخم تظاهرة ثقافية حول هذا الموضوع نظمت في مدينة "مونبليه" بتاريخ (2001/12/11) في نادي الصحافة.. وتناولت "حرب الجزائر" واستقطبت كبار الأدباء والفنانين ونقلت وقائعها مجلة "اللموند ديبلوماتيك"... في التاريخ المذكور.

كاميكاز المقاومة

أعلام المقاومة أكبر من أن تصنفهم إحصاءات رسمية أو سجلات حكومية، إنهم ملائكة البطولة وصانعو المعجزات والمستحيلات... قد تشبه طفولتهم طفولة أي إنسان آخر لكن إنجازاتهم خارجة عن الطبيعة لا يمكن تصديقها أحياناً إلا بصعوبة... فالعمل الفدائي والتضحية في نظر هؤلاء "الكاميكاز" لا يميز بين آدم وحواء... وهاهي القصة الحقيقية لإحدى "بطلات الظل" وقد تحولت على يد "لوران غوفران" إلى رواية عنوانها "الأميرة المنسية" صدرت عن دار لافون 2002، استخرج غوفران" من أرشيف الحرب العالمية الثانية (مكتبة أسرار الدفاع في وزارة الدفاع الفرنسية) الملف الخاص بإحدى فدائيات تلك الحرب الكونية، ولينسج حوله رواية غاية في الواقعية. ويعمل "لوران غوفران" مدير تحرير مجلة "النوفيل اوبسرفاتور" وهو أديب وصحفي فرنسي يساري، وتلقي الرواية الضوء على حياة الفدائية "نور عناية خان" الأميرة الهندية الحسناء التي انخرطت في المقاومة "الفرانكوبريطانية" جناح العمليات الاستشهادية ورمزها SOE... احترفت "نور" الموسيقى والعزف على الطنبور والعود الهندي والبيانو والكمان إلى جانب تمتعها بجمال فائق، انضمت إلى "جيش الظل" كما تدعى تلك المقاومة ـ ولأن ديانتها تحظر عليها القتل. لم تستخدم "عناية خان" السلاح قط واكتفت بالقيام بدور "الراديو" أو عملية الاتصال بين الخلايا... وحملت اسماً مستعاراً "الفجر"...

تم إنزالها بالمظلة فوق الأراضي الفرنسية لتمهد الطريق أمام نزول قوات الحلفاء في النورماندي يوم السادس من حزيران 1944...

أخذ "لوران غوفران" هذه القصة الواقعية ليصنع منها روايته المشوقة المدججة بالحب والمقاومة والفداء... يسرد على لسان الراوي وهو من الثوار الإنكليز أحداثاً جرت عام 1943 فوق الأراضي الفرنسية، من خلال قيامه مع زميلته الأميرة "فجر" بتنفيذ مهمة فدائية سرية لصالح المقاومة الفرنسية...

كما ويتناول مطاردة النازيين لتلك الخلية في شبكة SOE وكيفية اغتيال أفرادها وتعرضه شخصياً للتعذيب، واتهامه بالتخريب من قبل "الغستابو" ثم محاولة "فجر" تهريبه فوقوعها في حبه وفشلها في عملية إنقاذه وموتها خلا عملية استشهادية مشتركة...

وعلى غرار SOE انطلقت "ريمي" وهي شبكة المقاومة الفرنسية المناهضة للنازية اعتباراً من حزيران 1944، لتلتف حولها عناصر تنتمي لمختلف الأحزاب السياسية والفصائل الشعبية.. ويأتي الكتاب الوثيقة "ريمي العميل السري رقم 1 لفرنسا الحرة"، تأليف: "غي بيرييه" إصدار دار النشر "بيرن" لعام 2002، ليكشف وجهاً آخر من أوجه البطولة خلال الحرب العالمية الثانية كما عاشها أحد فدائيي الظل وهو صاحب هذا العمل الأدبي... يقول الأديب: "غي بيرييه" وكان أصغر أفراد شبكة "ريمي" قبل ستين سنة من الآن: "تنتمي ريمي قلباً وقالباً لأنصار ديغول... تركت بصماتها في الجبهة الداخلية للمقاومة بين تشرين الثاني من عام 1940 وأيلول 1944، حين نجحت في تنفيذ 3600 عملية استشهادية ذهب ضحيتها 1540 فدائياً وفدائية وألقت الغيستابو خلالها القبض على (537) عنصراً في حين ارتفع عدد الذين تم اغتيالهم إلى (487) شهيداً.. توزعت أعمال هؤلاء الأبطال بين الدعاية المناهضة للنازية في مرحلة شهدت غسيل أدمغة الشارع الفرنسي من قبل الألمان وبين العمل السياسي وقامت به شبكات "نوتردام" و"ريمي" و.... التي اهتمت بجمع المعلومات وتفجير مراكز قيادة العدو ومطاردة قواته إضافة لتجنيد المواطنين المخلصين... ونجحت تلك المقاومة في نقل المعلومات إلى لندن خاصة بالنسبة لتحركات الغواصات الألمانية في بحر الشمال...

وكـــان دور "ريمـــي" حاسماً في معركة الأطلسي كما ذكر "غي بيرييه" وفي الإغارة على الرادار الألماني المنصوب في "برونيفال" (شباط 1942)...

ورغـــم انـــتماء "ريمـــي" للحزب الديغولي إلا أنها ساهمت باعتبارها حركة مقاومـــة فـــي تمويـــل الشـــيوعيين بالأسلحة، وتقديم المعلومات لهم فانضموا إلى صـــفوفها.. وتمكنت من إرسال أول موفد لهذا الحزب إلى لندن حيث مركز قيادة ديغـــول عام 1943.. شارك "بيريه" في معارك باريس قبيل وبعيد التحرير ليعمل على توحيد الصفوف الشعبية داخل البلاد بعيد سقوط "فيشي" و"بيتان" وأتباعهما.

أمـــا "غـــياب" القائد الفيتنامي الكبير الذي خاض مع المقاومة الشعبية معركة البطولة "ديان بيان فو" فأشهر من أن يعرف... استطاع هذا الزعيم الثوري وضع حد لأول حرب في الهند الصينية خلال العصر الحديث. وذلك خلال تلك المعركة التـــي تعتبر رمزاً لحروب المقاومة... رمزاً أكدّ أن النصر حليف الفدائيين الذين يتمـــتعون بتأيـــيد الجماهـــير لهم.. فقد جندت معركة "ديان بيان فو" (موقع قرب الحـــدود اللاوســـية الفيتنامـــية وجـــرت بيـــن 13 آذار و7 أيار 1954). مئات الاستشـــهاديين مـــن أبناء شعب فيتنام البطل الذي سارع لتلبية نداء "غياب" وتقديم الـــثوار والفدائيـــين لخدمة الوطن... وقد تصدت تلك القوافل من الشهداء لمظليي الجيش الفرنسي المحتل من خلال نقل قوات "غياب" المعدات العسكرية على ظهر المدنيـــين (75000) والمواطنـــين الذيـــن قاموا بحفر ممرات جوفية تحت الغابة المجـــاورة لـــ"ديان بيان فو"، حملت لهم النصر على العدو.. وقد وردت تفاصيل تلـــك العملـــيات في مذكرات "غياب" المشهورة"... كذلك ساهمت "الألوية الدولية" وضـــمت (35000) متطوع من 53 دولة ــ في التصدي للفاشية خلال الأعوام (1939 ــ 1945). مـــن خلال تنظيم أعمال مقاومة بطولية... ومن أبرز أعلامها "جوزيف بروس تيتو" الرئيس الأسبق ليوغسلافيا الموحدة وسيرته الذاتية غنية عن التعريف.

هـــذا وتتمـــيز "حرب الريف" من حيث تمثيلها للمقاومة المغربية المناهضة للاستعمار في العشرينات من القرن الماضي.. قادها الزعيم العربي "محمد بن عبد الكـــريم الخطابـــي" (1882 ــ 1963)، وتتـــناولها عدة أعمال لمؤرخين مغاربة وفرنســـيين اليوم.. دعيت "مقاومة الريف" لأنها استمرت خمس سنوات في منطقة

وفرنســيين اليوم.. دعيت "مقاومة الريف" لأنها استمرت خمس سنوات في منطقة الأرياف المغربية وتمكنت من دحر الإسبان بين الأعوام 1921 و1925 عن تلك المواقع المعبأة بالثورة والتضحية والفداء..

المقاومة والسلم

ولأن للمقاومة هدفاً نبيلاً يتلخص في إزالة الغبن عن المجتمع وتحقيق الحرية لأفــراده ونشــر الســلام في أرجاء الوطن.. جاءت أعمال عشرات الأدباء تدعو لمــتابعة المسير حتى بلوغ تلك الغاية المنشودة.. و تترجم رائعة "نورمان ميللر" وعــنوانها "جيوش الظلام" الصادرة عام 1968 نزعة الإنسان التاريخية للوصول إلــى هــذا الهــدف إلى جانب توق دعاة السلم بين الأدباء والمفكرين لتحقيقه... ويســجل "مــيللر" في هذه الرواية انطباعاته الشخصية حول تداعيات حرب فيتنام أواخــر تشــرين الأول عام 1967، حين قامت التظاهرات الأمريكية في شوارع المــدن الكــبرى تندد بتلك الحرب. ورأت فيها واشنطن مقاومة داخلية لسياستها الخارجــية... فخــلال يومــي 21 و22 أكــتوبر اتجهت المسيرات الشعبية إلى البنتاغون يتزعمها ممثلو حركة اليسار الأمريكي وشملت أساتذة جامعات ومثقفين وصــحفيين وقيادات زنجية ونساء تقدميات... ولم يتردد المتظاهرون في مواجهة رجال الشرطة بأجسادهم وأيديهم لينتهي بهم المطاف إلى السجن وبرفقتهم "نورمان ميللر"، الذي زج خلال أسبوع وراء القضبان... ويكشف الأديب الأمريكي في هذه الــرواية الطــريقة التــي يســاق فيها الإنسان إلى حرب لا يفهمها ولا يريدها أو يقــرها.. ويــتوقف الكاتب عند دوافع قيام "المجمع الصناعي العسكري" الذي لا شــأن له سوى زيادة التسلح وتصعيد حمى الحروب في أرجاء العالم، وتأجيج بــؤر التوتر في المناطق الساخنة. فالمجمع الصناعي العسكري ناهضته تظاهرات 1967 ــ وهــي مقاومة شعبية سلمية تعتمد اللا عنف كسلاح للتعبير ــ ولا يزال يجد في الحروب سبباً لوجوده...

أما مقاومة "العولمة" ذات الطابع السلمي فقد اتخذت وجه الإبداع الثقافي في تصديها لطاحونة "الآلة التكنو ــ اقتصادية" كما قال "روجيه ليغار" (المؤرخ وأستاذ الجامعــة ورئــيس لجــنة التعلــيم العالي في باريس)، وقد وجد "ليغار" في تلك

ديبلوماتيك ـ (كانون الأول 2001).: هل تحمل "منظمة التجارة العالمية" في جعبتها العولمة أم الاستعمار الجديد؟ فمنظمة التجارة العالمية اليوم أداة العولمة في الترويج للمركزية الإتنية، انطلاقاً من مقولة:"ثقافتي أفضل من ثقافتك لذلك سأفرضها عليك بالقوة"...

ثقافة الكوكاكولا، والجينز، والميكروسوفت، والانترنيت، والساتلايت التي أغرقت العالم بصور لا ذاكرة لها وتموت بمجرد بثها... أنجبت تلك الثقافة استعماراً مألوفاً يعمل وفق مبادئ التمييز العنصري والتطهير العرقي الخ...

وفي هذا السياق جاء كتاب "مودبارلو وتوني كلارك"، وعنوانه: "معركة سياتل" دار فاريا للنشر 2002، والذي لا يعتبر سرداً لتظاهرات "سياتل" (كانون الأول 1999)، بقدر ما يترجم المقاومة الجماهيرية للعولمة التسويقية.

أو بتعبير آخر المجتمعات المدنية في مواجهة العولمة الاستهلاكية... وتأتي أهمية هذا المؤلف وعرضته اللموند ديبلوماتيك في عدد تموز 2002، من حيث أنه يعطي صورة حية لحركة مناهضة، ومقاومة الرأي العام العالمي لتلك العولمة... مقاومة سلمية انطلقت من الهند عام 1980. تندد بتدخل الشركات المتعددة الجنسية في قضايا الغذاء العالمي والشؤون الثقافية في العالم كحق الملكية الفردية وحروب المياه ومشاكل البيئة و....

ليطل السؤال: إلى أين تتجه التظاهرات الشعبية المناهضة للعولمة؟!

ولماذا تحولت إلى مقاومة جديدة لهذا الاستعمار الثقافي القديم ـ الحديث؟...

هل لأن الآلة التكنو ـ اقتصادية والعولمة الاستهلاكية التسويقية ترفع شعار: "الغاية تبرر الوسيلة"، في كل شيء؟ أم؟

❑

*المراجع:

ـ الفيغارو الأدبي 2001/10/25، (ملف).

ـ الفيغارو الأدبي 2001/5/31، الدفتر الثالث.

ـ اللموند ديبلوماتيك عدد كانون الأول 2001.

ـ ملحق الفيغارو الأدبي 2001/10/4.

ـ اللموند ديبلوماتيك عدد تموز 2002.

ـ معجم "أحداث القرن العشرين"... مطابع "الجيب" الفرنسية 1980.

ـ معجم "مؤلفات الأدب الأمريكي" دار لاروس 1990.

ـ معجم "مؤلفات الأدب الفرنسي" دار لاروس 1990.

□□□

كتاب فرنسيون مقاومون (نصوص فرنسية)

■ ترجمة: زياد العودة ■

عن الفرنسية

في كانون الثاني لعام 1940، يتناهى إلينا، في فيلنوف "خبر موت سان – بول رو، شاعر "مذابح الطّواف (الزيّاح)".

حضرت "سيدةُ المنجل" (الموت) إلى مشفى برست، بعد ستة أشهر من الاعتداء على ابنة الشاعر العجوز، ديفين، وبعد اغتيال خادمتهما على يد جندي ألماني في قصير كويسيليان الريفي. فيكتب أراغون، بناءً على طلب من سيغير وقبل أن يغادر فيلنوف إلى ينس، يكتب دفعةً واحدة، ومن غير أن يشطب شيئاً، عشر صفحات ثاريّة يضع عنواناً لها هو:

"سان–بول رو أو الأمل". وقد نشرت في العدد الثاني (فيما بين كانون الأول 1940– وكانون الثاني 1941) من مجلة شعر 41: Poésie 41 وتزينها صورة جميلة لسان –بول روكان قد أوصلها إلينا جان دونويل. فيعمل مقص الرقابة، فلا يقتطع ما كتب أراغون، بل قصيدة سان– بول رو. ويُستبدل بجزء من نصّ الشاعر، مساحة بيضاء (فارغة) يظهر عليها التعبير "حذفته الرقابة". فماذا كان سان –بول رو وأراغون يقولان، ولم يكن بوسع المراقبين أن يدعوه يمرّ؟

مضـــى الـــرّعاةُ الصغار ذوو الشوارب السمراء رعاةُ القرية الصغيرة التي لوجوه بناتِ المعمودية فيها شحوبُ ضوء القمر، ولأسلافها لون حجر الجلجلة.

لقد مضوا على وقع حمار ميت يصطدم به سكّير بقوة، لقد ذهبوا إلى هناك، إلى الحدود، أولئك الصغار.

وكانت والدة والدتهم تصرخ بهم، حين مرت:

-علـــى عتـــبة اليّم الذي يفصل بلدينا، رأيت الريش الهمجي يظهر من على قـــبعات كـــبار شاربي البيرة ذوي الشوارب الشقراء، آه يا صغاري اللطفاء! إن القليل من موتكم سوف يحافظ على حياتي.

وكانوا يجيبون:

-ها آنذا، يا وطني!

كـــل ذي شارب أسمر، يحتسي شراب التفاح في الضيعة اللطيفة التي لبنات المعمودية فيها شحوب ضوء القمر، وللأسلاف لون حجر الجلجلة.

(...) وعلـــى أية حال، فهذا المتراس الهائل من الجثث كان عليه أن يحمي إلى الأبد الوطن الأسمر من الوطن الأشقر".

لئـــن قـــرأت الرقابةُ وفهمت، وأخفت "الوطن الأشقر" بالتعارض مع "الوطن الأســـمر" وطـــن سان- بول رو الفائق الشفافية ("سمراء" وشقراء" فالمراقبون هم شـــاربو بيرة، وقد فهموا ذلك..)، لقد أغفلت الرقابة تلك السطّور، سطور أراغون وتركـــتها تمرُّ في موضع آخر أبعد، بيد أنها أصبحت معلنةً مع ذلك في نهاية عام 1940:

"إن الجراح الخفية لوطني هي الجراح الأعمق، وهي التي لا يتكلمون عنها. لقد أنكرت عذاباتها. وشهداؤها الذين لا يمكن تبجيلهم إلاّ في القلب. هؤلاء الأبطال الذين ذات يوم، ذات يوم، سوف نقبّل خطاهم...".

مقاومة ماذا؟ تدقيقات

من هم، أو من سيكون، الأبطال الذين يذكرهم أراغون في نهاية عام 1940؟ ففي باريس، ثلاثمئة عضو في الحزب الشيوعي قد جرى توقيفهم، في الخامس من

تشــرين الأول لعام 1940، على يد الشرطة الفرنسية، وكذلك قادةٌ نقابيّون. وفي الريف، سجن قادة الشرطة المناضلين المعروفين علناً (المناضلين العلنيين).

إن الهدف الأول للألمان وحكومة فيشي هو ملاحقة الشيوعيين حتى الموت. ولســوف يجري اختيار الرهائن حالاً من بين السجناء السياسيين. أما القوائم التي يعدُّها فرنسيون، فلسوف تعيّن أولئك الذين سيعدمون: بالمقصلة، أو الشنق، أو أمام فصيل الإعدام.

يــا لهــا من آفاق قاتمة، إن كلّ شيء أسود. فحين أقام الألمان في باريس، احتلوا القطاع الشمالي وضبطوه، وهو ذلك القطاع الذي يقع شمال خطّ يمرُّ بجكس ودول وشــارول، وفييرزون، ولوش، وريبراك، ومون دون- مارسان، وسان - جان- بييه دوبور.

وفــي القطاعيــن الشمالي والشرقي تسع محافظات أصبحت تشكل "القطاع المحظور". أما الألزاس فقد جرى إلحاقها بكل بساطة.

لقــد أخفــق الألمــان فــي لندن. أما أوربا، أوروبا كلّها، باستثناء سويسرا، والسّويد، فأصــبحت تخصــهم. إن فيشي وبيتان ولافال يساعدونهم. وثمة ألوية خاصة (B.S) قد أنشئت ضد المقاومين.

نهاية عام 1940- المقاومة تبحث عن نفسها

في خريف عام 1940.

جــان غينهيــنو، الأستاذ الجامعي، ورئيس تحرير دورية "أوروبا" حتى عام 1936، ومديــر الأسبوعية فاندرودي (الجمعة) والكاتب المعروف إلى حد كبير، والمناضــل السلمي، هو أحد الأوائل الذين اتخذوا موقفاً ضد روح الخضوع، التي تنوي فيشي فرضها على الفرنسيين وبعد خطاب بيتّان، بعد الهدنة، يرفض التنازل عــن رأيه. فأرسِلَ تلاميذ معاهد louis le grand وlyon وhenri iv و Strasbourg إلــى كلــيرمان فــيران التــي ينبغــي لغينهينو أن يذهب إليها ويلقي محاضرات فيها. لقد كان عضواً سابقاً في "لجنة المفكرين المناهضين للفاشية" مع فالــتر- وريفــيه ولانجوفان، وصديقاً لبولان وجان بلانزا، وهو قريب من أولئك

الذين أسسوا في باريس، المجموعة الأولى مجموعة "متحف الإنسان" وأصبح فيما بعـــد، أحد الذين صنعوا "الآداب الفرنسية" السّرية، بعد أن اصدر من بين الأوائل، وبيــن عامــي 1940-1941، نشـــرتين مغفلتيـــن مـــن اسم المؤلف "رسالة إلى الفرنسيين" وقد أتبعها بعد قليل بـــ "رسالة إلى الشبان الفرنسيين" وزّعت سرّاً.

ومن أيلول 1940 حتى تحرير باريس، في رقم 5 ساحة سان -ميشيل، انعقد فـــي قلـــب العاصمة مركز سري غريب، هو مركز جماعة "الثبات" فلقد اجتمع ا. روزيـــيه، الأميـــن العام للجنة العليا للأعمال التي تجري لصالح الشبيبة المدرسية والجامعـــية، وكلـــود بيلانجـــيه، الصحافي ومدير مركز مساندة الطلاب المعبئين للخدمـــة والسجناء، وفرانسوا دولسكور، الأمين العام لاتحاد طلبة فرنسا، وفيليكس روشيه، وكيل الدعاوي، وجان كريير، المحامي في محكمة الاستئناف في باريس، لقـــد اجـــتمعوا ليعبروا عن رغبتهم في النضال ضد النازيين وفيشي. واشترك في اجتماعات النواة الأولية، منذ البداية، جورج جاماتي، معاون مدير البحث العلمي.

□□□

Foreign Literature Quarterly, no.113, Winter 2003, Twenty Eighth Year

A Special Issue about "Resistance in Literature"

Contents

□□

الآداب الأجنبية، العدد 113، شتاء 2003

السنة الثامنة والعشرون

عدد خاص عن "المقاومة في الأدب"

المحتويات :

□□□

AL-ADAB AL-AJNABIYYA

(Foreign Literature Quarterly)

العـــدد 113 شـــتاء 2003 الســـنة الثامـــنة و العشـــرون

ARAB WRITERS UNION – DAMASCUS, SYRIA

Al- ADAB AL - AJNABIYYA

(Foreign Literature Quarterly)

No. 113

اتحاد الكتاب العرب
ARAB WRITERS UNION
DAMASCUS دمشق

السعر ٢٥ ل.س
وفي البلاد العربية ٣٥ ل.س أو مايعادلها

مطبعة اتحاد الكتاب العرب
دمشق